329

A.M

# حضارة الأنبياء

## تاريخهم وعصمتهم





الدكتور محمد رضا محمد بشير القهوجي

دار الوراق
دار النيربين

# حضارة الأنبياء

*Sunday*
*10/2/2013*
*Riyadh*







# أميرة الجبل

رواية

الدكتور نجيب الكيلاني

كتابنا القادم

دار ابن حزم

# حضارة الأنبياء

## تاريخهم وعصمتهم

الدكتور محمد رضا محمد بشير القهوجي

دار الوراق
دار النيرين

بسم الله الرحمن الرحيم



## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

إن نظرة إلى التقدم العلمي، والفكري، والصناعي، والمعماري، وما أصبحت عليه اليوم كثير من الأمم والشعوب، تجعلنا في حيرة من أمرنا.

فهل هذه هي الحضارة المرتقبة، التي جاءت بها الرسالات وأرسل الله من أجلها الشرائع والرسل؟

وهل بلغت الإنسانية القمة في الحضارة بهذا التقدم؟ أم أن حضارة الأنبياء والرسل تنحو منحى آخر؟

وإن كانت هذه هي الحضارة المطلوبة، فلمَ هذه الحروب المدمرة الطاحنة، ولمَ هذه الإبادة للشعوب؟

ولمَ سفك الدماء، وخراب المدن، والجسور والمساجد والمعابد

والمؤسسات والمستشفيات والمدارس والجامعات والمؤسسات التعليمية والمكتبات، وسائر المقدسات؟

ولِمَ هذا الإرهاب والتسلل، للاستيلاء على الثروات والمعادن، وتسخير كل الطاقات لهوى شعبٍ أو أمة، أو غطرسة حاكم، أو رئيس؟

وإن كان بناء المدن والمصانع وناطحات السحاب وامتلاك القوة الجبارة للبطش بالأمم الضعيفة والمستضعفين من دول العالم الثالث هو الحضارة، فما معنى قول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٥] وقوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢].

لقد امتنّ الله على عباده بأن جعلهم خلفاءه في الأرض واستخلفهم عليها، وطلب منهم أن يتعرفوا على النواميس الكونية، وأن يستغلوا الطاقات والخيرات، وما خلق لهم، في الخبرات الفنية المكتسبة، والعلوم التجريبية، التي يتوصلون إليها، وذلك كلّه ضمن **القِيَم والأخلاق التي قررها الله لهم**(١).

---

(١) قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

ومن هنا لا يسمى هذا التقدم وهذا الإبداع المادي حضارةً، في المفهوم الإسلامي؛ بل الحضارة بأن يكون المتحضر مخلصاً حقاً في اتباع منهج الله الذي استخلفه فيه، يوم أن جعله خليفة في الأرض فيحكّم شريعة الله ومنهجه، في سلوكه وأخلاقه ونفسه، وفي سلوكه مع الآخرين، ويتعرف على نواميس الكون وقوانينه، التي خلقها الله فيستخدمها في سعادته وسعادة الآخرين، وفي مدّ يد العَوْن مادياً ومعنوياً للآخرين. . . هذه هي الحضارة.

وإذا فهمنا هذا المعنى نصل إلى الحقيقة التالية (الإسلام هو الحضارة) وإن شئت فقل شريعة الله هي الحضارة.

حينما دخل بعض الوثنيين العراة ـ في إفريقيا ـ في الإسلام اكتست الأجساد العارية، وانطلقوا في مفهوم جديد، نقلهم من طقوسهم ومفاهيمهم إلى العبودية لله رب العالمين، والتي تعني: التجمع على آصرة العقيدة، الاستعلاء على الشهوات والمادة، سيادة القيم التي تُنمّي مفهوم الإنسانية للإنسان، حرمة الأسرة وصيانتها، تطبيق مفهوم الاستخلاف، تطبيق منهج الله وشريعته.

لقد كان عالمنا العربي ـ في الجزيرة وبلاد الشام ـ مهداً للحضارات بالمفهوم الإسلامي ـ الإسلام هو الحضارة.

والإسلام الذي نعنيه هو ما نادت به الديانات السماوية من عهد إبراهيم عليه السلام وهو أول مَن دعى إلى الإسلام، وسمّانا بالمسلمين.

ولقد بلغ الأوج والذروة في العهد الإسلامي الأول، فكانت هذه الأمة وبحق، خيرَ أمة أُخرجت للناس.

ثم غزت الحضارة الغربية الشعوب، فلا يكاد يمرّ يوم إلا ويطالعنا باكتشاف جديد، ونفاجَأ باختراع حديث، يصبح معه الأمس القريب نسياً منسياً، ولا شيء يدعو للإعجاب والذهول.

فالذرة والقنبلة الذرية، والصواريخ عابرة القارات، والأبراج الهائلة، أصبح كل ذلك من الماضي.

وتتجه الأنظار إلى الحاسوب الآلي والأجهزة التقنية الرقمية، والليزر والجراحة به، ثم الوصول إلى الكواكب، والأقمار الصناعية، ونقل الأعضاء والتخصيب، وأطفال الأنابيب، وغرس الأعضاء، مما يشغل أذهان العالم ونفوسهم. وانتقل ذلك إلى الأشجار والأزهار والحيوانات بشكل يفوق الخيال، ولكن في مجال الذرة مثلاً.. ماذا فعلت القنبلة الذرية في البر والبحر والبشر؟ وماذا صنعت الأسلحة، وأسلحة الدمار الشامل حتى بالكائنات الحيَّة، والتي لا تُبقي ولا تذَر وتحرق الأخضر واليابس، بل تبقى آثاره مئات السنين؟

إن كل حدَث جديد يطمس الحدَث الماضي ويُنسى.

وإذا كان الحادث النووي الذي حدث في ناغازاكي وهورشيما ـ والذي لا زالت آثاره إلى اليوم في البر والبحر والوراثة ـ يدفعنا للتفكير، في جدوى التقدم العلمي في البرامج النووية، فما بالك بهذه السُحب السوداء الناجمة عن الفوضى النووية، والاختراعات المدمرة المهلكة للحرث والنسل، والكيمياء الجرثومية، وهذا التغير الحراري العالمي والذي تسبّب بثقب (الأوزون).

إن كل هذا يدعونا إلى المبادرة للإصغاء إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾.

لقد فسد ذوق الناس، وفسدت شهواتهم، ورغباتهم، وتصوراتهم، وعقائدهم، وأنظمتهم، وشرائعهم، ففسدت أخلاقهم ومعاملاتهم، وطغت عليهم المادية، فلا عجب مع كل هذا من أن يتغير مفهوم الحضارة لدى الناس بل إلى ما هو أشد وأنكى، فأصبح البعض ـ ممن يدّعي الإسلام لله رب العالمين ـ يريد أن نجدّد المفهوم الديني، وأن نغيّر نظام الله الذي وضعه للناس، واستبدال ذلك بقوانين من وضع البشرية كأنهم يعلمون ما لا يعلمه الله، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١] وصدق الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

فاتباع منهج الله هو الحق، وينطبق على صاحبه، أنه (خليفة) الله وإلا فهو الانحراف والهوى.



# تمهيد



الإنسان اجتماعي بطبعه لا يمكن أن يعيش وحده بمنأى عن الآخرين، وهذه المعيشة تتطلب مصالح متبادلة، لينعم الجميع بالسعادة والاستقرار، فلا يمكن للمرء أن يزرع ويحصد، ثم يطحن الحَبَّ ويخبزه، وفي نفس الوقت يصنع باباً أو أريكة، وينسج ثوباً، ويصنع حذاء، فلا بد من تبادل الخبرات والمصالح.

وفي المقابل يحتاج الجميع إلى نظام كامل، يضبط هذه الحياة ومعاملات الأفراد.

وهذا النظام إما أن يكون من صنع بشر، أو تنزيلاً من رب العالمين.

والإنسان بطبعه وطبيعته، قاصر عن وضع قوانين أو أنظمة شاملة، لأن القوانين الوضعية التي هي من وضع البشر، لا تهتم إلا بما يراه المشرعون والواضعون للنظام من مصلحة، دون مراعاة للجوانب الخلقية ويقظة الضمير والأخلاق.

فمثلاً وجوب التعليم يجبر المشرع الوضعي الناس على التعليم إلا أنه لا يشرع أخلاقية للتعليم، ولا يراعي وجه الله، والتقرب إلى الله.

والقوانين الوضعية قد تبيح ما حرّم الله، كالاتجار بالخمور وفتح دور اللهو، والتعامل بالربا، وتحمي كل ذلك، بينما تشريع الله سبحانه يحمي الأفراد ويحفظهم، ويربطهم بالله تعالى، ويربط عملهم وشعورهم بالله تعالى، فهم يعملون من أجل مرضاة الله، ولا يريدون في أعمالهم علواً ولا فساداً في الأرض، وبذا ينشئون حضارة.

وعلى هذا قال البعض بأن الحضارة مشتقة من كلمة حضري، وأثناء سكن المتحضرين المدن، تنشأ روابط فكرية واجتماعية وخلقية ومهنية.

وتختلف مفاهيمها من إنسان لآخر، حسب مفهومه لطبيعة هذه الحياة، والأنظمة التي يتعامل معها.

فيرى البعض أن كل ما يجري في الكون، هو أسباب ومسببات تخضع لقوانين وعلل، ومن وجهة نظر المسلم، إن كل ما يجري في الكون خاضع لله تعالى، بأسباب وقدرة إلٰهية، قد يعطلها أو يخرقها متى يشاء، وبالكيفية التي يريدها الله سبحانه.

فكلمة اقرأ التي خاطب بها الوحيُ رسولَ الله ﷺ، تعني في الأصل، القراءة من شيء محفوظ غيباً أو منظورٍ كتابة.

وفي المفهوم الإسلامي، باسم الله تقرأ هذه العلوم، التي تفيض عليك من الله، وبقدرة الله لا بالأسباب.

فبالقدرة أخضع الله السماء والأرض وما فيهما للإنسان، لا كما يفهم غير المؤمن من أنها قوانين وأسباب، فنُزُول المطر بقدرة الله لا بقوانين قد تتعطل، والشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح، كل

ذلك بقدرة الله وأمره، فنتعامل معها على أنها مسخرات بأمره سبحانه لخدمة هذه المخلوقات جميعها، فالشمس تشرق على المؤمنين وغير المؤمنين، لأن الجميع مخلوق لله تعالى.

فالمؤمن الحق الذي وعى كلام الله سبحانه وأوامره ويتعامل مع المخلوقات كلها على أساس المنافع المتبادلة، وأن البعض مسخَّر للآخر وينظر إلى العالم المتطور نظرة حب وإشفاق، هو **الإنسان الحضاري**.

وليست الحضارة هي الرقي المادي والصناعي، والتفوق العسكري وبناء ناطحات السحاب، والتحليق في الفضاء والغوص في أعماق المحيطات والبحار، وإن كان هذا لا يتنافى مع الحضارة في بعض أوجهها.

فالعالم الغربي بحق يمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان من حياة مادية، ويمثل الآن أوج قوته المادية... ولكن هل هذه الأمة فعلاً أمة متحضرة؟ سعد أهلها، ويعيشون عيش السعداء، وعليهم أن يصدِّروا للعالم هذه الحضارة لتسعد البشرية، وتتخلص من البؤس والشقاء والدمار؟

فهذه هي آثارهم تدل عليهم أينما رحلوا وأينما حطُّوا ترحالهم... الخراب والدمار، والقتل والنهب، وفظائع لا توصف... فهذه ڤيتنام وكوريا، وهذه أفغانستان، وهذه العراق... فهل هذه هي الحضارة؟

إن الأمة التي تود حمل مشعل الحضارة، يجب قبل كل شيء أن تحمل عقيدة صافية، تحترم العقل، وتدفعه للتفكير والاستنتاج والبحث

والتأمُّل، هذه العقيدة يؤمن صاحبها بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وأن يكون صاحبها ذا خلق إنساني معتدل، بأن يوازن بين مصلحته الشخصية، والمصلحة العامة.

وهذه العقيدة تلازم الفرد في عمله وعلمه، في حربه وسلمه، في جدِّه وهزله، لا يسخر صاحبها من الآخرين، ولا يحتقرهم ولا يسلبهم أموالهم، ويحافظ على أموالهم وأعراضهم، وهو مسؤول يوم الجزاء عن كل صغيرة وكبيرة.

وبهذه المبادئ حملنا مشعل الحضارة حقباً من الزمن، يخاطبنا التاريخ بقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١].

لقد انعكس كل هذا على الأفراد والشعب ثم انتفع بها الآخرون.

وشعارنا: وحدة الإنسانية، ووحدة النزعة، والهدف، وأنها دعوة عالمية. يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

فكبار الفقهاء ورجال القانون والعلماء في شتى الميادين برزوا باسم الإسلام، وقدّموا للبشرية أروع حضارة وأراقها.

فالحضارة لا تُسمَّى حضارة بمجرد التقدم العمراني، أو الصناعي أو في كثرة المسارح والملاهي، ولا بالترف في الملبس والمأكل والمعيشة، ولا بالتفوق العسكري المدمر، الذي يقتل الآلاف والملايين ويخرب العمارات فوق رؤوس ساكنيها، ولا الذي يمنع عن الأطفال

الماء والطعام والدواء، ويُجهز على الجرحى والضعفاء، ويقتل الآمنين وهم في دور عبادتهم أو في منازلهم، بشتى أنواع ما توصّل إليه التفوق العسكري من مخترعات.

ومما سبق نقول: إن الحضارة الإنسانية، هي كل إنتاج أو عمل تنعكس فيه الخصائص الفكرية، والوجدانية، والسلوكية للإنسان الاجتماعي الواعي، في إطار من القِيَم العليا، والمبادئ المثالية، التي تسعد البشرية جمعاء؛ والتي تنبع من الإيمان بالله والعقيدة الصافية.



# الحضارة



مما سبق ذكره نقول: الحضارة الإنسانية هي ثمرة الجهود البشرية في إطار التعاون الإنساني لما فيه من خير البشرية.

وهذه الجهود وهذا التعاون إن لم يكن مقروناً بعقيدة صحيحة راسخة ومبادئ نابعة عنها فربما تكون شقاءً ودماراً وشراً، فيتسلط أصحاب هذه الحضارة على المجتمعات الأخرى، ويستخدمون الوسائل الحديثة، والقدرات الهائلة أداة للسيطرة والاستعلاء، واستغلال ثروات الآخرين وإذلالهم.

بينما حين تكون نابعةً من عقيدة ثابتة، وإيمان بالله راسخ، لا يستغلون قدراتهم للسيطرة والاستعلاء ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

بل تأمرهم هذه العقيدة: بالعدل والقسط حتى مع أعدائهم ومحاربيهم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النحل: ٩٠].

ومن وصايا الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، والقادة المؤمنين بأن يعاملوا المحاربين من أعدائهم، بشرف وألاّ يغدروا بهم، ولا ينقضوا عهداً، ولا يخونوا مَن استسلم واستأسر، ولا يجهزوا على جريح، ولا يقتلوا امرأة، ولا مُدْبِراً هارباً، ولا وليداً، ولا شيخاً طاعناً، وأن لا يتعرضوا للنُسَّاك والعُبّاد، ولا يقطعوا شجرة، ولا يهدموا بيتاً أو صومعة.

والأساس الذي تقوم عليه الحضارة الإنسانية: الإنسان نفسه بما يحمل من مبادئ وقيم، فحيثما وجدت المبادئ السامية، والقيم الإنسانية وجدت الحضارة.

وهذه المبادئ تبدأ بالعقيدة الصافية الراسخة، ومن هذا المنطلق يكون الرقيّ والتقدم في شتى مجالات الحياة وأنماطها، والتي تؤثر فيه شخصياً.

فقد يعيش إنسان في بيئة متحضرة، وهو أبعد ما يكون عن مفهوم الحضارة.

لقد وصلت الحضارة القديمة ـ المادية ـ إلى الأوج عند عاد وثمود، حيث وصفها الله سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: ٨، ٩].

ووصلت حضارة الفراعنة إلى أعلى المستويات كبراعتهم في تحنيط الموتى، والمحافظة على الجثث، ولا تزال الاهرامات ـ إلى اليوم ـ تعتبر من أعاجيب الدنيا، وهناك أسرار لم يكشف عنها بعد: وصلت إليها قبائل عاد. . .وثمود.

وكل هذا لا يغني عن الحق شيئاً، حينما طغوا في البلاد ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٢ ـ ١٤].

المجتمع الإسلامي هو الذي يطبق فيه الإسلام: عقيدة وعبادة وشريعة ونظاماً، وخلقاً وسلوكاً.

والمجتمع الجاهلي: هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام بهذه المفاهيم.

فلو قلنا: إن المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناساً ممن يسمون بالمسلمين وإن مارسوا شعائر الإسلام من صلاة وصيام وحج للبيت الحرام... نكون قد أخطأنا فهم الإسلام.

لا يكون المسلم مسلماً، حتى يكون هواه تبعاً للتشريع الإسلامي بدءاً من العقيدة، وانتهاءً بالأخلاق النابعة من هذه العقيدة.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

فالمجتمع الإسلامي، هو وحدة المجتمع المتحضر.. وما سواه فمجتمعات متخلفة.

ففي المجتمع المسلم لا إكراه في عقيدة، ولا طبقية، ولا تمييز بين مواطن ومواطن، يخضع الأفراد لتشريع واحد، وصادر عن رب العالمين.

وفي غير المجتمع المسلم، تكون المادة في شتى صورها هي

القيمة العليا، سواء في التفسير المادي، أو التاريخي الحتمي، فتهدر في سبيلها القيم، والخصائص الإنسانية.

ففي المجتمع المسلم: تكون الأسرة مسؤولة عن رعاية الجيل، والبيئة التي تنشأ فيها القيَم والأخلاق.

وفي غير هذا المجتمع تكون العلاقات حرّة ـ علاقات جنسية ـ والنسل غير الشرعي، هي قاعدة المجتمع، تقوم على أساس الهوى والنزوة والطيش، لا على أساس وظيفي أسري، وبالتالي تصبح الأنثى معنية بالزينة، والغواية، والفتنة أكثر من عنايتها في (صناعة الإنسان) فهذا هو التخلُّف الحضاري بعينه.

إن الإبداع المادي وحده لا يسمى حضارة، فقد يرتبط بالمفهوم الجاهلي.

قال تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢].

إن المنهج الإسلامي لا يحتقر المادة، ولا التقدم العلمي والصناعي، والإبداع الذي يحمل طابع منهج الله وإرادته، فيكون نعمة على العباد كما أشار نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

إن مقومات الحضارة تبدأ من العبودية لله تعالى والتجمُّع على

آصرة العقيدة، واستعلاء الإنسان على المادة، وحرمة الأسرة، والخلافة في الأرض على الشكل الذي أراده الله، وتطبيق منهج الله وشرعه.

ولا شك أنها تتأثر بالتقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي.

إن الإسلام حينما دخل أواسط إفريقيا ـ بين العراة ـ فبمجرد دخولهم بالإسلام اكتست الأجسام العارية وأصبح اللباس حضارة حسب التوجه الإسلامي، وخرج الناس من الخمول والبلادة إلى نشاط العمل الموجه لاستغلال الأرض، وخرجوا من عبادة الطوطم إلى عبادة رب العالمين، ومن عصبية القبيلة إلى حضارة الأمة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

* * *

## دعائم الحضارة

إن دعائم هذه الحضارة تبدأ:

١ ـ بالإيمان بالله وحده وأن يتأمل الإنسان ويتفكر في خلق الله ويستنتج من ذلك عظمة الخالق والمبدع فهذا يجعل من الفرد إنساناً واقعياً لا ينظر إلى غيره بعجب وكبرياء، وأن الله تعالى يراقبه ويراه، وعلى المرء شكر الله سبحانه على عطائه وخلقه.

٢ ـ والإيمان باليوم الآخر من أركان هذه الحضارة، يؤمن المرء المؤمن بأن هناك يوماً يرجع فيه إلى الله، ويحاسب المرء على عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ويدفعه هذا الإيمان إلى التضحية بماله وجهده وحياته، لأن ما عند الله خير وأبقى.

٣ ـ وعلى المرء التحلّي بالأخلاق الفاضلة، والسلوك الحسن سواء في قوله أو عمله أو مع الآخرين.

فإذا كانت هذه دعائم الحضارة وهذا مفهومها، فنصل إلى النتيجة التالية: الأنبياء والمرسلون يمثلون قمة الحضارة، وكل نبيّ أو رسول كان حضارياً، يعمل على بناء الحضارة وكل أمة حضارية تسلم لمن بعدها نتائج حضارتها ـ بهذا المفهوم ـ وهذا معنى قوله عليه السلام: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

* * *

## اتباع شريعة الله هو الحضارة



لكي نعلم مصداقية هذه الجملة، لنرجع إلى الوراء تاريخياً قبيل بعثة الرسول ﷺ حيث كانت المنطقة أشبه بصحراء تسكنها قبائل أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

وإن شئت المزيد تخيّل أن رجلاً من هؤلاء، يدخل مسجد الرسول ﷺ في المدينة، والرسول بين أصحابه يحدّثهم، فيجلس قليلاً فتدركه الحاجة إلى البول، فيكشف ثيابه أمامهم، ويبول في المسجد، فيهرع إليه الناس ليزجروه ويمنعوه، فيقول لهم النبيّ ﷺ: **«دعوه ولا تزرموه»**، ثم أمر بذنوب من ماء فأهرقه على المكان ـ وكان أرض المسجد رملاً ناعماً ـ ثم قال للرجل معلماً: **«إن هذا المسجد لا يصلح فيه من هذه الأمور شيئاً»**.

إن هؤلاء الغلاظ الجفاة، قد ارتفعوا إلى آفاق إنسانية رفيعة وأصبحوا هداة للبشرية، ودعاة للخير والهدى والحق، وبناة حضارة إنسانية أينما حلُّوا أو ارتحلوا، يأخذون من الأمم خلاصة تجاربهم، ثم هم يبدعون فيها بعد عرضها على ميزان الإسلام، عقيدة ونظاماً وأخلاقاً وسلوكاً. معاملة ونظاماً... لأن الحضارة إنسانية لا وطن لها، فأي

اختراع أو إنتاج يكون حضارة حقاً، إن استعمله فرد أو شعب في وجهه الصحيح، والعكس بالعكس.

وبالتالي فإن المجتمع الإسلامي، إذا طبّق هذه المعاني، وهذا المفهوم هو (المجتمع المتحضر).

المجتمع الإسلامي المتحضر لا يحتقر المادة، ولا الإنتاج المادي، ولا الإنتاج الصناعي، ولا الصناعة، ولا فَنَّ العمارة، ولكنه لا يعتبرها هي القيمة العليا، التي تهدر في سبيلها خصائص الإنسان وكرامته، وتهدر حريات الإنسان وأخلاقه، ومن أجلها تُستباح الحرمات.

والنتيجة التي نخلص إليها: أن الحضارة هي المجتمع الذي يطبق فيه منهج الله عقيدة وعبادة وشريعة ونظاماً وخلقاً وسلوكاً. وما سوى ذلك فليس بحضارة. فالشعار الذي نرفعه: الإسلام هو الحضارة.

وما أرسل الله الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين إلا لتكوين هذه الحضارة في بناء خلقي كريم.

وبعثة النبيّ ﷺ جاءت متممة لذلك: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

والرسل والأنبياء دعاة حضارة إنسانية لا تُحَد بزمان أو مكان.

وفي المقابل وعلى النقيض، حينما لا تطبَّق شريعة الله ولا ينهل المجتمع من معين المنهج الإلهي يعم الفساد والشقاء. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

وإن كان بعض الناس في هذا المجتمع، يمارس بعض المنهج الرباني، أو بعض الجزئيات المطلوبة من صلاة وصيام وحج فلا يكفي ذلك ولا يعتبر حضارياً، إذ لا بد من تطبيق شريعة الله كاملة في كل نواحي الحياة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، فلا بد من تطبيق منهج الله كاملاً في السلوك، والمعاملات، والقوانين، والعبادات، وبمجموعها: تكون الحضارة، والفرد: رجل حضاري.

فالمسلم الرباني: هو الإنسان الحضاري. يلتزم بمنهج الله في سلوكه وحياته، الخاصة والعامة.

والمجتمع المسلم هو المجتمع الذي يطبق شرع الله في كل أموره فيستفيد مما سخّر الله له، ولا يضيع الوقت والزمن سدى، فيبني ويخترع ويحاول ويجرب، وينتقل في أجزاء هذا الكون وينظر فيه، ويستفيد من كل الطاقات المتاحة له ويفيد الآخرين منها.

ونعود للتأكيد إن البناء والإعمار، والاختراع والصناعات، كل ذلك إن لم يرافقه قِيَم إنسانية، وأخلاق إنسانية، فليست بحضارة.

فماذا يستفيد الإنسان والإنسانية من ناطحات السحاب والقصور الشامخة، إن لم يجد مأوى يسكن فيه، ويكنّ إليه؟ وماذا يستفيد الإنسان من أعتى الصناعات وأدقها وأعظمها، إن لم يجد لقمة خبز يأكلها أو طعاماً يسد رمقه؟ وماذا يهم الإنسان من هذه الصواريخ والقنابل والطائرات والمدافع، إن لم يجد دواءً أو ثمناً للدواء؟ أو مَن يمسح عن جبينه هذه الدماء وهذه العبرات؟

فسعادة الإنسان في أخلاقية هذه الأمور وليست أعيانها وذواتها.

لقد تمثلت الحضارة الحقة في رئيس الدولة الممثل بشخصية خليفة المسلمين عمر بن الخطاب فيبكي لبكاء طفل رضيع فطمته أمه رغماً عنه لتحصل على زيادة من المعونة الاجتماعية، ويتفقد الناس خارج المدينة، فإذا بامرأة وحولها صبيانها قد حجبهم الليل عن الناس تعلّلهم أمهم حتى ينامون إذ لا طعام عندهم، فيسرع الخليفة إلى بيت المال ويحمل الطعام وما تحتاجه الأسرة على ظهره فيحاول مرافقه أن يحمل عنه فيقول له: «دعني ويحك أتحمل عني أوزاري يوم القيامة؟» وتتجسد القاعدة «مَن ولي إمارة المسلمين عليه أن يتفقد أحوالهم، ولو تعثرت شاة في طريقها، لخفت أن يسألني الله تعالى لمَ لم تعبّد لها الطريق» فهذه هي الحضارة.

وهناك أمثلة من تاريخنا ندرك بها ما وصلت إليه أخلاقية حضارتنا:

١ ـ قال عبدالرحمٰن بن عوف فيما حدّث به:

قدمت رفقة من التجار ـ زمن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ـ فنزلوا المصلّى ـ أي مصلّى العيد، وهو مخصّص لصلاة العيدين والمناسبات ـ فقال لي عمر: «هل لك أن نحرسهم الليلة؟» فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما. فسمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه، فقال لأمه: «اتّقي الله وأحسِني إلى صبيّك» ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه، فقال: «اتقي الله وأحسِني إلى صبيّك» ثم عاد إلى مكانه، فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: «ويحك إني لأراك أُمَّ سوء، ما لي أرى ابنك لا يقرّ منذ الليلة؟»

قالت: يا عبد الله، قد أبْرَمْتَني منذ الليلة ـ أي أضجرتني ـ إني

أريغه[١] عن الفطام فيأبى. قال: «ولِمَ؟» قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم ـ أي لا يعطي من المال ـ قال: «وكم له؟» قالت: كذا وكذا شهراً. قال: «ويحك لا تعجليه».

فصلّى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ـ لأنه الإمام في الصلاة ـ فلما سلّم قال: «يا بؤساً لعمر؛ كم قتل من أولاد المسلمين».

ثم أمر منادياً فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولودٍ في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق[٢].

ب ـ وعن أسلم ـ مولى عمر ـ قال:

خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حَرَّة واقم (حَرَّة واقم: قرب المدينة أرض حجارتها سوداء بركانية) حتى إذا كنا بصِرَار (قرية صغيرة قرب المدينة المنورة) إذا نارٌ تؤرَّث ـ تشعل ـ قال: «يا أسلم، إني أرى هاهنا ركباناً قصَّر بهم الليل والبَرْد، انطلق بنا»، فدنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان، وقِدْرٌ منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغَوْن ـ يتصايحون ـ فقال عمر:

«السلام عليكم يا أهل الضَّوْء» وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فقالت: وعليكم السلام. فقال: «أأدنو؟» فقالت: أُدْنُ بخير أو دَعْ.

---

(١) أريغه عن الفِطَام: أي أديره على الطعام وأريده منه. (لسان العرب ـ مادة روغ ـ ٤٣٠/٨].

(٢) عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب (الفاروق عمر) ص٤٣٨ وانظر كتاب طبقات ابن سعد ٢١٧/١.

فدنا. فقال: «ما بالكم؟» قالت: قصّر بنا الليل والبرد. قال: «وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟» قالت: الجوع. قال: «وأيّ شيء في هذا القِدْر؟» قالت: ماءٌ أُسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر. فقال: «أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟» قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا. قال أسلم: فأقبل عليَّ فقال: «انطلق بنا» فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عِدْلاً من دقيق وكبَّة شحم، وقال: «احملهُ عليَّ» قلت: أنا أحمله عنك، قال: «أنت تحمل وِزْري يوم القيامة ـ لا أمّ لك ـ» فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نُهَرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: «ذُرّي عليّ، وأنا أحُرُّ لكِ» فجعل يقول لها: «أطعميهم وأنا أسطح لهم» ـ أبسطه حتى يبرد ـ فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، كنت بهذا الأمر أَوْلى من أمير المؤمنين، فيقول: «قولي خيراً، إذا جئتِ أمير المؤمنين وجَدْتِني هناك إن شاء الله» ثم تنحّى ناحية عنها، ثم استقبلها فربض مَرْبضاً فقلت له: لك شأن غير هذا؟ فلا يكلّمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدؤوا، فقام بحمد الله، ثم أقبل عليّ فقال: «يا أسْلَم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت»[١].

وهناك أمثلة كثيرة وقصص تحكي لنا مفهوم الحضارة عند النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين والتابعين، ومن بعدهم، نعرف من خلالها تحقيق العدالة، والعطف والإنسانية، ليس للمسلمين فقط، وإنما لكل

(١) تاريخ الطبري ٥/٢٠. انظر: ابن الجوزي ٥٩، وكتاب عمر، للطنطاوي ٤٤٠.

المواطنين سواء، بل تعدّى ذلك إلى الحيوانات، ففي دمشق ـ المكان الذي فيه معرض دمشق ـ كان مخصصاً ووقفاً على الخيل التي لم تعد صالحة للقتال والجهاد، فكانت في رزق وأمان واستقرار[١].

### ❑ مما تقدم يتبين لنا:

١ ـ الحاجة إلى تشريع، إذ لا بد للعالم من تشريع يرجعون إليه في معاملاتهم وأقضيتهم، وعلى هذا التشريع قسمان: تشريع من وضع البشر، وتشريع إلٰهي.

٢ ـ ويختلف التشريع من زمن إلى زمن، ومن بيئة إلى بيئة. فلذا اختلفت التشريعات وكثر عدد الأنبياء والمرسلين[٢].

٣ ـ هناك عقيدة ـ عبادة ـ معاملة، مكارم الأخلاق.

٤ ـ واتفقت الشرائع في العقائد ومكارم الأخلاق، واختلفت في العبادات والمعاملات، فلكل زمان ما يناسبه (لا ينكر اختلاف الأحكام باختلاف الأزمان) فالإيمان بالله ـ المتصف بصفات الكمال ـ متفق عليه، وكذلك بقية ما يجب أن يؤمن به المرء من عالم الغيب.

٥ ـ والكتب شرائع الله لعباده، أبلغها الرسل لينهج الناس على تعليماتها، وأهمها: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

وكان في شريعة آدم جواز أن يتزوج الرجل أخته التي لم تولد

---

(١) انظر: كتاب من روائع حضارتنا، ص٤٠.

(٢) الاختلاف في التشاريع والأنظمة لا في العقائد والأخلاق والأسس العامة كالحلال والحرام من الأطعمة، والطلاق والميراث، والحدود وغيرها...

معه في بطن واحد، حيث لم يكن بنات أعمام وبنات خالات.

ومَن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى ما كتب في علم (تاريخ التشريع) وما ورد في علم الأصول.



# الخَلق



قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

الحمد لله خالق كل شيء، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ليس قبله شيء وليس بعده شيء، الظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء وهو العليّ الكبير، خلق كل شيء فقدّره تقديراً.

رفع السماوات بغير عمد، وزيّنها بالكواكب، وبسط الأرض للأنام، وجعل فيها رواسي لا تميد بنا، وبارك فيها، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام قبل خلق السماوات، وأنبت فيها من كل زوجين اثنين، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين.

خلق آدم بعد أن سوّاه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وخلق زوجته حواء فأنس بها بعد وحدته. وأسكنهما جنته ردحاً من الزمن، ثم أهبطهما إلى الأرض، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً وجعل منهم ملوكاً، ورعاة ومزارعين، وتجاراً وعلماء، فقراء وأغنياء.. وأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين، معهم شرائع في كتب قيّمة، فيها الحلال الطيب، والحرام الخبيث.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له: أُكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[١].

وعن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة رضي الله عنها عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله التّرْبَة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة. آخر خلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل. وإنما سمّي يوم الجمعة: لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض، وأوحى في كل سماءٍ أمرها**»، ثم قال: «**خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار ما لا يعلمه غيره، ثم زيّن السماء بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً يحفظ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش**»[٢].

شاءت حكمة البارئ الخالق سبحانه خلق الكون بأرضه وهوائه وبحاره وجباله وسمائه... وبعد ذلك خلق الملائكة والجان وما شاء. ثم شاءت إرادته خلق هذا الإنسان، لمهمة عظيمة أودع فيه سبحانه القدرة على القيام بهذه المهمة، وزوّده بالقدرات اللازمة، وخلق له ما يحتاجه عبر ذلك، وسخّر له الكون بما فيه، من شموس وأقمار ونجوم وكواكب.

**أ ـ** ذكر الله سبحانه قصة خلق الأرض، في عدة مواضع من القرآن

---

(١) الترمذي: ٢٦٤٥.

(٢) ابن كثير في البداية والنهاية ج١ ص٢٤.

الكريم. فقال في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

وفي سورة هود ذكر تعالى أن السماوات والأرض تمّ خلقها في ستة أيام فنعلم من ذلك أن خلق الأرض تمّ في يومين وقدّر فيها أقواتها وخلق الجبال في يومين فكان المجموع أربعة أيام. وأن السماوات خُلقن في يومين فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٧] وكذا في سورة الفرقان والسجدة وق والحديد: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: ٥٩]. فمجموع خلق الأرض والسماوات كان في ستة أيام... والله أعلم بحقيقة هذه الأيام. فيكفي أن نفهم ذلك كما ورد. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٤].

ب ـ هذا الكون المشهود له بضخامته وفخامته، نقف عند هذا الوصف، فلا ندع مجالاً لأي تصور بشري، عن ذات الله سبحانه، ولا كيف تمّ الفعل والخلق ـ فالله ليس كمثله شيء ـ فلا ننشئ صورة معينة لذاته سبحانه، ولا عن أفعاله، بل نتدبر آثار هذه الأفعال. فلا تسأل كيف خلق؟ ولا كيف استوى على العرش؟ ولا ما هو العرش؟ بل كل ما خلق الله يخضع لأمر الله... تتلقى الأمر وتستجيب وتنفذ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝﴾ [فصلت: ١١]، ثم قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

ج ـ وكان من قضاء الله خلق الملائكة، والجن. . . فخلق الملائكة من نور، والجن من مارج من نار ـ أي من لهب النار ـ قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١، ١٢].

والملائكة لهم وظائف كثيرة، أهمها عبادة الله وتسبيحه، إلى جانب وظائف لبعضهم: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، ومنهم ملك الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ٣٢].

ومنهم جبريل عليه السلام الموكل بالاتصال بالرسل الكرام والنزول بالصحف، والكتب، وخاصة القرآن فقال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٤].

وجبريل عليه السلام كان يقدر على أن يتصور بالصورة التي يريدها ـ بإذن الله ومشيئته ـ كبقية الملائكة. فكثيراً ما كان يأتي النبيّ ﷺ بصورة رجل يُدْعى ـ دحية بن خليفة الكلبي ـ وكان من أجمل الناس خَلْقاً وأحسنهم أخلاقاً، وجاءه مرة في صورة أعرابي ـ كما في حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ حين قال: بينما كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السَّفر، ولم يعرفه منا أحد، فسلّم

وجلس إلى رسول الله ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فخذَيْه ثم قال: يا محمد ما الإسلام؟ (الحديث)[1].

وتارةً كان ﷺ يراه، ولا يراه أحد من الحاضرين، حيث يقول ﷺ: **«عرض لي جبريل وقال لي كذا وكذا»**.

ولقد رآه على حقيقته أول مرة وهو في غار حراء، في صورته التي خلقه الله عليها، وله ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، هامته في السماء وقدماه في الأرض، وقال للنبيّ ﷺ: يا محمد اقرأ، قال: **«لست بقارئ»** الحديث. ورآه مرة أخرى في الإسراء والمعراج ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم] وأعطاه الله قوة لا حدود لها إذ أنه رفع مدن قوم لوط ـ وكنّ سبع مدن ـ رفعها بما فيها هم وعماراتهم، إلى عنان السماء، ثم ضرب بهم الأرض، فأحدث بحيرة طبريا ـ البحر الميت ـ والتي خسف بهم الأرض. فكانت أعظم حفرة على وجه الأرض، وآية ومعجزة خالدة.

والملائكة: لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، لا يطعمون ولا يشربون، ولا يتزوجون، ولا يتناسلون. ولا يعصون الله فيما أمرهم...

على خلاف عالم الجن... فمنهم المؤمنون ومنهم الكافرون... وهم يأكلون ويشربون، ويتزوجون ويتناسلون... والعصاة منهم ينسبون

(١) الحديث في الصحيحين عن عمر بن الخطاب: وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم عن الساعة، ثم عن أشراط الساعة، ثم انصرف... وتبين أنه جبريل.

إلى إبليس وهم - الأبالسة - إبليس الذي رفض الخضوع إلى الله بأمر السجود لآدم... ثم تهدد وتوعد هذا المخلوق فاستحقّ لعنة الله وغضبه وطرده من الجنة.

د - خلق الإنسان: وقبيل خلق الله تعالى للإنسان صدرت التعليمات والأوامر للملأ الأعلى وجلهم من الملائكة لذا كان الخطاب الإلهي لهم ولعموم المتواجدين:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

* * *

## خلق آدم عليه السلام



قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

جاء في الحديث: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك**».

وجعل الله تعالى الماء على هذا التراب، فأصبح طيناً وجبله فأصبح متماسكاً ولزجاً وهذا معنى ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١].

وبعد أن جفّ ويبس أصبح (كالفخار) له صوت (صلصلة) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن: ١٤].

وبعد ذلك جاءت مرحلة النفخ الإلٰهي ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم قال عن خلقه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

وذكر أن زوجته حواء من نفس واحدة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ - آدم - ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ - حواء - ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولقد تضافرت الأنباء والأخبار في العالم أجمع بشكل متواتر، أن أبا البشرية آدم وزوجه حواء. ترى هذا في كل أنحاء الأرض.

وفي الصحيحين: من حديث الشَّفاء: «**إن الناس يهرعون إلى آدم عليه السلام قائلين: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا تشفع لنا عند ربك؟ فيقول: نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري**»[1].

هذا التراب منه خلق آدم - أبو البشر - وإليه يعود ثانية فيتحلل ويعود مع التراب من جنس الأرض، من الحديد والكلس والفسفور وما إلى ذلك.

إنها المشيئة الإلٰهية، ليتسلم هذا الكائن الجديد، زمام الأرض، وتطلق يده فيها، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع، والتكوين والتحليل والتركيب، وكشف ما في الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات. وتسخير هذا كله. بإذن الله في المهمة التي وكلها الله إليه.

وهي مهمة عظيمة، وبالتالي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان وتكريم عظيم. وتساءلت الملائكة ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ولعل هذا

---

(١) فتح الباري ٦٢١/٦.

التساؤل كان مبنياً على شواهد الحال، وتجارب سابقة في الأرض، حيث يقال أن الجن سكنوا الأرض، فعاثوا في الأرض فساداً، وسفكوا دماءهم وقتل بعضهم بعضاً، فقاسوا (الملائكة) ما شاهدوا، على ما سيكون. أو أنهم بفطرتهم الملائكية التي لا تعرف إلا الخير والمحبة والسلام وتسبيح الله وتقديسه وعبادته سبحانه يكفي وجودهم.

فخفي عليهم حكمة المشيئة الإلٰهية ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فهذا الكائن سيبني الأرض ويعمرها، وسيحقق إرادة الله وسيتشرف بلقب (خليفة الله) في أرض الله، وإن كان أحياناً سيفسد ويسفك الدماء.

و ـ وتمّت المشيئة بأن خلق الله آدم من طين، ثم نفخ فيه من روحه، وسرت فيه الروح، وصار بشراً سوياً. ثم شاء الله وخلق زوجاً له ـ حواء ـ ليأنس بها، ويسكن إليها، ولا يهمنا كيف كان ذلك. وإنما يكفي أن نعلم أن تركيبة الرجل والمرأة سواء، من لحم ودم وعصب وأنسجة، فالنفس التكوينية واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [النساء: ١].

وأجاز الله لهما أن يأكلا من ثمار الجنة، إلا شجرة واحدة عينها لهم، وإن اتّبع رضوان الله، باتباع أمره، سيكون من السعداء هو وزوجه ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: ١٩]، ولكن إبليس الذي توعد آدم وذريته كان له بالمرصاد.

لم يكن يشعر آدم وزوجه أن إبليس يحلف بالله كاذباً... فإذا باللعين يقول لآدم وحواء: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ

عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١]، وساعة غفلة ونسيان، وفي غير عزيمة وقصد، أكلا من الشجرة ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وتوجها إلى الله سبحانه بتوبة صادقة ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف].

وبعد أن تمت التجربة بنجاح هي: إفعل، لا تفعل: الأمر والنهي.. قيل لهما:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

فهبط آدم وحواء.. ومع الأيام تكاثر عدد الأولاد فكانت (حواء) تضع في كل مرة (ذكراً وأنثى)... وجرى الأمر بوحي من الله أن يتزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر والذكر من البطن الثاني الأنثى من البطن الأول فعلى (قابيل أن يتزوج شقيقة هابيل التي ولدت معه) وأن يتزوج (هابيل) شقيقة قابيل التي تفوق جمالاً وأنوثة من شقيقة هابيل، ورفض قابيل الأمر إنه العصيان.. فأرشدهما أبوهما أن يقرّبا قرباناً إلى الله، فإن تقبل (قربان) قابيل يتزوج شقيقته التي ولدت معه، وإن تقبل الله (قربان) هابيل عليه أن يذعن للمشيئة وأن يتزوج أخت هابيل ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧]... تقبّل الله (قربان هابيل) وكانت كبشاً من الغنم... فرفض قابيل (النتيجة) وتهدّد (هابيل) بالقتل ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ

﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٠]. وندم على القتل... وماذا يصنع بأخيه الذي قتله، فأرسل الله له (غرابين) اقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، ثم نبش الأرض وواراه.

فهتف قائلاً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

وبعدها كان لا بد من تشريع وقانون، ينظم علاقة الإنسان بالإنسان فكانت الشرائع والرسالات.



## الحاجة إلى التشريع



من المستحيل أن يتلقى البشر التشريع الإلٰهي عن الله مباشرة فلا بد من رسل مبشرين ومنذرين يتلقون عن الله بواسطة الوحي ثم يبلغون ما أنزل الله إلى سائر الناس كما أنه لا بد أن يكون التشريع من الله حصراً، لأن الله سبحانه هو الحكيم الخبير العليم بأمورنا وبعلاج مشكلاتنا.

**أ ـ** فطبيعة هذه الحياة الفساد، والمعيشة الضنك، والقلق الدائم، واعتداء الأقوياء على الضعفاء، والاستيلاء على الخيرات والثروات ونهب الأرزاق، والسيطرة على الممتلكات، واغتصاب الحقوق، وهتك الأعراض.

فمَن الذي يضع قانوناً أو تشريعاً، يقف عنده كل فرد من أفراد البشر، وكل حاكم من الحكام، وكل أمة من الأمم تنتهي حقوقها عندما يبدأ حق الغير، ويقومون بما هو واجب عليهم؟

إن الأنبياء والرسل ممن أكرمهم الله برسالاته وحمّلهم مناهج وشرائع للأمم والشعوب، هم وحدهم القادرون على إسعاد الفرد والعالم. عرَّفوا العالم: بخالقهم، وصفاته، وما طالبهم به، ليجازيهم يوم الحساب والجزاء.

ب ـ يختلف الناس في عواطفهم وعقولهم وأفكارهم وإدراكهم. ويختلفون في ميولهم ونزعاتهم ـ أفراداً وجماعات شعوباً وحكومات ـ.

فكثير من الأفراد لا هَمّ لهم إلا أنفسهم، وإشباع غرائزهم، ولو على حساب الآخرين... حتى الدول والحكومات قد تسمح لنفسها بأن تتدخل في شؤون غيرها من الدول، بحجة محاربة الإرهاب، أو الأصولية أو التخريب. ولا تسمح لغيرها أن تتدخل بشؤونها. فما بالك بالأفراد؟

فمن هنا لا بد من تشريع سماوي، يضعه خالق البشر العليم بأخلاقهم وسلوكهم، وحاجياتهم، ونزاعاتهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [تبارك: ١٤].

* * *

## سمات التشريع وصفاته



**(١) ـ هذا التشريع يراعى فيه:**

**أ** ـ مصلحة الأمة ومصلحة الأفراد، تأمرهم أحكامه بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، تجلب لهم المنافع، وتدرأ عنهم المفاسد، ويعنى بحماية الأفراد في أرواحهم، وممتلكاتهم، وأعراضهم، وأفكارهم، وتجعل العقاب الأليم لكل من يحاول الاعتداء على غيره، أو تسبب في إيذائه وبالمقابل تشجعه هذه التشريعات، على العمل لمنفعة عباد الله، وأن ذلك مدعاة لدخول الجنة وجزيل الثواب: **«الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»**، فيقوم هذا التشريع على قاعدة الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، فرُبّ عمل قليل في نظر المرء يكون ثوابه عظيماً عند الله، فيكفر عنه سيئاته، ويدخله مدخلاً كريماً.

ب ـ ومن جهة أخرى لا بد من كون المشرع عليماً حكيماً خبيراً قديراً، علمه مطلق، وقدرته غير محدودة، يصلح تشريعه لكل زمان ومكان، وهذه من صفات الخالق سبحانه، وكيف يتلقى البشر هذا التشريع عن غير الله سبحانه وتعالى؟

ج ـ ويراعى في التشريع السماوي المُنْزَلِ من الله تعالى، أن العمل بمقتضاه ينال صاحبه الثواب والمغفرة ورضوان الله، وبالتالي السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا معنى الجزاء لمَن أطاع، والعذاب لمن عصى.

د ـ وفي هذه الأوامر التي يقوم بها المؤمن مختاراً طائعاً ولو كان فيها إزهاق روحه والتشهير به كما حدث مع (الغامدي ماعز الذي زنى وطلب من رسول الله ﷺ أن يطهّره وأن يُرْجم... وكذا المرأة التي جاءت طواعية تطالب بتطبيق العقوبة عليها... قائلة: أقِم عليّ الحد الذي أقمته على ماعِز) فتابا توبة لو وُزِّعت على أهل الأرض لوسعتهم.

إنها يقظة الضمير، والشعور بالمسؤولية التي لا تدع المقصّر أو المسيء ينام أو يستريح. وبالضمير: يتبادل الناس المنافع ويُؤْثِر بعضهم على نفسه مرضاة الله سبحانه، لا لمالٍ ولا جاهٍ ولا لكسب دنيوي.

(٢) تأمين الضروريات والتحسينيّات.

(٣) جلب المنافع للأمة ودرأ المفاسد عنها.

(٤) الحض على الأخذ بالأسباب وعدم التواكل.

(٥) الإخلاص في العمل، وأن يكون ربانياً (العلم مع العمل).

(٦) اليُسر وعدم الحرج، وعدم تكليف ما لا يطاق.

(٧) وضوح الهدف والغاية.

(٨) التركيز على الجزاء في الآخرة لكل من المحسن والمسيء.

## خصائص ومزايا الدعوة التي دعا إليها الأنبياء والرسل



### ١ ـ دعوة الأنبياء ربانية بوحي من الله عزَّ وجلَّ:

فليست نابعة من نفوسهم، وليست نتيجة للعوامل الاجتماعية التي تكون في زمانهم، من ظلم أو بغي وجور واستبداد، وليست نتيجة تفكيرهم العميق. قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ونزول الوحي لا يخضع لعوامل نفسية داخلية، أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولا يستطيع أن يُحدث تغييراً أو تبديلاً في رسالته أو في أحكام الله عزَّ وجلَّ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ [يونس: ١٥].

### ٢ ـ لا يطلبون أجراً من أحد بل يأخذون الأجر من الله عزَّ وجلَّ:

لا يقبل النبيّ ثمناً لتبليغ رسالته من أحد، وإنما يطلب الأجر والثواب من الله عزَّ وجلَّ، واستمع إلى هود عليه السلام وهو يخاطب

قومه: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: ٥١].

وهذا سيد الأنبياء ﷺ يقول: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧].

### ٣ ـ إخلاص الدين لله سبحانه وتعالى:

هذا الهدف الأسمى الذي دعا إليه جميع الأنبياء في كل عصر وزمان وفي كل بيئة ومكان، فلم يكن هدفهم إلا توجيه المخلوق الضعيف إلى خالقه العظيم، ويصرفوا وجهة البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البيّنة: ٥].

### ٤ ـ الفطرة والبساطة في الدعوة وعدم التكلف أو التعقيد:

فإنهم يسيرون مع الفطرة ويخاطبون الناس على قدر عقولهم ولا يتكلفون في دعوتهم، كما يفعل بعض الزعماء والمصلحين، ولا يعقدون الأمور. ويسلكون طريق الحكمة في الدعوة والتبليغ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهم بعيدون عن الأساليب الصناعية والتصنُّع.

### ٥ ـ وضوح الهدف والغاية في الدعوة:

فهم يدعون الناس إلى هدف واضح وإلى فكرة بيِّنة لا لبس فيها ولا غموض ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال رسول الله ﷺ:

**«لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**.

### ٦ ـ الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة على الدنيا:

وهي مزية ملازمة لدعوة الأنبياء الكرام، فليس هدفهم الاستمتاع بزَهْرة الدنيا وزينة الحياة، فلذلك عاش جميع الرسل في شظف من العيش، وفي شدة من الضيق، مع أنهم كانوا يستطيعون أن يتنعموا في الدنيا، ولكنهم آثروا الباقية على الفانية ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]. وحين طلب أزواج النبيّ ﷺ من الرسول أن يوسع عليهن في الرزق والنفقة، جاء الجواب من السماء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

### ٧ ـ التركيز على عقيدة التوحيد وإثبات وحدانية الله ووجود الصانع المدبر الحكيم:

وركزوا على موضوع الإيمان بالغيب ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٦١].

* * *

# وظائف الرسل



إن المهمة الكبرى والأساسية التي بعث الله تعالى من أجلها الرسل هي تعريف الخلق بالخالق والحض على طاعته وعبادته وتبصير الناس بحياتهم المعيشية وإرشادهم إلى حسن معاملة الآخرين والبرّ بهم وإسعادهم وتخفيف آلامهم ومَدّ يد العون للمحتاجين منهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

## ❑ تبليغ أوامر الله تعالى:

لأن الأوامر الإلٰهية لا بد لها من مبلغ ولا بد أن يكون هذا المبلغ بشراً لِيُمْكن الأخذ منه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. . .﴾ [المائدة: ٦٧].

## ❑ هداية الناس إلى الصراط المستقيم:

وهذه مهمة كل رسول. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

### ❑ ليكون الرسل قدوة حسنة:

فالرسل هم القدوة الحسنة، والأسوة الصالحة لجميع البشر وأمرنا الله بالاقتداء بهم، والسير على منهاجهم، لأنهم أكمل عقلاً وأطهر الناس سلوكاً وأشرفهم رتبة. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

### ❑ التذكير بالنشأة والمصير:

مهمة الرسل تعليم الناس وتعريفهم بما بعد الموت من شدائد وأهوال. قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

### ❑ تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية:

بعث الله الرسل ليحولوا أنظار الناس، من هذه الحياة الزائلة إلى تلك الحياة الباقية الخالدة. قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

### ❑ لئلا يبقى للإنسان حجة عند الله:

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [الأنبياء: ١٦٥] أي بعثهم بالبشارة والإنذار ليقطع على الناس معاذيرهم، حتى لا يقول أحد لو أرسل الله إليّ رسولاً لآمنت وأطعت. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤].

## الرسل في القرآن الكريم



جرت حكمة الله أن يصطفي رسلاً مبشرين ومنذرين، يختارهم من البشر فيوحي إليهم أوامر الله ونواهيه أو ينزل عليهم بواسطة (الوحي) كتباً فيها تشريع الله ومنهجه ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

فليس كل شخص أهلاً لتلقي الرسالة أو الوحي، أو التشريع، أو لكلام الله، ولكن عن طريق مَن يختاره سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٥١].

فالرسل الكرام هم صفوة الخلق، اختارهم الله سبحانه من عباده ليبلغوا رسالات ربهم، وينصحوا أقوامهم، وحتى تقوم الحجة على الخلق ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]. وجعل لهم صفات وعلامات يشتهرون بها، ويعرفون بها، ليكونوا قادة وقدوة للناس يتأسى بهم الناس، وزودهم بالمعجزات الخارقة، تحدياً للناس أن يأتوا بمثلها علامة على رسالة الرسول وصدق دعواه ـ وليكون أقدر بالحجة والبرهان على تبليغ رسالة ربه ـ كمعجزة موسى عليه السلام بأن يلقي بعصاه فإذا هي ثعبان عظيم، ثم يمسكه فيرجع عصا بإذن ربه،

وكذا عيسى عليه السلام الذي يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى ويصنع طيراً - على هيئة الطير - فينفخ فيه فيصير طيراً بإذن الله، وتنتهي المعجزة بانتهاء أمد وزمن الرسالة، وحياة الرسول.

وشاء الله عالمية هذه الرسالة التي ارتضاها لنا ورضيها لنا، جعل معجزتها الأبدية الباقية هذا القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل يوم يكتشف العالم فيه آيات معجزات وشواهد بينات، وجعل العلم والتعليم وقراءة أسرار هذا الكون هو أعظم من المعجزة التي تنتهي بانتهاء حياة النبيّ عليه السلام فكانت الآيات البينات الخالدات ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ - ٥]، فالقراءة تحتاج إلى علم ومعلم ومتعلم، والتعرف على وسائل التعليم، وذلك باسم الله الرحمٰن الرحيم الكريم الذي علّم الإنسان ما لم يعلم.

وأرسل الرسل إلى الخلق جميعاً رسلاً وأنبياء، وأنزل عليهم شرائع وكتباً ليعملوا بها ويبلغوها للناس، ليسيروا على هديها، ويطبقوا تعاليمها لينالوا سعادة الدنيا والآخرة.

ويجب معرفة أن الخلائق كلها أرسل الله لهم أنبياء ورسلاً. فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ومن الرسل مَن قصَّ علينا القرآن قصته مع قومه، ومنهم مَن لم يذكر لبُعد مواطنهم وبلدانهم، مما لا يعنينا معرفة أحوالهم شيئاً، وقصَّ علينا القرآن قصة خمسة وعشرين رسولاً فقال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وذكر أسماء ثمانية عشر رسولاً في سورة الأنعام فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

وهناك سبعة رسل ذكروا في مواضع أخرى هم (آدم، هود، صالح، شعيب، إدريس، ذو الكفل، ونبينا محمد صلوات الله عليهم أجمعين) وذلك في سورة النساء [١٦٣ ـ ١٦٦].

ولعل عدد الرسل الذين اصطفاهم الله تعالى للخلق من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ خاتم النبيين يبلغ ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً، وعدد الأنبياء حوالي مائة ألف وعشرون ألفاً تقريباً وذلك من رواية الإمام أحمد في المسند[١].

فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: **«آدم»**، قلت: يا رسول الله، ونبيّ كان؟ قال: **«نعم، نبيّ مكلم»**، قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: **«ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيراً»**، وفي رواية أبي أمامة عن أبي ذر رضي الله عنهما قال: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: **«مائة ألف وعشرون ألفاً. الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً»** [مسند أحمد ١٧٨/٥].

---

(١) مسند أحمد ١٧٨/٥.

والرسل الذين تمّ ذكرهم في القرآن الكريم:

(آدم، إدريس، نوح، هود، إبراهيم، لوط، صالح، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، شعيب، أيوب، ذو الكفل، هارون، داود، سليمان، إلياس، إليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، محمد) صلوات الله عليهم وسلامه.

منهم خمسة من أولي لعزم من الرسل هم:

(نوح، إبراهيم، موسى، المسيح عيسى ابن مريم، محمد) صلوات الله عليهم أجمعين.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبيّ كان آدم؟ قال: «**نعم، مكلم**» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «**عشرة قرون كلهم على الإسلام**».

وورد ذكرهم في السور القرآنية حسب الترتيب التالي:

**١ ـ آدم عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (البقرة: من **٣٠ ـ ٣٥**) وفي (الأعراف: من **١١ ـ ٢٥**) (الحجر: **٢٧**) و(الإسراء: **٦٢**) و(الكهف: **٥٢**) و(طه: من **١١٦ ـ ١٢٥**)... وكذا في سور أخرى.

**٢ ـ إدريس عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (مريم: **٥٦ ـ ٥٧**) و(الأنبياء: **٨٥**).

**٣ ـ نوح عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأعراف: ٥٨ ـ ٦٣) و(يونس: ٧١ ـ ٧٣) و(هود: ٢٥ ـ ٤٩) و(المؤمنون: ٢٣ ـ ٣٠) و(الشعراء: ١٠٥ ـ ١٢٢) و(القمر: ٩ ـ ١٦) و(نوح: ١ ـ ٢٩).

**٤ ـ هود عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأعراف: ٦٤ ـ ٧١) و(هود: ٥٠ ـ ٦٠) و(المؤمنون: ٣١ ـ ٤١) و(الشعراء: ١٢٣ ـ ١٤٠) و(الأحقاف: ٢١ ـ ٢٧).

**٥ ـ إبراهيم عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (البقرة: ١٢٤ ـ ١٣٢ ومن ٢٥٨ ـ ٢٦٠) و(آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨) و(الأنعام: ٧٤ ـ ٨٤) و(هود: ٦٩ ـ ٧٦) و(إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١) و(الحجر: ٥١ ـ ٥٩) و(مريم: ٤١ ـ ٥٠) و(الأنبياء: ٥١ ـ ٧٢) و(الحج: ٢٦ ـ ٢٧) و(الشعراء: ٦٩ ـ ٨٩) و(العنكبوت: ١٦ ـ ٢٧) و(الصافات: ٨٣ ـ ١١٣) و(الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧).

**٦ ـ لوط عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأعراف: ٧٩ ـ ٨٣) و(هود: ٧٧ ـ ٨٢) و(الحجر: ٦١ ـ ٧٧) و(الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٥) و(النمل: ٥٤ ـ ٥٨) و(العنكبوت: ٢٦ ـ ٣٥) و(القمر: ٣٣ ـ ٣٩).

**٧ ـ صالح عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأعراف: ٧٢ ـ ٧٨) و(هود: ٦١ ـ ٦٨) و(الحجر: ٨٠ ـ ٨٤) و(الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٩) و(النمل: ٤٥ ـ ٥٣) و(القمر: ٢٣ ـ ٣١) و(الشمس: ١١ ـ ١٦).

٨ ـ إسماعيل عليه السلام:

ورد ذكره في سورة (مريم: ٥٤ ـ ٥٥) و(الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦).

٩ ـ إسحاق عليه السلام:

ورد ذكره في سورة (الصافات: ١١٢ ـ ١١٣).

١٠ ـ يعقوب عليه السلام:

ورد ذكره في سورة (البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣) و(يوسف: ٦ و٦٨) و(ص٤٥).

١١ ـ يوسف عليه السلام:

ورد ذكره في سورة (يوسف: ٤ ـ ١٠٢).

١٢ ـ موسى عليه السلام:

موسى وهارون عليهما السلام ورد ذكرهما في كثير من السور منها (البقرة: ٥٥ ـ ٦٠) و(البقرة: ٦٨ ـ ٧٢) و(المائدة: ٢٣ ـ ٣٠) و(الأعراف: ١٠٣ ـ ١٥٩) و(يونس: ٤٦ ـ ٩٤) و(إبراهيم: ٦ ـ ٩) و(الإسراء: ١٠٢ ـ ١٠٥) و(الكهف: ٦٢ ـ ٨٤) و(طه: ١٠ ـ ١٠٠) و(المؤمنون: ٤٦ ـ ٥١) و(الشعراء: ١١ ـ ٧٠) و(النمل: ٨ ـ ١٥) و(القصص: ٣ ـ ٤٤) و(غافر: ٢٤ ـ ٤٧) و(الزخرف: ٥٠ ـ ٥٦) و(الدخان: ١٨ ـ ٣٤) و(الصف: ٥) و(النازعات: ١٦ ـ ٢٧).

١٣ ـ شعيب عليه السلام:

ورد ذكره في سورة (الأعراف: ٨٤ ـ ٩٢) و(هود: ٨٣ ـ ٩٦) و(الشعراء: ١٧٦ ـ ١٩١).

**١٤ ـ أيوب عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤) و(ص٤١ ـ ٤٤).

**١٥ ـ ذو الكفل عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦).

**١٦ ـ هارون.**

ورد ذكره في سورة (الأنعام ٦٤) و(البقرة ٥٤ ـ ٥٩).

**١٧ ـ داود عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأنبياء: ٧٨ ـ ٨٠) و(ص١٧ ـ ٢٧) و(النمل: ١٥ ـ ١٦).

**١٨ ـ سليمان عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (البقرة: ١٠٢) و(الأنبياء: ٧٨ ـ ٧٩) و(الأنبياء: ٨١ ـ ٨٢) و(النمل: ١٥ ـ ٤٥) و(سبأ: ١٢ ـ ١٤) و(ص: ٣٠ ـ ٣٩).

**١٩ ـ إلياس عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الصافات: ١١٢ ـ ١١٣).

**٢٠ ـ اليسع عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (الأنعام: ٨٦) و(ص٤٨).

**٢١ ـ يونس عليه السلام:**

ورد ذكره في سورة (يونس: ٩٨) و(الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨)

و(الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨) و(القلم: ٤٨ ـ ٥٠).

**٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام:**

ورد ذكرهم في سورة (آل عمران: ٣٣ ـ ٦٣) و(النساء: ١٥٥ ـ ١٧٠) و(المائدة: ١٩ و١١٣ ـ ١٢١) و(مريم: ١ ـ ٣٦) و(الزخرف: ٥٧ ـ ٦١) و(الصف: ١١٤).

* * *

## أولو العزم من الرسل

ومن الرسل مَن لقّبهم القرآن بـ(أولي العزم) لشدة صبرهم وجهادهم. قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وهم: نوح، مكث يدعو قومه حوالي ألف عام ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وإبراهيم، خليل الرحمٰن الذي حكموا عليه بالحرق في النار. وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ومن الجدير بالذكر أن كل رسولٍ أرسله رب العالمين، أرسله بلسان قومه ليفقهوا قوله، ويعلموا أقواله. قال سبحانه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: ٤].

* * *

## النبيّ والرسول

الأنبياء والرسل لا يعلم عددهم إلا الله وما ورد فيهم من آثار.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأمور كان أول؟ قال: «**آدم**»، قلت: يا رسول الله، ونبيّ كان؟ قال: «**نعم، نبيّ مكلم**» قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وبضعة عشرة، جماً غفيراً**» وفي رواية أبي أمامة: قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة؟ قال: «**مائة ألف وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً**»، على أنه يجب الإيمان بما ورد ذكرهم في القرآن خمسة وعشرون رسولاً هم: آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، إدريس، يونس، هود، شعيب وصالح وإلياس واليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد صلوات الله عليهم أجمعين. ففي سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

فما الفائدة من ذكر رسل في الصين مثلًا أو في أمكنة عالمية. فذكر القرآن رسلاً، عاشوا في الجزيرة العربية وأطرافها وتواترت أخبارهم، وقصصهم، وما جرى لأقوامهم وشيئاً من الكتب والتشريعات التي نزلت عليهم.

والنبيّ: مَن أوحى الله إليه بشريعة، ولم يؤمر بتبليغها للناس.

والرسول: مَن أوحى الله إليه بشريعة، وأمر بتبليغها للناس وأيّد بالمعجزات.

- ويشترط في النبيّ والرسول شروطاً لا بد منها، وهي:

الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة والذكورة والحرية والسلامة من العيوب، والعاهات المنفرة، والعصمة من الزلل بعد الوحي.

وعلى هذا لا يلتفت إلى ما يسرده القصّاص أو ما ينقل عن بني إسرائيل مما ينقلوه عن رسلهم وأنبيائهم. المخالف لهذه الشروط.

❋ ❋ ❋

## الحاجة إلى الرسل

الله الذي خلق الكون وخلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان وخلق الملائكة والجان وأمماً شتّى، الله أعلم بما خلق.

أراد من الإنسان وحده، أن يقوم بعبء عمارة الأرض بما يريده سبحانه، فاستخلف الإنسان، وجعله خليفة الله في الأرض ويأتمر بأمره.

ولكن الإنسان ما لبث أن انحرف في سلوكه وأفعاله، حتى إن

قابيل ولد آدم عليه السلام، رفض الانصياع لأمر الله حين طالبه أبوه أن يتزوج شقيقة هابيل، ويتزوج هابيل شقيقته معلناً أنه أمر الله... وقرّبا قرباناً ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧] ومع ذلك قال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، وما لبث ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠].

فلا بد من تشريع يتحاكم إليه الناس، ويتصرفون وفق هذا التشريع فأرسل الله الرسل ومعهم الشرائع، حيث لا بد من ذلك ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

فأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين، يعلّمون الناس ما يحتاجونه وعددهم لا يعلمه إلا الله تعالى. ذكر القرآن الكريم منهم خمساً وعشرين رسولاً. ولا يعني هذا أنه لا يوجد غيرهم... ولكن قصصهم كانت معروفة لدى العرب وقتها، وأكثرهم في الجزيرة العربية نشؤوا ودعوا إلى توحيد الله وذكّروهم بواجباتهم، وأنهم سيرجعون إلى الله فيجازيهم ويحاسبهم.

وبالتمسك بمنهج الله، ترتفع الأمة إلى مستوى حضاري رائع، وبالانحراف يهبطون إلى أسفل سافلين، فيكونون كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وكما ذكرنا سابقاً:

خلق الله الأرض في يومين، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام

سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا: أتينا طائعين.

وخلق الله تعالى الملائكة، واصطفاهم لعبادته، وجعل لبعضهم وظائف يقومون بها. ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يطعمون ولا يشربون ولا يتناسلون. لا يعصون الله فيما أمرهم.

وخلق الله الجن من مارج من نار... يطعمون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون، منهم المؤمنون ومنهم العصاة، والكافرون، والأبالسة عصاة الجن نسبة إلى إبليس، الذي رفض السجود بأمر الله لآدم حينما خلقه الله فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩].

وخلق الله آدم من طين من صلصال من حمأ مسنون، ثم نفخ فيه من روحه، فسرت فيه نسمة الحياة وصار بشراً سوياً.

ثم خلق حواء لتكون زوجة له يأنس إليها وأباح لهما أن يأكلا من الجنة رغداً حيث شاء. فقال سبحانه: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال له بامتنان: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

من حكمة الله تعالى أن يصطفي من البشر رسلاً. يعرّفهم على ذاته سبحانه، ويطلب منهم أن يعرّفوا الناس عليه سبحانه، وعلى ما طالبهم به وما كلفهم به. ويمثل الرسل ذروة الكمال البشري، لأنهم

يمثلون ذروة العبودية لله، ويقومون بمهمة إرشاد الخلق إلى الطريق الصحيح، ويعرِّفونهم المنهج القويم ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

وحتى تقوم الحجة على العباد ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فأرسل للخلق الرسل، وجعل لهم صفات وعلامات: كطاعة الله والصدق والأمانة والتبليغ والإنصاف بصفات الدعوة حتى يكونوا قدوة وقادة، وزوّدهم بالمعجزات وهي الخوارق للعادة، وهي علامة على رسالة الرسول وصدق دعوته، وتكون بقدرة الله عزَّ وجلَّ.



## بشرية الرسل فهم سفراء الله إلى العباد

واقتضت حكمته أن يكونوا من البشر، لا من الملائكة:

١ ـ ليراهم البشر، لأن الملائكة لا نراهم فهم من عالم الغيب، والملائكة لا تطعم ولا تشرب، ولا تتزوج ولا تتناسل، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يموتون... فاقتضت الحكمة الإلٰهية أن لا يكون الرسل من الملائكة بل من البشر، لتنقطع حجج المغايرين.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

٢ ـ أيدهم الله بالمعجزات الحسية والمعنوية. ولكل رسول معجزة تناسب البيئة التي يرسَل إليها...

ففي عهد موسى عليه السلام برع اليهود بالسحر... فكانت العصا مناسبة لتلقف ما أفكوا من السحر. مما دفع بالسحرة للإيمان بالله ورب موسى وهارون، وما التفتوا إلى وعيد فرعون.

وفي عهد عيسى عليه السلام: برع الناس في الطب... فكانت المعجزة مناسبة لهم: فيجعل لهم من الطين طيراً، قيل (الخفاش) فينفخ فيه فيطير بإذن الله.

ولهم سمات، ولدعوتهم سمات.

فدعوتهم: تتسم بالمنهجية النابعة من عقيدة التوحيد، ولا تتأثر

بالعادات والتقاليد وأنها صالحة لكل زمان ومكان، وأنها تذكر باليوم الآخر وتتطلب الإيمان بالمغيبات. وأنها تواجه الواقع بالواقع.

وأما صفاتهم: الصدق، الأمانة، التبليغ، الفطانة، العصمة، السلامة، الذكورة.

* * *

## مهمة الرسل

ومهما هذا الرسول تبليغ رسالة ربه، لأنه قبل التبليغ قد يدّعي البعض الجهالة، طالبين العفو والرحمة، أخذاً بوعده سبحانه القائل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

فيبلغ الرسول الدعوة المنزلة عليه حرفياً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وبالتالي هل يكتم الرسول شيئاً عن قومه؟ أم هل يغير شيئاً مما نزل عليه؟ أم هل يقول لهم: اعبدوني من دون الله.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩].

ومن الجدير بالذكر أن الشرائع المنزلة على الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام إنما كانت واحدة في لبها ومضمونها، فكل الشرائع

تهدف وتنص على وحدانية الله، ووجوب عبادته وتوحيده، وكلها تأمر بمحاسن الأخلاق، وتحث عليها، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وكلها تؤكد على ضرورة الإيمان باليوم الآخر، وأن الله يوم القيامة يجازي المحسن ويعاقب المسيء ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. وكلها تحث على الإيمان المطلق بعالم الغيبيات والسمعيات. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، و﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى: ١٣]، و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

مع الاعتراف بتعدد الشرائع والمناهج حسب نضج الشعوب وحاجتهم وطرق معالجتهم، والبيئة التي يعيشون فيها. وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

حتى إذا اكتمل نضج البشرية وأصبحت بحاجة إلى تشريع فيه الكمال والصلاح، ويصلح لكل الأزمان والأماكن، مرنٍ معتدلٍ فيه الوسطية والاعتدال واليُسر وعدم الحرج، أرسل الله محمد ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الصف: ٣٣].

بعد تلك الأعداد من الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ليبلغوا أوامر الله ونواهيه كانت رسالة محمد ﷺ خاتمة الشرائع فلا نبوة ولا رسالة بعدها ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكملت الشرائع ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].



## الصفات الشخصية والخلقية للنبيّ والرسول

قبل كل شيء يجب أن نفرّق بين النبيّ والرسول فنقول:

**النبيّ**: هو شخص اصطفاه الله من خلقه الإنساني، وأوحى إليه بتشريع فيعمل به، ولا يكلّف بتبليغه للناس.

**الرسول**: هو النبيّ المكلّف بتبليغ الدعوة إلى الناس، والمؤيّد بالمعجزة، فكل رسول نبيّ وليس كل نبيّ برسول.

ومن المعلوم أن النبوة والرسالة لا يصل إليهما المرء بالكسب والاجتهاد والدراسة والعبادة وفعل الخير، بل هما اصطفاءٌ واختيارٌ من المولى سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

أما الولي فيمكن أن ينال درجة الولاية، بالطاعة وكثرة العبادة والأعمال الصالحة، حتى تصبح أحوالهم كلها خالصة لله رب العالمين لكثرة تقواهم واستقامتهم.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وهذا معنى الحديث القدسي: «**ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورِجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه**».

وابتدأ بتزكية قلبه وتطهيره، من أدران الحقد والحسد والكراهية والبغض، وسائر الصفات الذميمة، وأحلّ محلها محبة الله ورسوله، ومحبة عباد الله والرجاء لما عند الله، والخوف من الانحراف عن طريقه، والاستقامة على منهجه. وقد يجري الله سبحانه «الكرامة» على يد «الولي» وأمور خارقة للعادة.

* * *

## الشروط التي يجب أن تتوافر في الأنبياء والرسل

وقبل الشروع في شرح السمات والشروط التي يجب أن تتوفر في الأنبياء والرسل، يجب التنبيه والعلم أن دعوة الأنبياء والرسل لا

تنبع من ذواتهم، وإحساساتهم، ولا يخضعون لعوامل نفسية داخلية أو بيئية. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، و﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

بخلاف القادة والزعماء والمفكرين تكون رسالتهم وآراؤهم انعكاساً للبيئة أو الحوادث أو المنافع، فالأنبياء والرسل بشر والوحي من الله.

ففي الأمور العادية، هم بشر يأكلون ويشربون، ويتزوجون وتعتريهم الأمراض العادية.

والوحي من الله وحده، ليس شعوراً نفسياً ينبثق من كيان النبيّ أو الرسول. وكذلك لا يخضع الوحي لإرادة النبيّ أو ما يتمناه. فكثيراً ما كان الوحي يتأخر، فنزلت الآية ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

فمن الخطأ أن نعزو كثيراً من أعمال الرسل، إلى ذكائهم أو حسن قيادتهم، وإن كانوا عليهم السلام وصلوات الله يتمتعون بهذه الصفات وكيف وقد اختارهم الله من صفوة خلقه، فما يقومون به من أعمال إنسانية، هو بتوجيه الوحي، كقول عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصادقة، ثم حُبِّب إليه الخلاء في غار حراء».

ولنشرع الآن بالصفات، فكلمة (بُدِىءَ وحُبِّب) تدلان على التوجيه من الله تعالى.

## ❑ السمات الشخصية للرسول:

الرسول سفير الحق سبحانه للعباد ليُخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم الصراط المستقيم، وعلى هذا يجب أن يكون هذا الرسول صورة حية للتعاليم والأخلاق التي يدعو إليها، وأن يتصف بصفات تقرّبه من الناس لا تنفرهم منه، وأن يُعرَف من صغره بأخلاقيته وسلوكه وأمانته وبُعده عن سفاسف الأمور، وأن يكون مُحَبَّباً للناس فليس فيه من الصفات أو العيوب ما تنفر الناس منه...

ومن المؤكد أن يكون الرسول ذكراً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].



## أهم الصفات والسمات التي يتصفون بها:

**١ ـ صفات خَلْقية وخُلُقية.**

**٢ ـ سمات عامة وخاصة بهم.**

### ❑ الصفات:

**الأنبياء والرسل**: هم بشر كغيرهم اختارهم الله تعالى واصطفاهم ليبلغوا رسالات ربهم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، فهم يطعمون ويشربون ويتزوجون وتعتريهم الأمور العادية وما يطرأ على البشر من حمى وضعف وشيخوخة كسائر الناس باعتدال وإنهم يختصون بالوحي، وعليه فهناك صفات رئيسية يتصفون بها وهي الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة والسلامة من العاهات والأمراض المنفّرة والعصمة.

○ **الصدق**:

الصدق صفة خلقية عالية يجب على كل فرد أن يتصف بها فضلاً عن كونه رسولاً.

والصدق: هو ما كان مطابقاً للواقع، في جدّه وهزله في كلامه وأحواله، فلو عرف عن الرسول كذباً لما صدقه قومه وكذبوه.

فلو كذب على الناس، كيف يكون أميناً على الوحي، فربما يكذب على الله في الوحي، وحاشا للرسل كلهم أن يكونوا كذلك.

جاء في صدق الرسول ﷺ: أن القوم لقّبوه في صغره بالصادق الأمين كما عبّر عن ذلك أحمد شوقي رحمه الله بقوله:

لقبتموه أمين القوم في صغر وما الأمين على قول بمتهم

وجاء في التنزيل: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٨].

وبالنسبة للمصطفى ﷺ شهد له بالصدق المشركون قبل الصحابة.

أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ إني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «**يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله أدعوك إلى الله**» فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنتَهٍ عن سبّ آلهتنا! هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت! فنحن نشهد أن قد بلغت. فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً لاتبعتك. فانطلق رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حقاً ولكن يمنعني شيء، أن بني قصَيّ قالوا: فينا الحجابة، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، قلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبيّ، فمتى ندركهم بهذا؟ والله لا أفعل.

وفي البخاري ومسلم: قصة الحوار الذي جرى بين أبي سفيان وهرقل ملك الروم ومنها: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى.

راجع القصة كاملة في سيرة ابن هشام وفي السنن.

○ **الأمانة:**

الأمانة بكل معانيها، أمانة بأوامر الله ونواهيه، دون زيادة أو نقص. أمناء في الوحي والتبليغ.

أمناء بتبليغ الوحي كما نزل ولو كان فيه تعريض وعتاب لهم كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وكتبليغه هذه الآيات: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾﴾ [عبس: ١ ـ ٤].

وكقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، في قصة زواج زينب وقصتها.

قالت عائشة رضي الله عنها: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما نزل عليه لكتم هذه الآية.

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وهل أمانة أعظم من هذه الحادثة: استشار الرسول ﷺ الصحابة فيما يفعله بالأسرى يوم بدر، فمنهم من رأى العفو عنهم، ومنهم من رأى قبول الفداء، إلا عمر رضي الله عنه فكان رأيه قتل الأسرى، فيعطي كل أسير إلى قريبه من المسلمين فيضرب عنقه، فيعلم المشركون أنه لا رحمة في قلوب المسلمين لأعداء الله من المشركين

والكافرين. فمال رسول الله ﷺ إلى قبول الفداء، وتأخر الوحي لبيان أن كل هذه الاحتمالات جائزة.

ونزل الوحي مبيِّناً أن الأوْلى والأصح ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

## ○ التبليغ:

الرسل جميعاً مبلغون عن الله شرعه ومنهاجه، ناصحون لأممهم.

في حجة الوداع.. كان ﷺ يسأل الحجيج: «**ألا هل بلّغت؟**»، فيجيبه الناس: بلى قد بلّغت. فيقول: «**اللّهمَّ فاشهد**».

ويخاطبه الوحي بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكذلك فعل الرسل: فهذا نوح عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

وهذا صالح عليه السلام ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩].

ونفس الشيء فعل شعيب عليه السلام ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

ولعل الحكمة والغرض من ذلك قطع الحجة على الناس أن يقولوا كنا جاهلين. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

وحينما أمر الله سبحانه الرسول الكريم تبليغ هذه الرسالة وأنزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤] وقف على الصفا وقال: «. . . **يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني عدي**» - ينادي على القبائل حتى اجتمعوا إليه - فقال النبيّ ﷺ: «**أرأيتم لو أني أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي؟**» قالوا: نعم. ما جرّبنا عليك كذباً قط. فقال لهم ﷺ: فإني ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، فقال له عمه أبو لهب: تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا؟ فنزل قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد: ١ - ٣].

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] جمعهم وقال لهم: «**يا بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»، أي: بأصولها.

○ **الفطانة والذكاء:**

كل الأنبياء والرسل اتصفوا بالذكاء الخارق وكمال العقل والرشد. يقول الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١].

وأن الحجج التي أوردها وردَّ بها على دعواهم الزائفة تدل على ذكائه وفطنته كقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] وكقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

○ **السلامة من العيوب المنفرة والأمراض السارية:**

يرسل الله الرسل مبشرين للناس وفيهم من السماحة والأخلاق والطباع ما تحببهم للناس لا لتنفرهم منهم، كالبرص والجذام والعاهات. وما روي عن بعض الأنبياء والرسل كأيوب عليه السلام كذب وافتراء لا صحة له. وإنما الذي أصابه إنما (ضر في جسمه يُحدث ألماً كالروماتيزم والأمراض التنكسية). قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، فما يشاع عنه إنه من الأكاذيب والافتراء، ومن القصص الإسرائيلي، لتشويه صفات الأنبياء والرسل.

وكالذي يشاع عن نبيّ الله داود وسليمان ولوط وابنتيه - على جميع الأنبياء والرسل الصلاة والسلام - فكل هذا باطل لا صحة فيه.

❊ ❊ ❊

## عصمة الأنبياء

العصمة في اللغة: المنع. يقال: اعتصم عن الطعام: أي امتنع، ومنه قوله تعالى: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣] أي يمنعني من الغرق. ومنه ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي امتنع.، وفي الحديث: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم بحقها وحسابهم على الله**» متفق عليه.

والعصمة: تمنع صاحبها من ارتكاب المعصية.

ولذا من **الخطأ القول: العصمة لله، لأن العصمة تكون من الجريمة ومن الذنوب.**

وأما العصمة شرعاً: حفظ الله للأنبياء والرسل عن الوقوع في المحرمات والمعاصي، وقد تكون بالحفظ مطلقاً، كما ورد في التنزيل بالنسبة للرسول محمد ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، أي: من القتل فلا يقدرون على ذلك. أما الإيذاء والسخرية فلا عصمة فيهما، ومن المعلوم أن الله يرسل الرسل ليقتديَ بهم الناس، ويمشون على نهجهم فهم المثل الأعلى والقدوة الحسنة.

فكيف يصح أن يقعوا في المعاصي والذنوب؟ وأطلق عليها الشرع قاذورات. جاء في الحديث: «**مَن ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات، فليستتر فإنه مَن يُبدِ لنا صفحته، نقم عليه كتاب الله**»، وهل

يعقل أن يكون النبيّ لصاً، أو شارب خمر، أو عاصياً؟ وكيف يدعو الناس إلى الصلاح، والأمانة والعفة والشرف؟ وقال الله تعالى في وجوب اتباعهم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وعلى هذا: فالرسول معصوم، في اعتقاده، وأقواله، وأخلاقه، وأفعاله.

ولقد عصم الله رسولنا محمد ﷺ منذ طفولته، وقبل التكليف، ومَن أراد الاستزادة فليرجع إلى سيرة ابن هشام (الجزء الأول) وإلى ما كتبته كتب السيرة. ومن المتفق عليه أن العصمة بعد التكليف بالرسالة تكون قطعاً، واختلفوا قبل التكليف بالرسالة.

فعلى الأرجح أنهم معصومون قبل النبوة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧].

فهم محفوظون قبل النبوة والرسالة بعناية الله، أما ما ورد في القرآن والسنّة من مثل هذه الشبهات، فهو مؤول وليس معصية في حقهم، ولكنه من قبيل فعل خلاف الأولى. أو كما قيل (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وكذلك قد يطلق الله سبحانه على أمر أو فعل أنه معصية، فهو في حق هذا النبيّ المقرّب، ولكن الأمر أبسط من ذلك كما سنرى.

## ❑ الشبهات:

قد يقول قائل: كيف يكون الأنبياء معصومين مع تصريح القرآن الكريم بأن بعضهم قد ارتكب معصية أو مخالفة، كقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فنسب لآدم الغواية لمعصيته[١]. وكذا قوله لنوح عليه السلام حينما دعا الله تعالى أن يُنجي ابنه من الغرق فقال له: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] وهذه الآية ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧].

○ **والجواب**:

١ ـ ما فعله النبيّ ليس بمعصية، ولكنه هو خلاف الأولى.

٢ ـ ما فعله خطأ في الاجتهاد، وللمجتهد المخطئ أجر.

٣ ـ كان ذلك قبل النبوة والرسالة.

وبالجملة فهم أئمة يهدون إلى الخير، ونتعبد الله بالاقتداء بهم، فقال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ [الأنبياء: ٧٣].

**ولنستعرض الآن قصص الأنبياء والمرسلين الذين وردت في حقهم بعض هذه الشبهات:**

---

(١) ليست المعصية بالمفهوم الشرعي إذ لا حكم إلا بنص وتشريع، والمقصود منها «النسيان» فأكل.

## ١ ـ آدم عليه الصلاة والسلام



كانت مخالفته قبل النبوة، وذلك أثناء تواجده في الجنة، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والاجتباء هو الاصطفاء بالرسالة، والآية كاملة ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

ومن المؤكد أن آدم عليه السلام حينما أكل من الشجرة لم يكن في نيته العزم على معصية الله وتحدي الأمر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾(١) [طه: ١١٥].

أو تأوّل: كان الأمر ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فظنّ أن هذه الشجرة بعينها لا جنسها، فأكل من شجرة أخرى من جنسها.

والصحيح أن آدم أكل ناسياً في لحظة من اللحظات وهذا ما صرح به القرآن ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ والناسي ليس بعاص ولا آثم، فالخطأ والنسيان رفع الإثم عن مرتكبهما.

خلق الله تعالى آدم يوم الجمعة:

---

(١) النسيان قد يكون معصية في شرع مَن قبلنا بدليل «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه».

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة. فيه خلق الله آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها وفيه مات، وفيه تاب عليه، وفيه تقوم الساعة**».

أرسل الله ملكاً للأرض ليأتيه بطين منها، فأخذ من وجه الأرض ـ وخلط ـ ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين. فصعد به، فبلَّ التراب حتى صار طيناً لازباً، واللازب هو الذي يلصق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، فخلقه الله بيده، لئلا يتكبر عليه إبليس، فخلقه بشراً سوياً. فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعاً إبليس، فكان يمر به فيضربه، فيصوّت الجسد كما يصدر الفخار يكون له صلصلة، فيقول لأمرٍ ما خُلِقْت، ويدخلُ مِنْ فِيه، ويخرجُ مِنْ دبره، ويقول للملائكة: لا تذهبوا منها، فإن ربكم صَمَد، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه. فلما بلغ الحين الذي يريد الله أن ينفخ: [إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له]. فلما نفخ فيه الروح فدخل في رأسه عطس. فقالت الملائكة: الحمد لله. فقال: الحمد لله. فقال الله عزَّ وجلَّ: يرحمك ربك. فلما دخلت الروح في عنقه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت إلى جوفه، اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ إلى رجليه ـ عَجِلاً ـ إلى ثمار الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

لقد أخبر سبحانه الملكوت وفيهم الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يخلف بعضهم بعضاً...

فتساءلت الملائكة بدهشة عن الحكمة من خلق هذا الخلق فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، نعبدك ولا نعصيك، لا نفتر عن عبادتك، فقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فكيف عرفت الملائكة طبائع البَشَر وفعالهم، وهم لا يعرفون الشَّرَ أبداً فطبيعتهم جبلت على الخير، والطاعة، وفعل الخيرات؟

ليس من جواب صحيح لهذا، وإنما يظن أن عالَماً من عوالم الجن، سكنوا الأرض، قبل خلق آدم، فسفكوا الدماء، وأفسدوا في الأرض فبعث الله لهم جنداً من الملائكة، فطردوهم إلى جزائر البحور. فقاس الملائكة ما سيكون على ما كان. هذه هي المرحلة الأولى من خلق آدم عليه السلام. ثم شاء الله أن يخلق له مَن يؤنسه، ويذهب عنه وحشة عزلته وتفرده، فاقتضت المشيئة أن يخلق ـ حواء ـ.

ولا يهمنا كيف خلقت ومم خلقت؟ المهم أنه نام نومة، فاستيقظ فإذا بها عند رأسه، فسكن إليها وخفق قلبه تجاهها، فسبحان مَن خلق لنا أزواجاً لنسكن إليها، وجعل بيننا مودة ورحمة.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وهنا يأتي سؤال وجيه: ما السبب في جعل هذا المخلوق الجديد في هذا المقام، حيث تسجد له الجموع المحتشدة من الملائكة وغيرهم ممن خلق الله ومعهم إبليس.

ذلك أن هذا المخلوق سيحمل ميزة تفرد بها، وهي أمانة التكليف التي شرّفه الله بها، ليكون خليفة الله في الأرض... وما ذلك إلا بقدرة الله تعالى وعظمته لا لجوهره، ولا لطبيعته، بل بأمر الله وقدرته.

فنبيّ الله سليمان عليه السلام كان ملكاً نبيّاً طلب من الله عزَّ وجلَّ مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه الله ذلك وسخّر له

الجن والطير، وخضع له الإنس والجن وما خلق الله. . . وعلم منطق الطير وسائر من يتعامل معه، فتميز بذلك عن غيره، ومع كل ذلك يقول له طائر صغير (الهدهد): ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

فكيف يحيط الهدهد ـ هذا الطائر الصغير الضعيف المحدود العلم والسلطة ـ بما لم يقدر عليه، ويحيط به ملك الإنس والجن.

الجواب بسيط جداً: كل قدرات الخلق محدودة، وليست من ذاتها بل هي من الله تعالى. . . فمثلاً: العفريت من الجن كان يقدر أن يأتي بعرش ملكة سبأ (بلقيس) في سويعات من النهار، ولكن (الذي عنده علم من الكتاب) وهو دون العفريت ضخامة وقوة، قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ لأن مصدر هذه القوة من الله تعالى.

وكذلك موسى عليه السلام الرسول ومن أولي العزم، ذهب بطلب من الله تعالى ليتعلم من عبد صالح ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ صالحاً، قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فيقول له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾، كل ذلك أن مردَّ العلم والقدرة، والإيجاد والإمداد، من الله تبارك وتعالى.

وكلمة ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ تعني أن تركيبها العضوي والنفسي والبيولوجي هو نفس تركيبة (آدم) فاللحم والشرايين والأوردة والجسد والعيون أعضاء، يكمل بعضها بعضاً، ومترابطة فيما بينها، ليكوّن الجسد في كل منهما. . .

وأما الخلق فهل من ضلع آدم أم غير ذلك؟ لا نريد أن ندخل في متاهات وفراغات يكفي العلم أنها وجدت، ففرح بها واطمأن لها.

والأوامر الإلٰهية صدرت مرتين:

**- الأمر بالسجود:**

لقد خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وصدر الأمر الإلٰهي ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فسجد الجميع امتثالاً لأمر الله إلا إبليس لم يسجد ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧٣، ٧٤]، ولم يكن إبليس من (الملائكة) لأن الملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وكان إبليس من عالم الجن، والجن منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

وشملت العناية الربانية الزوجين (آدم وحواء) فقيل لهما: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، وضمن الله لهما أثناء عيشهما ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وحذّر الله تعالى الزوجين السعيدين، من إبليس الذي طرد من الجنة، واستحق غضب الله عليه، ولعنه إلى أبد الدهر من أن يطيعاه، أو أن يدلّسَ عليهما.

واستطاع بالمكر (إبليس) أن يدلّس عليهما، ويتلاعب بعواطفهما، فقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ

أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١]، فأثار فيهما حب الحياة، واستمراريتها مع الطهارة الملائكية، وأن يكونا قريبين من الله عزَّ وجلَّ، وبسَّط الأمر ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. والأمر بسيط: كُلاَ من نوعية هذه الشجرة التي نهاكما ربكما عن قربانها، فالتي نهاكما عنها فلا تقرباها، بل كُلاَ من شجرة مقاربة للنوع والثمر ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وسرعان ما آب آدم إلى ربه، وندم على فعلته، ونادى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

- ثم صدر الأمر الإلٰهي بعد نجاح التجربة العملية (أمر ونهي) أوامر إلٰهية، ونواهي إلٰهية... ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

وهبط آدم وحواء إلى الأرض التي خلقا منها، ومن طينتها وتربتها، ولا نخوض في المكان الذي هبطا فيه وكيف؟

فالمهم التقيا بعد فراق الجنة، ورزقا أولاداً كثيرين، منهم الذكور ومنهم الإناث. فكانت تضع في كل بطن (ذكراً وأنثى) فكان آدم عليه السلام إذا كبرا وشبّا يزوّج كل ذكرٍ أنثى من بطن آخر، لا التي خلقت معه.

وآدم وذريته معه قاموا بحق الاستخلاف، وأسسوا حضارة عظمى. كل ذلك بتوجيه من الله حيث علّمه الأسماء كلها، ولولا ذلك لما اهتدى هو ولا ذريته إلى هذه المسمّيات ومدلولاتها، وعرفوا أسرار

الكون وما أودع الله فيه من خواص وعلوم.

واتخذوا لأنفسهم بيوتاً يأوون إليها، واهتدوا للاستفادة من الأرض وزرعوها، ويقال: إن قابيل اشتغل بالزراعة واشتغل هابيل بتربية الماشية وخاصة الغنم.

وعرفوا الاحتكام إلى قدر الله ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾، وذلك لما أصرّ قابيل أن يتزوج شقيقته التي ولد وإياها توأمين، وكانت أجمل من شقيقة هابيل (توأمه) ولكن الحضارة تقتضي أن يبعد قدر الإمكان، واستخار الله، فأفلت الأمر من يده. فثارت ثائرته وتهدد هابيل بالقتل إن هو مضى بالزواج من شقيقته.

هنا تبدو الحضارة الإنسانية في أسمى صورها وأحلاها حيث قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨]، رداً على وعيد وتهديد أخيه حينما قال له: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

* * *

# إدريس عليه السلام(١)



بعد موت آدم عليه السلام، كان النبيّ بعده ولده (شيث) عليه السلام وكان نبياً بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعاً وأنه نزل عليه خمسون صحيفة، فلما حانت وفاته أوصى إلى ابنه (نوش) وما زال الأبناء يتوارثون هذه الصحف حتى وصل الأمر إلى (خنوخ) وهو إدريس عليه السلام، وورد ذكر (إدريس) عليه السلام في القرآن مرتين، في سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [٥٦، ٥٧]، وفي الأنبياء وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥].

وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وذكر ابن إسحاق أنه أول مَن خطّ بالقلم. وأدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين، لأن آدم عليه السلام عُمِّر قرابة ألف سنة:

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ٢/٥، مسلم في صحيحه ٥٣٧، وأبو داود ٣٩٠٩، وأحمد ٤٤٧/٥.

منها تسعمائة وسبع وخمسون سنة قمرية مدة مقامه في الأرض، وثلاث وأربعون مدة إقامته في الجنة.

وقالت طائفة من الناس: إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي، لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرَّمل فقال: «**إنه كان نبيّ يخط به فمن وافق خطه فذاك**». قال عنه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾، وذلك في السماء الرابعة، كما ثبت في الصحيح من حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو في السماء الرابعة.

وقالوا: إنه ولد ببابل، في شمالي العراق، ولما شبّ وكبر آتاه الله النبوة فكان ينهى عن الفساد والبغي، وعن مخالفة شريعة آدم عليه السلام ثم هاجر جنوباً حتى وصل أرض مصر، وأقام هناك على شاطئ نهر النيل، روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير**»، قلت: يا رسول الله، مَن كان أولهم؟ قال: «**آدم**» قلت: يا رسول الله، نبيّ مرسل؟ قال: «**نعم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سوّاه**».

وذكر فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني نفع الله به[1]: أن إدريس عليه السلام دعا الناس إلى عبادة الله، والعمل الصالح، وحضّ على الزهد، وأمر بالصلاة والصيام والزكاة وبالطهارة من الجنابة. وحرّم على الناس المسكر وشدّد عليه، ومن أقواله: خير الدنيا حسرة، وشرها ندم، السعيد من نظر إلى نفسه وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة، والصبر مع الإيمان يورث الظفر.

(١) النبوة والأنبياء، د. محمد علي الصابوني.

# نوح عليه السلام



هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ (إدريس) بينه وبين آدم ما يزيد عن ألف عام، وهو أول رسول إلى الأرض، وعاش طويلاً، حوالي ١٧٨٠ سنة.

ينتسب إلى جده الأكبر إدريس عليه السلام، وشيث ابن آدم عليهم السلام، ونوح عليه السلام ذكرت قصته في كثير من سور القرآن الكريم لما لاقاه من قومه لدعوتهم إلى الرجوع إلى الهدى، وما أنزل الله، وينذرهم بالعذاب الأليم، إن هم لم يمتثلوا ذلك ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ①﴾ [نوح: ١].

وكان لنوح زوجة كافرة أغرقها الله، وأربعة أولاد هم (سام، حام، يافث، كنعان) أما كنعان فقد هلك، لأنه كان من الكافرين، ورفض أن يركب السفينة مع أبيه، وأما سام فهو أبو العرب (من نسله) وأما حام فهو أبو الحبش، وأما يافث فهو أبو الروم.

انحرف الناس عن الطريق المستقيم في أرض بابل وعبدوا أصناماً نحتوها بأيديهم وتركوا عبادة الله الواحد الأحد.. فجاءهم نوح بالبينات وطالبهم بالرجوع إلى الله ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ

وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾، وكان هؤلاء رجالاً صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك، وجاء آخرون من بعدهم أخذوا يعبدونهم ويقدسونهم من دون الله.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرتا من حُسنها وتصاوير فيها، قال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله عزَّ وجلَّ**».

وردت قصة نوح في السور القرآنية التالية (الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤) و(يونس: ٧٢ ـ ٧٤) و(هود: ٢٦ ـ ٥٠) و(المؤمنون: ٢٤ ـ ٣١) و(الشعراء: ١٠٦ ـ ١٢٣) و(القمر: ١٠ ـ ١٦) و(نوح: ١ ـ ٣٠).

ونوح عليه السلام هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ومَن سبقوه كانوا أنبياء. في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ في حديث الشفاعة قال: «**فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روح، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة... ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغناه؟ فيقول: ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت. نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض**

**وسمّاك الله عبداً شكوراً. ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغناه؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عزَّ وجلَّ؟ فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي...»**، الحديث.

## ❑ عمر نوح عليه السلام:

عُمِّر نوح عليه السلام، فدعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً. قال سبحانه في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

فإذا كانت دعوته لقومه هذه المدة، فمعنى ذلك أنه عمر طويلاً أكثر من ألف سنة. ومع طول هذه المدة لم يؤمن بدعوته إلا القليل من الناس.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل عشرة وقيل أربعون وقيل ثمانون وهو الأصح، ومهما يكن فالعدد قليل جداً بالنسبة لزمن الدعوة ـ **٩٥٠** عاماً ـ فالنسبة ضئيلة جداً.

إنه العذاب والبلاء لا يقدر عليه إلا إن كان من أولي العزم. قال سبحانه مصبِّراً رسولنا الكريم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم: (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد) صلوات الله عليهم وسلامه.

وتصوّر لنا هذه الآيات الكريمة تعنُّت القوم، واستخفافهم به وبدعوته وصبره على ذلك ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ

وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

وبعد كل الذي فعلوه اتهموه بالسفه والضلالة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١].

ثم اتهموه بالجنون ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر: ٩] ثم هددوه بالرجم والقتل ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء: ١١٦] وتهكموا به وسخروا من دعوته ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

وهذه الأساليب اتبعها المشركون مع النبيّ ﷺ فاتهموه بالجنون والكذب والسحر فقالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وإن ﴿هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، فقابلوا دعوة نوح عليه السلام بالتهكم والسخرية، ووصل الأمر إلى الضرب المبرح. وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: كأني أنظر إلى النبيّ ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللَّهمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

ولما طفح الكيل وبلغ السيل الزبى، دعا على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، فاستجاب الله دعاءه وأوحى إليه أن يصنع سفينة كبيرة تتسع لجماعة المؤمنين، وأخذ في صنع السفينة كما أوحى الله إليه وألهمه.

فيمر عليه الناس ساخرين منه، ومن سفينته التي يصنعها على اليابسة.

وجاءه الأمر الإلهي أن يُدْخِل في السفينة أهله والمؤمنين، وأن يحمل فيها من الحيوانات من كل صنف زوجين (ذكر وأنثى)، وما أن دخلوا السفينة حتى أرسل الله المطر كأفواه القرب، وتفجرت الأرض ينابيع من جميع الأرجاء ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١١ ـ ١٤].

وقال للمؤمنين في السفينة: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾، وارتفع الماء على وجه الأرض بشكل سريع ورهيب وقوي ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، غمر الماء كل شيء وحطم كل شيء وهلك العصاة والذين كانوا يسخرون ويستهزئون. فأمر الله الماء أن يتوقف. رست السفينة بعد الطوفان على جبل يسمى الجودي يقال إنه في العراق. وبقي أهل السفينة فيها مائة وخمسين يوماً ونزلوا في يوم عاشوراء.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤]، وهبط الذين في السفينة ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ [هود: ٤٨].

وأما ما ورد عن نوح عليه السلام الذي قال له سبحانه: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، حينما سأل المولى سبحانه أن ينجي ولده وهو من أهله فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ

أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٥، ٤٦].

فنوح عليه السلام بسؤاله ربه سبحانه لم يرتكب إثماً أو معصية. فكان ابنه يحضر مواعظه ودروسه، ولم يعلم أن الولد سيعق أباه، ويكفر بالله ولكن الله عزَّ وجلَّ المطلع على السرائر، علم نفاق الولد الكفري، فأخبر عنه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾، فالولد كسائر المكذبين ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

* * *

## هود عليه السلام



ينتهي نسبه إلى نوح عليهما السلام، أرسله الله تعالى إلى قبيلة (عاد) التي كان موطنها الأحقاف، جنوب الجزيرة العربية، جهة اليمن شمال حضرموت. غرب (عمان اليوم) وشرق الربع الخالي.

وإلى هؤلاء أشار القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨].

وكانوا من العمالقة الأشداء الأقوياء، زادهم الله بسطة في الأجسام والحياة، بنوا القصور الفخمة الشامخة، وزرعوا الأرض وعمروها وانغمسوا بأنواع البذخ والترف والعيش الرغيد.

ساعد على ذلك: العيون والأنهار الصغيرة، والأرض الصالحة للزراعة والمناخ الجميل الطيب، إلى جانب هذه الأجسام القوية الضخمة مما دفعهم إلى الكبر والخيلاء ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وقال عنهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ

لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٤].

انحرفوا في عقائدهم وعباداتهم، فعبدوا أصناماً نحتوها بأيديهم أرسل الله إليهم (هوداً) عليه السلام، دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة هذه الأصنام...

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود: ٥٠]، وخوّفهم عقاب الله، وليس نبأ قوم نوح ببعيد.

وكعادة الناس الجفاة الغلاظ: سفّهوا دعوته، وقاوموها، وعزموا على قتله، ورموه بالسفه والجنون، بل ربما أصابه ما أصابه من هذا القول الذي يدعو إليه، هو من انتقام آلهتهم وأصنامهم ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٥].

## ❑ العقاب الإلٰهي:

منعهم الله المطر سنوات ثلاث فاشتد عليهم البلاء والجهد ثم أرسل عليهم سحاباً فظنُّوا أن هذا السحاب مقدمة المطر... ولكن يا للهول ما إن أظلهم السحاب، حتى تحول إلى سواد قاتم. ثم هبّت عليهم الريح الشديدة التي دمرت كل ما صنعوا وفعلوا فأهلكهم الله إلا نبيّ الله هوداً ومَن آمن معه. قال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا

تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وارتحل نبيّ الله هوداً إلى حضرموت، وعاش ومَن معه هناك حتى أتاه أمر الله.

## ❑ مفهوم الحضارة عند نبيّ الله هود عليه السلام:

لقد خاطب هود عليه السلام قومه بالحضارة التي أنعم الله بها عليهم من قوة وبأس، واتخاذ مساكن لهم من الجبال، ينحتون منها قصوراً وبيوتاً لهم، وبما أن الله أنعم عليهم من نِعَم كثيرة: أرض طيبة خصبة، وهذه المواشي والأنعام تأكل من الزرع، فتدرّ لهم الضرع فيقول لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢، ١٣٤]، و﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠]، ولكن مفهوم الحضارة عندهم غير هذا فقالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]، وكذلك كان الأمر لكل مَن خالف أوامر الله ومنهجه واتبع أمر الجبابرة والظلمة والخارجين على أمر الله ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠].

فكانت نظرة الشعوب غير نظرة الأنبياء التي جاءتهم بشريعة الله ومنهجه.

فنوح عليه السلام قال له قومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وقوم لوط الذين اشتهروا بالفحش والخبائث ﴿كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، فجاءهم ﴿أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٧٦]، و﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١]، وكان القدر المحتوم ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

ولا تزال بحيرة لوط (البحر الميت) شاهداً عليهم، فهي من أعمق نقطة تحت سطح البحر وأملح ماء أجاج.

❋ ❋ ❋

# صالح عليه السلام



نبيّ الله صالح من القبائل العربية، وقبيلته (ثمود) نسبة إلى (ثمود بن عامر) من أولاد سام بن نوح من العرب العاربة سكنهم (الحِجْر) بين تبوك والحجاز ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾، ويطلق عليها الآن (مدائن صالح) قرب خليج العقبة.

وبعد هلاكهم لا تزال إلى اليوم آثارهم بادية، ورممهم باقية، ورائحة نتنهم تزكم الأنوف.

أرسل الله إلى هذه القبيلة (ثمود) (صالحاً) نبيّاً ورسولاً يأمرهم بعبادة الله وحده، ونبذ ما سواه من عبادة الأوثان والأصنام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل: ٤٥].

وتتوفر في مناطقهم السهول الخصيبة، والأراضي الزراعية، والعيون المتفجرة الجارية، فكانوا في خير عميم، ورزق وفير. أشار القرآن إلى ذلك بقوله في سورة الشعراء: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩]، وفي سورة الحجر أشار

إلى قوتهم وأنهم ينحتون من الجبال بيوتاً لهم ويقتلعون الحجارة بوسائلهم البدائية دلالة على نشاطهم وشدّة مراسهم وقوتهم، فقال: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٢ ـ ٨٤].

## ❑ المعجزة:

طلب القوم من رسولهم صالح معجزةً خارقة تشهد بصدق دعواه وقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة، من صفتها (كَيْت وكَيْت) وذكروا أوصافاً سمّوها ونعتوها، وتعنّتوا فيها (تشدّدوا)، وأن تكون عُشَراء[1] طويلة، من صفتها (كذا وكذا).

فقال لهم النبيّ صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به، وتصدقوني فيما أُرسلت به؟

قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه، فصلّى لله عزَّ وجلَّ ما قدر له[2].

ثم دعا ربه عزَّ وجلَّ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عزَّ وجلَّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا. فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً آمن

---

(١) عشراء: حاملاً.

(٢) انظر البداية والنهاية ١ ـ ١٣٠، والنبوة والأنبياء ٣٠٦.

كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، أي: جحدوا بها، ولم يتبعوا الحق بسببها، أي: أكثرهم.

فقال لهم (صالح) عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[١].

ولكن قِسْماً كبيراً من الناس تحدوا الرسول صالحاً عليه السلام وسخروا من التهديد بعقاب الله لهم، فتآمر نفر منهم تحت سمع وبصر الباقين من المعاندين، وتآمروا على قتل (صالح) عليه السلام وابتدؤوا بتحدّيه بالمعجزة التي طالبهم بأن لا يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨]، فتربصوا بالناقة، وابتدرها أشقاهم (قدار بن سالف) فضربها بسيفه وعقرها فسقطت أرضاً وأجهز البقية عليها بأسيافهم... ثم همُّوا بقتل صالح عليه السلام فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، فسوّاها ولا يخاف عقباها.

فاصفرّت وجوه القوم في اليوم الأول الموعود، واحمرّت في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث اسودّت الوجوه... ثم جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة، وزلزال، ففاضت أرواحهم، وزهقت نفوسهم، وسكنت حركاتهم.

---

(١) البداية والنهاية ١ ـ ١٣٤.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[1].

وأنجى الله صالحاً ومائة وعشرين، ممن آمن معه، فانطلقوا شمالاً إلى الأرض المباركة في فلسطين يقال: إنها (الرملة)[2].

❋ ❋ ❋

(١) المرجع السابق ص١٣٦.

(٢) المصدر السابق.

# إبراهيم عليه السلام



## نسبه:

إبراهيم بن (آزر) وينتهي نسبه إلى نوح عليه السلام، وأطلق القرآن اسم (آزر) على أبيه، وهو الجد الأكبر للرسول ﷺ ووالد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، ولقّبه القرآن الكريم بـ(خليل الرحمٰن) وامتدحه بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾ [مريم: ٤١]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

والمؤرخون يقولون أن اسم أبيه (تارح) ولكن جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري وأحمد عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**يلقى إبراهيم أباه (آزر) يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تُخزني يوم يُبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقول لإبراهيم: انظر ما تحت رِجلَيك، فينظر فإذا هو بذبح متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**»[1].

(١) البخاري ٣٣٥٠، وفتح الباري ٦/٣٨٧، وأحمد ٤/٥٣ وطرفاه ٤٧٧٩، البخاري ٤/١١٠.

وكان مشهوراً بالكرم وكثرة ضيوفه يطعم الطعام، وقد ذكر القرآن الكريم طرفاً من قصة ضيف إبراهيم، فقال في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٨].

فهو لم يعرفهم، ولكن كرم الضيافة جعله يسرع لتهيئة طعام لهم فشوى لهم (عجلاً سميناً) صلّى الله عليه وسلّم[1].

● كانت ولادته ومنشؤه في أرض العراق بمدينة (بابل)[2] وكان يسكنها الكلدانيون، وكانت تظهر عليه علائم الذكاء المفرط والنجابة وهو في صباه وفتوته.

● لقد نفر من عبادة الأصنام التي اعتاد الناس أن يعبدوها من دون الله، ويقدمون لها قرابينهم، ويلتمسون عندها الرغبات. وكان لطيفاً في حواره مع الآخرين، مؤدَّباً مع والده، وما أرق هذا الحوار وألطفه مع والده، والذي يصلح أن يكون نموذجاً لكل داعية، ابتدأ بأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وفي هذا اللفظ استجاشةٌ لعاطفة الأبوة: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ . . .﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٥].

---

(١) قصص الأنبياء ص٧٠.

(٢) في شمال دمشق وعلى مقربة منها يوجد حي (برزة) على سفح امتداد جبل قاسيون شرقاً وفيها (مغارة) يقال أن إبراهيم عليه السلام ولد فيها، وهذا مستبعَد تاريخياً.

بهذا اللطف وهذا الحنان ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ يخاطب أباه... والذي أبان عن جفوته وغلظته في الرد وخروجه عن أدب الحوار ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾، وإذا بالابن الحليم البار المطيع يجيب: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧]، وينفذ وعده ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أدرك إبراهيم أن القوم لن يستجيبوا له، وطاغيتهم ملك يدعى (النمرود) سوّغت له نفسه ادعاء الألوهية، فطغى وتجبّر، ونمي إليه خبر الفتى إبراهيم فاستدعاه وعلى ملأ من الناس ليسمع الجميع: مَن ربك يا إبراهيم؟ وهل لك رب غيري؟ وإذا بالجواب الذي لا تردد فيه ولا تلعثم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فالذي يخلق وبيده الأمر، هو الرب الذي يجب أن يُعبد.

فتهرّب الملك من المناظرة فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ فدعى رئيس حرسه وقال له: ائتني برجلين من السجن قد استوجبا القتل (الموت).

وأُتِيَ برجلين حُكِم عليهما بالموت. فأمر بقتل أحد الرجلين وأطلق سراح الآخر. فها أنا أحيي وأميت.

وهنا مع المكابرة وسخف المجادلة، كان لا بد من إفحام الرجل بما لا يستطيع رده. قال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾... فيا مَن نصبْتَ نفسك رباً، غيِّر حركة الكون إن كنت صادقاً؟ وكان سكان تلك البلاد يترنحون تحت أقدام آلهة صنعوها بأيديهم وتماثيل نحتوها بأنفسهم، ونصبوها آلهة لهم من دون الله.

ولفت إبراهيم نظرهم أن الخالق، والإلٰه، يتصف بصفات الكمال، وأن النجوم والقمر والشمس وما في الكون مخلوق لله سبحانه. وأن الواحد الأحد هو الذي يجب أن نتجه إليه بالعبادة... فأصرُّوا واستكبروا بل سخروا منه ومن عقيدته.

كان لهم عيد يخرج فيه الجميع طلباً للتسلية واللهو. فطلب إليه القوم أن يرافقهم وأن يذهب معهم، فتظاهر بالمرض فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وانطلق إلى تلك الآلهة المزعومة، ومعه فأس قد أحضره، وكسّر الآلهة المصفوفة إلا أكبرها، وعلّق في عنقه الفأس.

ورجع القوم وكعادتهم يبدؤون بتقديم الولاء والطقوس للآلهة فراعهم وهالهم ما رأوا... الآلهة صرعى مهشمة... فصرخوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والظالم يجب أن يعاقَب وأن يُردع عن ظلمه... وإذا بأصوات علت ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾، ولتكن المحاكمة علنية واشهدوا عليه بما سمعتموه...

وأحضروا الفتى إبراهيم... وشخصت الأبصار نحو إبراهيم وبماذا سيجيب... وابتدأت المحاكمة ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

يا ترى هل سينكر التهمة؟ وما هي إجابته...؟ وإذا به ينقلهم إلى ما أذهل عقولهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وأردف قائلاً بتهكم وسخرية: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾.

خفضوا رؤوسهم وطأطأوها، ثم انتفضوا قائلين: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾، فكيف سيشهدون على مَن ضربهم وحطمهم... وهذا هو الذي يريد أن يصل إليه الفتى إبراهيم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وارتفع صوت الغوغاء والسفلة والكهنة ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

وحكموا عليه بالموت حرقاً بالنار... فجمعوا له الحطب وأوقدوها ثم صنعوا له المنجنيق، وقذفوا به في النار الملتهبة، وهو صابر محتسب متوكل على الله، فصدر الأمر الإلٰهي ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾.

(البرد) وحده سيكون قارساً لا يُحتمل ويصبح زمهريراً فلا بد من كون البرد (سلاماً) وراحة وأمناً وشفاء ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾.

ومع كل هذا لم يؤمن بدعوته إلا القليل... إلا أنهم لم يحاولوا إيذاءه من جديد... وتزوج إبراهيم من فتاة تدعى (سارة) كانت من أجمل نساء وقتها، وسار وزوجته ونفر قليل من أهله، باتجاه بلاد الشام حتى استقر به المقام في فلسطين. وحصل أن عمّ القحط والجدب بلاد الشام ـ ومنها فلسطين ـ موطن إبراهيم، فرحل إبراهيم وزوجه إلى مصر. وكانت زوجته سارة على قدر كبير من الجمال، وكان ملك مصر وقتها جباراً من الجبابرة، وطاغية من الطغاة، لا يسمع بامرأة جميلة إلا طلبها وأخذها رغماً عن أهلها وغصباً، وعلم بها الملك فأرسل إلى إبراهيم أن يرسل إليه (سارة) وكان من عادة الطاغية، إن

كان زوج المرأة موجوداً قتله. فذهب إبراهيم وسارة إلى الملك الطاغية، ولما سأله عن قرابتها له قال هي (أختي). فأمر الملك بإخراج إبراهيم ولم يؤذه، ولما خلا بسارة وأراد بها السوء فمدّ يده إليها يبست ولم تتحرك. فقال لها: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله فأطلقت يده. فحاول مرة أخرى معها فأخذ ثانية وأشد من تلك الحالة. فطلب منها أن تدعو الله على أن يطلق سراحها ولا يمسها وزوجها بسوء. فدعت الله فعاد كما كان، ثم دعا حاجبه وقال له: إنك لم تأتني بإنسانة، بل أتيتني بشيطان، وأطلقها، وأخدمها جارية اسمها هاجر.

وكان إبراهيم في صلاة منذ أن طلبها الملك يسأل الله تعالى في صلاته أن يحميها ويدفع عنها السوء والفحشاء. فما إن أقبلت أومأ إليها إبراهيم بيده يسألها؟ فقالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره، وأخدمني هاجر.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: فتلك أمكم يا بني ماء السماء فعصمها الله وصانها، إكراماً لخليله عليه السلام[١].

ورجع إبراهيم وسارة ومعهما هاجر إلى فلسطين تاركين (مصر).

كانت الزوجة (سارة) عقيماً لا تلد، وبلغت من الكبر عتياً، حيث جاوزت السبعين من العمر، فأشارت على زوجها (إبراهيم) أن يدخل بـ(هاجر) وقد وهبتها له، لعل الله سبحانه يرزقه منها بغلام يكون عوناً لأبيه. ورزق الله إبراهيم غلاماً من هاجر سمّاه (إسماعيل) عليهم الصلاة والسلام، ومع الأيام اشتدت الغيرة بقلب (سارة) وأصبحت لا

(١) انظر القصة بتمامها في البخاري ومسلم في فضائل إبراهيم عليه السلام.

تطيق رؤية الولد وأمه. فأوحى الله إلى إبراهيم، أن يأخذ هاجر وابنها إسماعيل، جنوباً إلى مكة المكرمة، ولم يكن وقتها بمكة من يسكن هناك، وأودع هاجر وابنها ذلك المكان القفر، وأراد العودة إلى فلسطين فأمسكت هاجر بخطام الناقة وقالت: يا إبراهيم، كيف تتركنا في هذا المكان؟ فلم يجبها بلسانه... بل بدموع انهمرت من عينيه، فعلمت أن هناك سراً أعمق، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ فأشار (نعم) فقالت: إذاً إن الله لن يضيعنا، وأطلقت زمام الناقة من يدها.

ووقف غير بعيد يدعو ربه قائلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [الأنبياء: ٣٧].

لقد ترك إبراهيم لهاجر وابنه إسماعيل، بعضَ التمر في كيس، وسقاءً فيه ماء، ولم يمضِ وقت حتى نفد الماء الذي في السّقاء فعطشت، وعطش الغلام، وأخذ يبكي من العطش، فانطلقت يميناً تصعد على رابية (الصفا) فلم تبصر شيئاً، ثم هبطت الوادي - وكان بين الصفا والمروة وادٍ - (جعل عليه سقف فيما بعد، ومن زمن ليس بعيد) - ثم صعدت على (المروة) نظرت لعلها تجد أحداً، وما زالت تذهب وتجيء بينهما سبع مرات، وسمعت صوتاً فالتفتت فإذا بالماء ينبع عند ابنها إسماعيل، فأسرعت وأخذت تحوّط الماء وتملأ سقاءها، والماء يفور. ورأت ملكاً قال لها: لا تخافي الضَّيْعة فإن لله هاهنا بيتاً. وأشار إلى مكان البيت يبنيه هذا الغلام وأبوه...

وأبصرت الطيرُ الماءَ فأخذت تحوم في الأفق، وترد الماء. وصادف مرور قبيلة (جرهم) من العرب، فرأوا الطير فأرسلوا مَن

يستطلع الخبر، وعلموا أن ماءً يفور في هذا المكان، ويوجد امرأة وطفل.

واستأذن الناس أم إسماعيل، أن يضربوا خيامهم في ذلك المكان واستأنست بوجودهم، وأكرموها وابنها. وشبّ إسماعيل بينهم، وتعلم العربية، ولم يمضِ وقت حتى أصبحت مكة مأهولة بالسكان، وحينما كبر إسماعيل تزوج منهم وأقام في مكة.

وكان إبراهيم عليه السلام يتردد على مكة كلما سنحت له الفرصة[١] وجاء هذه المرة لأمرٍ إلٰهي، وهو رفع القواعد من البيت وإعادة بنائه المهدّم. فأرسل الله ريحاً كشفت عن أساسه وقواعده، وأعاد إبراهيم يساعده الابن إسماعيل بناء البيت ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ واقرأ الآيات من ١٢٤ ـ ١٢٩ من سورة البقرة وتأمّل جمالها وحلاوتها، والآيات ٨٤ ـ ١١٣ من سورة الصافات، والآيات ٢٤ ـ ٣٧ من سورة الذاريات. صلاة الله وسلامه على إبراهيم فهو أول المسلمين.

## ☐ الشبهات حول إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

وأما ما ورد عن إبراهيم عليه السلام من الشك في الألوهية وسؤاله عن إحياء الموتى وقول الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ وعن الكذبات

---

(١) جاء إبراهيم عليه السلام مكة عدة مرات، منها حينما أمره الله بذبح ابنه وقال له: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢].

الثلاث التي وردت في السنّة، فنقول:

أ ـ الشك في الألوهية: قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩].

فهذا العرض والانتقال، ليس شكاً من إبراهيم، وإنما ليسفِّه أحلامهم وأن ما يعبدون من دون الله، من الشمس أو القمر، والكواكب ليست بشيء.

وإبراهيم عليه السلام آتاه الله الرشد والحكمة صغيراً وقال عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١]، ومن الحكمة أن يتدرج معهم من العبودية لكوكب، ثم إلى قمر، ثم إلى الشمس... آلهة مزعومة ثم ينقضها واحداً واحداً[(١)].

أين الشك في هذا! قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

ب ـ وأما النص الثاني الموهم عدم الإيمان فهو في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن

(١) انظر الآيات من ٧٤ ـ ٧٩ من سورة الأنعام.

قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [٢٦٠]، فهذا النص لا يفهم منه أن إبراهيم كان شاكاً في قدرة الله على إحياء الموتى، بعد أن دَرَسَتْ في الأرض وبلِيَت (كل ابن آدم يبلىٰ إلا عجبُ الذَّنب) فالسؤال عن الكيفية ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهذا الطلب لا يتوقف الإيمان على العلم به.

وجاء في الحديث: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[١]. ونحن لم نشك أبداً فإبراهيم عليه السلام من باب أوْلى وأحرى لم يشك. انظر فتح الباري ٦/٢٩٤ ومسلم رقم ١٥١ باب الإيمان.

إن إبراهيم أراد التشوُّف لسرّ الصنعة الإلٰهية، والتطلع لعظمة الله في الخلق والإيجاد، فالطلب لا للبرهان على القدرة، ولا عن ضعف بالإيمان، فهو يريد أن يرى: يد القدرة الإلٰهية في الإحياء.

ج ـ وأما الكذبات الثلاث:

فقد ورد في السنّة: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾**».

[٢] ـ وقال ﷺ: «**بينما هو ذات يوم وسارة أتى إلى جبَّار من الجبابرة فقيل له إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها: مَن هذه! قال: أختي، فأتى فقال لها: إن هذا الجبار إن**

---

(١) أي لو كان إبراهيم شاكًا ـ معاذ الله ـ.

(٢) أي: والثالثة.

**يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام. ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل إليها فأُتي بها، وقام إبراهيم يصلي، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذَ حتى رَكَضَ برجلِه فقال: ادعي الله لي ولا أضرّك. فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر فأتته، وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم! قالت: ردّ الله كيد الكافر في نحره وأخدمني هاجر»** قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

ـ فقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: من عبادتكم لهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني شيئاً، فهو من سقم النفس لحالة الناس الذين ينحرفون عن طريق الهدى، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ فهو من قبيل السخرية، أليست هذه الأصنام معبودكم وتلجؤون إليها، وهذا الصنم كبيرهم ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، فبهتوا قائلين: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، فاستحقوا التبكيت والمهانة ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ـ وأما قوله لزوجته (سارة) بأنها (أخته) فقصد بذلك أخوة العقيدة والإيمان. كما يقول أحدنا لزوجته أو أمّه (يا أختي) وهذا ما يسمى بالتعريض، لا من الكذب الذي يأثم فاعله ويؤاخذ عليه. قال ﷺ: «**إن في المعاريض لممدوحة عن الكذب**».

ترك نبيّ الله إبراهيم عليه السلام وطنه وأهله وقومه، وسار وزوجته سارة، ومعه ابن أخيه لوط عليه السلام متجهين إلى بلاد الشام ـ

الأرض المباركة ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾. هذه البلاد التي هي مهبط الوحي، فترة طويلة، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم وفيها الأرض المقدسة، وثاني الحرمين، وفيها بركة الرزق، وبركة الوحي والنبوة، فعوضه الله وطناً خيراً من وطنه، وجعل من نسله أمةً أئمةً يهدون الناس بأمر الله، وأوحى إليهم فعل الخيرات، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وكانوا طائعين لله سبحانه.

## ❑ حضارة إبراهيم عليه السلام حضارة إسلامية:

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يدعوا إلى عقيدة وشريعة فحسب، ولم يحملوا ديناً جديداً هو الإسلام(١) فحسب، بل كانوا مؤسسي حضارة ومدنية واجتماع، وأسلوب من الحياة جديد. جدير بأن يسمى الحضارة الربانية. ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى الحضارات التي تسمى الحضارات الجاهلية، امتيازاً واضحاً في الأسس والروح، وفي الأشكال والتفاصيل.

وكان إبراهيم الخليل عليه السلام إمام الحضارة الحنيفية القائمة على توحيد الله تعالى والإيمان به، والتي أساسها: متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، والمؤسسة على الحياء والأدب مع الله تعالى، والإنابة والرحمة ورقة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنيَّة ومنهج الحياة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥]، ولئن كان إبراهيم عليه السلام مؤسس هذه الحضارة، فإن رسول الله ﷺ هو

---

(١) كالأنبياء والرسل كانت دعوتهم الإسلام كما ورد في القرآن الكريم.

حفيده مجدّد هذه الحضارة ومتمّمها. وهو الذي بعث فيها الروح، وأفاض عليها الخلود، وأرسى قواعدها، وشدَّ بنيانها، وجعلها خالدة باقية عالمية[١]. وهذه الحضارة لا تعرف الوثنية والشرك. وكان من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

حضارة لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتناحر على جِيَف المادة، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب!

إنها دعوة لم تزل عقيدتها ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: ٨٣].

إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان، والتميز بين الألوان والأوطان (فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأكد هذه المبادئ والمعاني خاتم الرسل ﷺ فقال: «**ليس منا مَن دعا إلى عصبية، وليس منا مَن قاتل على عصبية، وليس منا مَن مات على عصبية**»[٢]، و«**ليس**

(١) النبوة والأنبياء للندوي ٦٤.

(٢) أبو داود وجامع الأصول ١٠/٥٨ (٧٥٢٢).

منا مَن لم يرحم صغيرنا ويُوقّر كبيرنا»[١]، وقال لمَن هتف بالأنصار ومَن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها منتنة»[٢].

إنها حضارة تعرف في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع، وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة والجهاد لله تعالى وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة، وإنقاذها من براثن الجاهلية والدعوات المضلّة الطاغية، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية، وخيراتها المنتشرة الباقية.

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾، وقامت على أساس الإيمان، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني، واللون الرباني، والروح الإيمان[٣].

ومن هنا أمر القرآن الكريم إلى اتباع الأنبياء وتقليدهم واتباع سيرتهم والأخذ بها. والسير على طريقتهم والتشبُّه بهم ما أمكن.

قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

ويقول: إن اتباع طريقة رسول الله ﷺ هي الطريقة إلى محبة الله

(١) جامع الأصول ٦/٥٧٣ (٤٨١١).

(٢) البخاري.

(٣) من رسالة (ملة إبراهيم وحضارة الإسلام) للنووي ـ بتصرف ـ.

عزَّ وجلَّ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وأن نطلب من الله الهداية والاستعانة بالسير على الصراط المستقيم فنقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ آمين [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

* * *

## إسماعيل عليه السلام



جاء الولد إسماعيل مع أبيه (إبراهيم) عليهما السلام إلى الأرض المباركة، وإلى أرض الحرم، بعد أن تركوا أرض فلسطين.

ونشأ (إسماعيل) بين قبيلة (جرهم) العربية وتعلّم منهم (العربية).

وزاره أبوه ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾، أي: شبَّ وأدرك وأصبح يسعى في أمور دنياه كأبيه، ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

إبراهيم الشيخ المقطوع من الأهل والذرية، وليس له ولد وقتها إلا إسماعيل الذي رزق به على كبر في السن والشيخوخة ما كاد يأنس به ويبلغ معه السعي ويرافقه في الحياة. يرى في المنام أن يضحي بابنه ويذبحه...

إنها رؤية منامية، وليست أمراً مباشراً أو عن طريق وحي أو ملك. ورؤيا الأنبياء حق. وهذا يكفي. ولا اعتراض على مشيئة الله.

والأمر لا شك شاق على الوالد الشيخ، لقد طُلِب منه أن يذبح ولده الوحيد بيده لا عن طريق غيره. وهو لا يأخذ ابنه على حين غرَّة منه وغَفْلة بل يعرض عليه الأمر، وكأنه يعرض عليه أمراً عادياً، فماذا كان الجواب؟ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

لقد تيقَّن الولد أن الأمر من الله، فتلقى كلام أبيه في طاعة واستسلام ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ غاية في المودة والأدب مع الوالد وقبل كل شيء مع الله، فيطلب من الله أن يُلهمه الصبر، وذلك منتهى التسليم لأمر الله.

وأسلما الأمر إلى الله ثقة به وطاعة له، ورضًى بما شاء، وحققا التكليف، وتمّ الامتحان بنجاح، فلمَ الألمُ والذبحُ والدماء؟ وعرف الله صدقهما ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٧].

فمضت بذلك سنة النحر في عيد الأضحى، ذكرى لهذا الحدث العظيم.

## ❏ إسماعيل يتزوج من جرهم:

بعد أن تفجّر ماء زمزم في المكان الذي فيه (زمزم) اليوم ـ عقب ركلة من عقبِ مَلَكٍ أو جناحِه ـ ركضت هاجر، فشربت وسقت الغلام إسماعيل وجعلت الماء في سقائها، وخوفاً على الماء أن ينساب أخذت تحوطه بيدها وتزمزمه.

عن ابن عباس قال: قال النبيّ ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم** ـ أو قال ـ **لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً**»، فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضَّيعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله[1].

## ❏ قبيلة جُرْهم:

كان أفراد هذه القبيلة سائرين في طريقهم يبحثون عن مكان فيه

---

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٠٥.

ماء ويصلح لإقامتهم فيه، فنزلوا أسفل مكة ـ المسْفَلة ـ فرأوا طائراً عاكفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، وعهدنا بهذا الوادي ليس فيه ماء. فأرسلوا وارداً لينظر الخبر فرجع إليهم مَن أرسلوه ليخبرهم بالماء، فأقبلوا فإذا بأم إسماعيل وابنها، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم.

[وهذه مِنّة من الله على عباده فهو سبحانه لا يضيّعهم].

وتكاثر القوم ودعا بعضهم بعضاً فصاروا أهل أبيات، وأقاموا قرب الماء، ويكرمون من أزوادهم أمَّ إسماعيل وابنها، فتطعم معهم، وقد كفاها الله مؤونة الزاد والأمن، وشبّ إسماعيل بين ظهرانيهم وتعلّم العربية منهم، ثم تزوج منهم. وماتت هاجر الأم، فجاء إبراهيم بعد حين يتفقد أحوال ذريته ـ وكان إسماعيل غائباً عن داره يصطاد ـ فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألهم عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشَرّ، في ضيق وشدَّة. وشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له: يغيّر عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عَيْشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم. أمرني أن أقرأ عليكِ السلام، ويقول لك غيّر عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك. فطلّقها وتزوج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله. ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللّهمّ بارك لهم في اللحم والماء.

قال ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذ حَبّ - قمح - ولو كان لهم حَبّ، لدعا لهم فيه**»[(١)]، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يُثبّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير. قال: فأوصاكِ بشيء؟ قال: ذاك أبي وأمرني أن أُمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دَوْحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر[(٢)]، فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٣)].



(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٠٥.
(٢) الحجر الذي هو الآن قرب باب الكعبة (مقام إبراهيم).
(٣) صحيح البخاري رقم ٣٣٦٤.

## شعيب عليه السلام[١] وقرية (مَدْيَن)



بُعث إلى قرية مَدْين - قرب معان - ويسمَّى قومُه: أصحاب مَدْين أو أصحاب الأيكة، أي: الغوطة العظيمة... أمُّه بنت لوط عليه السلام... كان قومه يطففون المكيال ويفسدون في الأرض ويبخسون الناس أشياءهم، دعاهم عليه السلام للتوحيد، وأمرهم بالإصلاح فكان جوابهم: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، فأرسل الله عليهم عذاب يوم الظلّة، وهو سبعة أيام من الحَر الشديد المتواصل حتى غلت مياههم، ثم أرسل غمامة فتجمعوا تحتها، لتقيهم من الحَر فتزلزلت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة، وأمطرت السماء عليهم ناراً فاحترقوا...

في صحيح ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: «**أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر**»[٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقول عن شعيب عليه السلام: «**ذاك خطيب الأنبياء**»[٣].

(١) وردت قصته في سورة الأعراف ٨٦ وهود ٨٦ والشعراء ١٧٦.
(٢) ابن حبان ٣٦١.
(٣) أخرجه الحاكم ٥٦٨/٢.

يقال: إن نسبه ينتهي إلى إبراهيم عليهما السلام، كما ويقال: إنه ممن آمن بإبراهيم يوم أرادوا حرقه بالنار، وهاجر مع إبراهيم عليه السلام إلى الشام، والله أعلم.

أُرسِل إلى أهل مَدْين وأهلها من العرب، ومَدْين قريبة من مدينة (معان) على أطراف بلاد الشام على حدود السعودية.

وكان أهل مَدْين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارّة، ويسيئون المعاملة فيبخسون المكيال والميزان، ولهم شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفّة بها يقدسونها[١].

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، قال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣].

فأمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم، وقال لهم: لا تأكلوا أموال الناس بالباطل، وتقطعون الطريق على المارّة، وأن يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً، وحذّرهم نقمة الله وعذابه في الدنيا والآخرة فاستهزؤوا به وبقوله، وسخروا منه، وقالوا بتهكُّم واستهزاء وسخرية: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]، كيف تريد منا أن ندع ديناً ألفناه، وشرعٍ ورثناه عن آبائنا، وما كثرت أموالنا إلا بالطريقة التي نحن عليها الآن فاغتنينا بعد فقر...

(١) قصص الأنبياء لابن كثير.

وتلطّف معهم غاية اللطف بحسن القول، فظنّ أن كلماته أخذت طريقها إلى قلوبهم، ففاتحهم بأن الله تبارك وتعالى قد أوحى إليه وأرسله بالحق رحمة بهم، وقال لهم متلطفاً إنني لن أُكرهكم على اتباع ما أدعوكم إليه، ولا أعمل إلا الذي ارتضاه الله لي فأرضاه لكم. ولا أريد منكم أجراً ولا جزاءً أو شكوراً. بل الإصلاح ما استطعت. فما كان منهم إلا الإمعان بالنفور، والبُعد عن منهج الله، فأخذ يبين لهم بالحسنى فساد عقيدتهم، وعاقبة انحرافهم وظلمهم، مؤيداً أقواله بالحجج البالغة والآيات والمعجزات، فما كان منهم إلا المراوغة، والسَبّ والشتم فخوّفهم وأرهبهم بمصيرٍ كمصير الأمم السابقة ومن حولهم ممن سمعوا بهم عن قُرب فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

فما كان من كبرائهم وسفهائهم، إلا أن توعّدوا شعيباً ومَن آمن معه بسوء العاقبة، الطرد من بلده مدين وإخراجه، ومَن آمن معه من البلد التي ولدوا فيها وترعرعوا فيها ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨].

وكانت عشيرة شعيب قوية، وكعادة القبائل العربية، لا يجرؤ أفراد من قبائل أخرى على النَيْل، أو قتل رجل من هذه العشيرة، فقالوا متهكمين ساخرين: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: ٩١، ٩٢].

وطالبهم بأن يتقوا الله ويُحسنوا في أعمالهم ويستغفروه ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠].

ولم تلقَ دعوة شعيب أُذناً واعية لما عسى أن يحل بهم من سخط الله وعذابه، بل إمعاناً بالغواية والكفر، تحدَّوه بأن يسقط عليهم من السماء ما يهلكهم، أو أن ينزل عليهم أشد العذاب ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فدعا شعيب عليه السلام ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فحقّ عليهم العذاب ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩]، فأخذهم عذاب يوم الظلة من فوقهم، وعذاب الصيحة والرجفة من تحتهم، فقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: ٩١]، تزلزلت الأرض زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم، وصيّرت الحيوانات كالجماد وأصبحوا جثثاً لا أرواح فيها، إلى جانب صواعق شديدة ترسل شرراً من النار، وإذا بسحابة فهرعوا إليها يستظلون بها من الحَر الشديد، ولمّا استظلوا بظلها إذا بها النار المحرقة، ترميهم بشرر ولهب ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢].

فانصرف عنهم نبيّ الله شعيب إلى مكان آمن هو والذين معه قائلاً: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

***

# أيوب عليه السلام



أغلب الأقوال أنه عاش في دمشق... ابتلاه الله عزَّ وجلَّ بالنعمة والصحة والمال والولد والبساتين، فكان عبداً تقياً شاكراً حامداً، ثم ابتلاه ربه بسلب هذه النِعَم جميعها، فذهب الأهل والمال والولد والصحة، ولم يبقَ له إلا زوجته تقوم على خدمته، وأصبح يعاني من شتى الأمراض المضجرة المضنية (الغير منفرة) فصبَر وحَمِد الله، فكان نِعْم العبد في السرّاء والضرّاء... امرأته اسمها [ليّا] وقيل [رحمة] سألته أن يدعو الله أن يرفع عنه البلاء، فحلف ليضربنها بالسوط مئة جلدة، عندما يعافيه الله فتركته، وبقي وحيداً وعندما اشتد بلاؤه ووحدته، ضجّ بالدعاء إلى الله قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فكشف الله عنه ضره ومَنَّ عليه بالعافية والصحة، وعلّمه كيف يبر بقسمه ولا يحنث، وأكرمه بالمال والأهل والأولاد من جديد، جزاء صبره وشكره وحمده المستمر لله...

قيل أنه بقي في المرض سبع سنوات، وقيل ثماني عشرة سنة وعليه قول المفسرين... وعاش **٩٣** سنة.

وردت قصة أيوب عليه السلام في سورتَيْ (الأنبياء) و (صّ).

ينتهي نسبه إلى إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤] فهو من أحفاده

عليه السلام من سلالة العيص بن إسحاق، شقيق يعقوب عليه السلام وزوجته البارّة الصالحة (ليا) بنت يعقوب... آتاه الله النبوة وإلى جانب النبوة أعطاه الله المال بسائر أصنافه، فكان شاكراً لله تعالى حق الشكر، ففي ماله حق معلوم للسائل والمحروم، ويقضي يومه شاكراً لله، باسطاً مما أنعم الله به عليه على الناس، ويقوم ليله متهجداً متعبداً قانتاً لله رب العالمين... فكثر زوّاره وأصحابه وسارت بذكره، ومَدحِه الرّكبان. وأكرمه الله بالزوجة الصالحة، التي تساعد زوجها في كرمه وعبادته وأخلاقه، وذرية صالحين.. والجميع يعطف على المحتاجين والفقراء، ويطعم الطعام ويردون الظلم عن المظلوم، وينشرون العلم والمعرفة بين الناس. والناس جُبلت على حب مَن أحسن إليها، ويتقبلون من المحسن نصائحه وأوامره، وخاصة إن كانت فيما يرضي الله...

وشاء الله تعالى ابتلاء أيوب عليه السلام وكما ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»[1].

وأخرج ابن جرير الطبري وابن كثير في التفسير - من سورة الأنبياء - عن أنس بن مالك أن النبيّ ﷺ قال: «**إن نبيّ الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوان له، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: نعلم والله، لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير**

(١) الترمذي ٣٩٨، وابن ماجه ٤٠٢٣، وأحمد ١٧٢/١ وغيرهم.

**أن الله عزَّ وجلَّ يعلم أني كنت أمرُ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفِّر عنهم كراهية أن يذكرا الله إلا في حق»**.

قال: «**وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن** ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [ص: ٤٢]، **فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أيا بارك الله فيك، هل رأيت نبيّ الله هذا المبتلى؟ فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو»**.

قال: «**كان له (أندران)** - أي: البيدر - **أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورِق** - الفضة - **حتى فاض»**[1].

وعن ابن عباس أنه بعد اغتساله بالماء، ألبسه الله تعالى حلّة من الجنة، فتنحّى أيوب وجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله! هذا المبتلى الذي كان ههنا، لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب؟ وجعلت تكلمه ساعة، قال: ولعل أنا أيوب. قالت: أتسخر مني يا عبد الله؟ فقال: ويحك أنا أيوب قد ردّ الله عليّ جسدي. قال ابن عباس: وردّ الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم[2].

قال تعالى لأيوب: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، اضرب الأرض برجلك. فلما فعل فجّر الله له عيناً باردة الماء فاغتسل فيها وشرب منها،

---

(١) أخرجه ابن حبان ١٩٨، والبزار ٣٥٧، وأبو يعلى ٣٦١٧، والحاكم ٥٨١/٢، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٨/٨ وقال: رواه أبو يعلى والبزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه ابن حاتم عن ابن عباس.

فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والسقم والأذى والمرض الذي كان يعاني منه[١]. وأبدله الله الصحة والجمال والمال، وعوّض عليه الأهل والولد. قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [ص: ٤٣].

ونقف عند هذا الحد... هل أحياهم الله بعد موتهم أم عوّضه عنهم... كل ذلك ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ عاش بعدها أيوب سبعين سنة، وكان له من العمر ثلاثاً وتسعين سنة، والله أعلم.

وقيل: إن ذا الكفل هو ابن أيوب عليه السلام.

في الصحيح أن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ قال: **«كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورّع من ذنبٍ عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ أكْرَهتُك؟ قالت: لا ولكن هذا عملٌ لم أعمله قط، وإنما حملتني عليه الحاجة، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ ثم نزل. فقال: اذهبي فالدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصي الله الكفلُ أبداً. فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل»**[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: ٤٨]، ويكفي أن قرن الله اسمه مع النبيّ إسماعيل عليهما السلام الذي وصفه الله بأنه صادق الوعد وأنهم جميعاً من الأصفياء الأخيار.

وقال عنه سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

---

(١) لعله نوع من الأمراض التنكسية (في المفهوم المعاصر) أو (الروماتيزم).

(٢) رواه الترمذي وقال عنه حديث حسن برقم (٢٤٩٦) وأحمد ٢٣/٢ والحاكم ٢٥٤/٤ وابن حبان ٣٨٧.

## قوم لوط عليه السلام(*)



لوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام (إبراهيم وهاران وناحور) إخوة، فهو لوط بن هاران بن تارح (آزر) ومن السابقين إلى الإيمان بعمه إبراهيم عليهما السلام، وهاجر مع عمه إبراهيم من أرض العراق وكان معه في هجرته وسفره. وطلب منه عمه إبراهيم أن يستقر بمدينة سدوم، في منطقة أخرى، ليدعو إلى توحيد الله، وأرسله الله تعالى رسولاً إلى أهل سدوم من أرض غور زغر، جنوب غربي الأردن، وكان أهل تلك المنطقة من أفجر الناس وأكفرهم، ومن أسوأ الناس سيرة وسريرة، يقطعون السبيل ـ الطريق ـ ويأتون في مجتمعاتهم ونواديهم المنكر ـ كأنه شيء مباح ومستحسن ـ ولا يتناهون عن منكر يفعلونه ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

لقد ابتدعوا فاحشة جهراً وعلانية لم يسبقوا إليها ـ وهي اللواطة ـ (إتيان الذكر للذكر) ربما فعلها أحد الناس، خفية وخوفاً أن يراهما أحد، أما أن تصبح حالة مستحسنة، يتهارجون بها تهارج الحمير، لا

(*) وردت قصة قوم لوط في سورة الأعراف (٨٠ ـ ٨٤) وسورة هود (٧٤ ـ ٨٣) والحجر (٥١ ـ ٧٧) والشعراء (١٦٠ ـ ١٧٥) وفي سورة العنكبوت (٢٨ ـ ٣٥) وفي سورة النمل (٥٤ ـ ٥٨) وفي سورة الذاريات والقمر.

حياء ولا مروءة ولا خجل، مستبشرين يظهرون السرور بذلك.. فهذا يثير سخط الله وغضبه بما تُنتهك حرماته.

دعاهم نبيّ الله (لوط) عليه السلام إلى الإيمان بالله وحده والامتثال لما يحرم عليه وينهاهم عنه، وخاصة هذه الأفاعيل المستقبَحة شرعاً وعقلاً، فتمادوا في غيِّهم وضلالتهم. ولم يترك باباً من أبواب الرجاء والدلالة والإقناع إلا سلكه، وكأن في أذنهم وقراً ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢].

ثم خوّفهم بعذاب الله الشديد، بعد أن عدّد أفعالهم المنكرة وسوء أخلاقهم ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ ـ أي: البشرى بإسحاق ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ ـ إبراهيم ـ ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٣٤].

فلما أصرُّوا على أفعالهم المنكرة، ولم يرتدعوا عن غواياتهم

همُّوا بإخراج رسول الله لوط من أرضهم وديارهم بدعوى ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ثم تحدُّوا رسولهم بأن يأتيهم بعذاب الله ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذا بدلاً من أن يُظهروا التوبة، ويطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم الله على ما فعلوا واقترفوا فتحدُّوا بإنزال عذاب الله عليهم.

سأل لوط ربه أن ينصره على القوم المفسدين، فاستجاب الله دعاءه وبعث ملائكته إليهم.. فمروا أولاً على نبيّ الله إبراهيم، وشوى لهم لحماً وقرّب إليهم طعاماً، ودعاهم إلى الطعام فلم يُقبلوا على الطعام، فأوجس منهم خيفة، لأن من العادات المألوفة: مَن أراد بأهل البيت سوءاً لا يأكل من طعامهم وزادهم. ولم يعلم بادئ الأمر أنهم من الملائكة جاؤوه بصفات آدميين.

وارتاع إبراهيم من هؤلاء الذين لم تمتد أيديهم إلى الطعام وأوجس منهم خيفة ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٤]، و﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨٠].

ولما بشّروه بأنه سيولد له ولد ويسمِّيه إسحاق، وسيولد لإسحٰق ولد يسمِّيه يعقوب (إسرائيل) تساءل بدهشة: الآن وقد بلغت من الكبر عتياً وامرأتي عاقر؟ فضحكت الزوجة سارة، كانت قائمة لدى الباب تراقب هؤلاء الضيوف عن كثب.

وانصرف الملائكة (الضيوف) إلى قرى قوم لوط عليه السلام وكان الوقت مساء.. فاستضافوه للمبيت عنده، فخاف عليهم من قومه وضاق بهم ذرعاً، فطمأنوه وقالوا لا تخف... أسرِ بأهلك سحراً ولا يلتفت منكم أحداً ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي

وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ [القمر: ٣٨، ٣٩]، ثم حدث ما حدث.

ومع الصباح اقتلع جبريل، هذه القرى بطرف جناحه مع ما معهم من الحيوانات، فرفع الجميع بما فيها وما عليها، حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمع أهل سماء الدنيا من الملائكة، أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وامرأة لوط تباطأت، وأرادت أن لا تخرج مع زوجها وأولادها، فخرجت مع بنتَيْها مكرهة، ولما سمعت الصيحة، وسقوط البلدة التفتت خلفها، مخالفة أوامر نبيّ الله بأن لا يلتفت أحد منهم، فكانت من الهالكين. جاءها حجر شدخ رأسها، فلحقت بقومها. فكان مصيرها الخزي والهلاك كامرأة نوح عليه السلام.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ - بالكفر بالله - ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وأما نبيّ الله لوط عليه السلام، فقد ذهب ومَن معه ممن آمن بالله وبرسالته إلى قرية أخرى، لم يجرِ عليها العذاب، وكان معه بنتاه كانتا من المؤمنين(١).

وأما مكان قوم لوط فأصبح بحرة منتنة، شديدة الملوحة، لا يصلح ماؤها للشرب، ولا للزراعة وهي من المعجزات والآيات الباقية، ليعتبر بها وبمصير الأمم الهالكة من يعتبر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٤/١ وانظر حياة وأخلاق الأنبياء ص١١٩، وقصص الأنبياء لابن كثير ص١٣٥.

## إسحاق



ولد (إسحاق) عليه السلام بعد أخيه (إسماعيل) عليه السلام بأربع عشرة سنة، وكان عمر إبراهيم عليه السلام مائة عام، وعمرُ (سارة) أمه تسعين سنة.

قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢].

ولما بلغ الأربعين من عمره، تزوج إسحاق (رفقا بنت بتوابيل) وأنجبت منه غلامين توأمين. سمّي الأول (عيصّو) ويسمّيه العرب (العيص) والثاني (يعقوب) لأنه خرج آخذاً بعقب أخيه وهو (إسرائيل) عليه السلام الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل.

ويقال: إن إسحاق كان يحب (العيصو) أكثر من يعقوب، بينما الأم (رفقا) تحب (يعقوب).

وذكر أهل الكتاب ـ كما أورد ابن كثير نقلاً عن الطبري ـ[١] أنه لما كبر إسحاق وضعف بصَرُه اشتهى على ابنه العيص طعاماً وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً وأن يطبخه له ليبارك عليه ويدعو له. وكان

(١) انظر تاريخ الطبري ٣١٦/١ وقصص الأنبياء لابن كثير ص١٤٨.

العيص صاحب صيد، فذهب يبتغي ذلك، فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديَيْن من خيار غنمه، ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه، ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له، فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على عنقه وذراعيه من جلد الجدْيين، لأن العيص، كان أشعر الجسد، ويعقوب ليس كذلك فلما جاء به وقرّبه إليه، قال: مَن أنت؟ قال: ولدك. فضمّه إليه وجسّه، وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الجسّ والثياب فالعيص. فلما أكل وفرغ، دعا له أن يكون أكبر إخوته قَدْراً، . وكَلِمتُه عليهم وعلى الشعوب، وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده، جاء أخوه العيص بما أمره به والده، فقرّبه إليه فقال له: ما هذا يا بني؟ قال: هذا الطعام الذي اشتهيته، فقال: أما جئتني به قبل الساعة، وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد في نفسه عليه كثيراً. وتواعده بالقتل، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى، وأن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يُكثر أرزاقهم وثمارهم.

فلما سمعت أمّهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها - لابان - بأرض حرّان، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه، وقالت «رفقة» الأم لزوجها إسحاق أن يأمر يعقوب بذلك ودعا له، ففعل. وخرج يعقوب من عندهم، وقدم يعقوب على خاله في أرض حرّان، وكان لخاله بنتان: الكبرى (ليا) والصغرى (راحيل).

وكانت الصغرى (راحيل) أجملهما وأحسنهما فخطبها يعقوب. فأجابه خاله إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين... وكان من

عادتهم أن لا تتزوج الصغرى قبل الكبرى.. فتزوج يعقوب الأختين وكان هذا جائزاً وقتها في شريعتهم فوهب الخال لكل واحدة منهن جارية. فوهب للكبيرة الجارية (زلفى) ووهب لراحيل (بلهى).

ووهبت كل من (ليا) و(راحيل) جاريتها ليعقوب.

وولدت راحيل ليعقوب (يوسف) فصار عدد أولاده منهما أحد عشر.

وبقي يعقوب في أرض حران عشرين سنة رجع بعدها إلى بلده التي ولد فيها ورغب أولاده وأهله الذهاب معه، فتحمّل بأهله وماله ووصل فلسطين.

وهناك حملت (راحيل) وولدت (بنيامين) إلا أنها جهدت في طلقها به وماتت عقب ولادته فدفنها يعقوب في (بيت لحم).

وسكن يعقوب مع أبيه (إسحاق) في (حبرون) ـ أرض كنعان ـ وهي سكن إبراهيم عليهم السلام ثم توفي إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفن إلى جانب أبيه في حبرون (مدينة الخليل)[١].

❋ ❋ ❋

(١) عن قصص الأنبياء لابن كثير (بتصرف). وانظر: قصص الأنبياء للنجار.

## نبيّ الله يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام



في الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة بعد عام الحزن، أنزل الله سبحانه قصة يوسف عليه السلام، ليعتبر به ويتأسّى حيث عانى عليه السلام من صنوف المِحَن والابتلاء وكيد الإخوة، ومحنة الجبّ، ومحنة الرق، حيث يباع في السوق بلا إرادة منه ويعيش بعيداً عن أبويه ويفاجأ بعد ذلك بمحنة كيد امرأة العزيز وإلى محنة السجن، إلى محنة التحكم في أقوات الناس ومنها لقمة الخبز، وصبر عليه السلام على كل ذلك مستسلماً لله رب العالمين قائلاً: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠٠، ١٠١].

### ❑ ولادة يوسف:

ولد يوسف عليه السلام في بيئة إسلامية محافظة فجده إبراهيم عليه السلام خليل الرحمٰن أول مَن سمّانا بالمسلمين، ودعا الناس إلى إسلام أمورهم لله رب العالمين، وأبوه يعقوب عليه السلام ابن إسحاق عليه السلام بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه ولقد تزوج يعقوب من بنت خاله (لابان بن بتوبل) واسمها (راحيل) حينما ذهب إلى

(حران) موطن إبراهيم عليه السلام. وطلب (لابان) من (يعقوب) أن يبقى عند خاله يرعى غنمه سبع سنين كصداقٍ ومَهرٍ لراحيل؛ وكان للخال (لابان) بنت أكبر من (راحيل) فطلب إليه أن يتزوج الأخت الكبرى (ليًا) ثم الصغرى (راحيل) وكان هذا جائزاً في شريعتهم.

ووهب خاله لكل فتاة (جارية) تقوم بخدمة سيدتها، ووهبت الأختان الأمتين ليعقوب، فولد له من الأربع: اثنا عشر ولداً هم الأسباط.

ورجع يعقوب إلى فلسطين، وهناك دخل بالأختين بعد احتفال كبير كما جرت العادة. وولد ليعقوب أولاد من الأختين ومن أمتَيْهما، وكانت راحيل أم يوسف وبنيامين قد ماتت، ويوسف في الثامنة من عمره وذات يوم رأى يوسف رؤيا جميلة ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤].

تهلّل وجه الأب يعقوب، وأشرقت أحاسيسه، وقال: يا بني، إنها رؤيا صادقة، وبشرى خصّك الله بها، ونِعَم لا تحصى يُتمّها الله عليك ولكن ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، فالرؤيا نبوءة لحدث سيقع. ولا شك لو علم الإخوة بالرؤيا لفهموها، ولزاد حسدهم على يوسف وأخيه لأن أباهم شملهما بعطف وحنان زائدين، خاصة بعد رحيل أمهما.

واتجه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له وإتمام نعمته على آل يعقوب. لذلك طلب من يوسف ألاّ يذكر رؤياه أمام إخوته.

ويلاحظ الأبناء شدّة تعلق الأب الكبير في السن بولده يوسف وأخيه بنيامين ورأوا تعلقه بيوسف... فتهامسوا بينهم كما يفعل الأولاد في غياب أبيهم ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨]، وهكذا بذرة الشرّ تبدأ صغيرة ثم تنمو وتكبر، والحسد يفعل الكثير من الحقد والكراهية والبغضاء، وهذا الذي حدث، تشاوروا فيما

بينهم لماذا يؤثر أبونا أخانا؟ ويدخل الشيطان بوساوسه ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ إما القتل، أو طرحه في أرض بعيدة، مقطوعة فيهلك.

إن محبة يوسف تغلغلت في قلب أبينا، ولا حل لهذا إلا أن نقتله، ونمحوا آثاره أو نذهب به بعيداً فندنوا بعدها من قلب أبينا. وبعد ذلك نستغفر الله على ما فعلنا، ونصلح ما أفسدناه برضا والدنا.

فلم يوافق الأكثرون على القتل وخاصة أخوهم الكبير ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: ١٠]، ولعل هذا الاقتراح خفف من غلوائهم فلا يقتلوا يوسف. فإلقاؤه في بئرٍ وما أكثرها على طريق القوافل فيلتقطونه، ويأخذونه بعيداً عنكم.

## ❏ تنفيذ المؤامرة:

اتفق الإخوة العشرة على إلقائه بعيداً في بئرٍ من الآبار التي تستقي منها القوافل المارّة، وصرفوا عن قلوبهم نيّة قتله. المهم هو إبعاده عن وجه أبيهم ليصفو لهم الجو ويصبهم وابل محبة والدهم، وفي الصباح اجتمعوا بأبيهم، وتقدم أحدهم ليتكلم بلسانهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾: فهو أخونا الحبيب، ونحن أبناؤك، وكأنك لا تأمنّا على يوسف، فلا تدعه يذهب معنا فيلعب ويلهو وإنا سنحافظ عليه، ونرفق به، ونفديه بأرواحنا ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾، مؤكدين الحفاظ عليه، وأنه سيصادف المسرّة والنشاط، ولن يصيبه مكروه.

وكما يقال: كاد المريب أن يقول خذوني، والوالد والوالدة أكثر إحساساً وشعوراً بما عسى أن يصيب ابنهما من مكروه، فيزداد الخوف من جهة، والتعلق بالولد من جهة أخرى.

قال أبوهم بارتياب حاول إخفاءه، أنه لا يطيق فراق ولده ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾، وهذا زاد من هياج أحقادهم وضغائنهم، أهكذا إذن... لا تطيق فراقه ونحن نأخذه للمتعة والنشاط، وبدون شعور منه، علّمهُم الحجّة الواهية التي يتحججون بها، والعذر الذي يلجؤون إليه فقال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾، وجاءتهم فكرة سانحة لم تخطر ببالهم، وعذر مشروع، ومقبول عند الضرورة.. أكله الذئب. فردوا عليه جميعاً: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾، لا خير في هذا العدد، ولا نصلح لشيء أبداً إن حدث هذا وأكله الذئب، فاستسلم الأب لتوسلاتهم وإصرارهم، وتلك فرصة لا تفوَّت ـ الذئب ـ وتظاهروا بالحنان يتدفق منهم، وعطفوا عليه أمام نظر والده الخائف.. وانطلق يوسف معهم لا يدري ما يخبئه له القدر، وقصدوا بئراً عرفوه، واستقرّ رأيهم على أن يجعلوه في هذا الجبّ، ويغيب عن ناظرهم. إنها لحظة حرجة، فهو طفل بريء صغير، وهم عشرة أشدّاء... هنا تأتي النفحة الربانية فيلقي الله في روعه أنه سينجو، وسيعيش، وسيواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع، وهم لا يشعرون ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾، وأدخل الله على قلبه السكينة، والاستسلام لمشيئة الله... وكم من بليّة ابتلى الله بها من أحب، فأعقبت نعمة وسلاماً.

## ❑ مواجهة أبيهم:

لقد جرّدوا يوسف من قميصه الذي يلبسه، وذبحوا جدْياً ولطّخوا دمه بالقميص، ورجعوا مساءً من المرعى يتباكون، وأعجبهم حكاية الذئب ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وكأنهم شعروا بانكشاف كذبهم فقالوا لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

أدرك الأب أن ما فعلوه مكيدة، ولم يأكله الذئب... فما ألطف هذا الذئب الذي أكله... لقد جرّده من قميصه ـ فلم يتمزق ولم تعمل فيه أنيابه ـ والدم واضح أنه دم جدي... ولكن ما العمل؟ فما كان من الوالد إلا الصبر، على هذه المكيدة، وأدرك أنهم يلفقون قصة كاذبة ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

## ❑ يوسف في الجبّ:

إن قاع البئر مظلم وقاتل، يبعث على الجزع والألم...، ولو أنه أخطأ في حق إخوته لهان الأمر، أوْ لَو كان هذا العمل صدر من غير إخوته؟ يتلفت يمنة ويسرة فلا يجد إلا الماء الراكد، ويلفه الظلام الدامس، أين أنت أيها الوالد المشفق؟ مَن الذي يسمع بكاءه لو بكى؟ مَن ذا الذي يغيثه لو استغاث... ولكن رحمة الله وعنايته أدركته، فكأن هاتفاً يهتف به من أعماقه: سيجعل الله لك من ضيقك مخرجاً، ومن همومك فرجاً.

## ❑ القافلة:

وألقت قافلة متجهة إلى بلاد مصر عصى الترحال قريباً من البئر وانطلق أحد الأفراد ـ وهو الوارد ـ ليجلب لهم مياهاً للشرب من البئر، وألقى دلوه في البئر، وما أن وصل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام ـ في فتحة مجوّفة فوق الماء، تُحفر عادة للطوارئ ـ حتى تعلّق يوسف بالحبل، إنه حبل النجاة. وأحسّ الوارد بثقل الدلو، فنظر إلى قاع البئر، فإذا بغلام قد تعلق بالدلو، فنادى فرحاً: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ وهرع الرجال نحو الرجل (الوارد) الذي كان قد جهد بإخراج الفتى،

فدهش القوم لما رأوا فتى في ربيع العمر، وجهه كأنه فلقة قمر.

وليتهم إذ عرفوا قصته ردُّوه إلى أهله، أو عاملوه معاملة كريمة فأخفوه كأنه بضاعة مهرّبة، يخشون أن يراها أحد ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ فلم يأذنوا له بمصاحبتهم جهرةً وعياناً، وعاملوه كالرقيق.

انطلقت القافلة وخافوا افتضاح أمرهم، وتمنوا أن يبيعوه بأي ثمن، فما أن وصلوا به إلى سوق الرقيق حتى باعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخۡسٍ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

المهم أن يتخلصوا منه خشية افتضاح أمرهم. وصادف أن عزيز مصر ووزيرها الأكبر، كان في السوق يبحث عن غلام يكون في بيته، حيث لم يولد له ولد، ويخدمهما هذا الغلام.. وأسرع به إلى منزله فرحاً ومستبشراً قائلاً لزوجته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾.

ونِعْم الفتى كان يوسف، فقد تخلص من إخوته وكيدهم، وها هو الآن معزَّزاً مكرَّماً ينهض بحاله جماله الفائق، وروحه اللطيفة، وأخلاقه الكريمة، مما زاد من العناية به.

### ❑ في بيت العزيز:

لقد توسّم العزيز في وجه يوسف كل الخير، وكما جاء في الأثر «ابتغوا الخير عند حِسان الوجوه»[1] فأوصى به زوجته خيراً. وتمكن حبّ يوسف في قلب المرأة وزوجها، ويوسف يزيد في إخلاصه للبيت الذي احتضنه، وخاصة ما رأوا فيه من نزاهة وأمانة، وازدادت ثقة العزيز به حتى أصبح كأنه ابنه ومن أهل بيته.

وتقدمت به السنّ، وبلغ يوسف مبلغ الشباب. وإذا بهذه الفتوّة

(١) ضعيف من /كتاب المسلسلات الجلية/ للمؤلف/.

يأخذ مأخذه من قلب امرأة العزيز، فأخذت تلحظه في حركاته وسكناته وتُشرف بنفسها على طعامه وشرابه، حتى نبت حبّه في قلبها، وأزهر وأثمر، ولكن هل من المعقول أن تراود امرأة العزيز فتاها الذي ربّته شبراً بشبر، وأشرفت على نضجه جسدياً وفكرياً؟ كتمت حبّه في قلبها أياماً وشهوراً، ولكن الحب هو الحب، وهي تراه في كل زاوية من زوايا البيت، وفي كل مكان، فأخذت تغويه وتغريه بمدلول سلوكها وتصرفاتها، عساه أن يفهم مرادها، ولكن يوسف كان منشغلاً عنها بالقيام بخدمتها وخدمة العزيز زوجها، وما كان له أن ينحرف أو يقع في معصية، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، فأعرض عن هذه الإغراءات وكل ما صدر منها.. وكان كل هذا مما يزيد في تأجيج نار الحب في قلب المرأة، وصمّمت على التصريح، وأن تصل إلى مبتغاها، فأعدت للأمر عدته وتزينت بأبهى ما تتزين به المرأة لزوجها، ودعته إلى غرفتها وغلّقت الأبواب وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

فانتقلت من مرحلة المراودة إلى مرحلة التصريح، فقالت: ها قد تهيأت لك، فكان رده على ذلك واضحاً: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾... والاستعاذة بالله تكون حين لا ملجأ ولا مغيث إلا الله... فهو الذي حماه وأغاثه، حينما ألقاه إخوته في غيابة الجب، وهو القادر وحده أن يعصمه ويحميه من طغيان هذه المرأة. فذكّرها بزوجها العزيز الذي أحسن مثواه وأكرمه، ولكن المرأة التي جُرحت كرامتها، وهي تطلب من فتاها طلبها وهو يتأبّى عليها، اندفعت إليه بما لديها من أنوثة طائشة، وفي تلك اللحظة أثار ذلك المشاعر عند يوسف، لولا أن ثبّته الله ورفض كل إغراء. فبرهان الله الساطع المشرق في قلبه، يطفئ كل تحرك عاطفي، وهو يملكه.

## الهرب من الغرفة:

رأى أن الهرب أفضل وسيلة من البقاء في الغرفة التي ربما في حال ضعف قد يستجيب لنداء الغريزة، وهو بشر كالبشر، له غرائزه، ولكنه في حماية الله.

اتجه إلى الباب، وأسرعت خلفه لتمسكه من قميصه وتعيده إليها، وجذبته بشدة مزقت قميصه، واستطاع أن يصل الباب ويفتحه، ويا هول المفاجأة، ما إن فتح الباب حتى ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، كان الموقف يبعث على الريبة ويثير الشك، ماذا يجري؟

وهنا تبدو المرأة بأنوثتها الماكرة، فتتّهم يوسف بأنه لم يرعَ حرمة سيده، وحاول معي ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهكذا اتهمته كذباً وجوراً، وحكمت عليه بالسجن أو العذاب الأليم.

وكان لا بد للفتى أمام هذا الاتهام إلا أن يدفع عن نفسه الاتهام الباطل ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وجذبتني من قميصي فمزّقته، وهذا هو شاهد على قولي.

واستدعى العزيز رجلاً من أقاربها فسمع الحكاية وأصدر حكمه: إن كان القميص مُزّق من جهة الأمام، فذلك من أثر مدافعة المرأة له وحفاظاً على نفسها منه، وإن كان القميص مُزّق من الخلف، فهو دليل على براءته وهي التي لحقت به ومزقت قميصه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧].

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ ظهرت براءة يوسف. فالتفت العزيز إلى امرأته ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٨، ٢٩].

وقال ليوسف البريء: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، ولنكتم الحديث فلا ينتشر بين الناس.

## ❑ انتشار الخبر وكيد النساء:

لقد أبقى العزيز كل شيء على ما كان، لم يعالج الأمر بالطريقة اللائقة لمثل ذلك، وبقي يوسف في مكانه في البيت يغدو ويروح أمام نظر المرأة، وكل ما قاله وفعله أنه طلب من يوسف الإعراض عن الخوض في هذا الأمر، ووجّه لوماً خفياً للمرأة الوالهة ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، و﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

ولم يحلْ بين المرأة والفتى بحواجز، فيصرفه إلى عمل آخر بعيداً عنها، بل سارت الأمور في طريقها، وهذه هي حياة القصور وفيها الخدم والحشم. وعادة تختفي الفضائح وراء الجدران وينتهي أمرها.

ولكن الأمر اختلف هنا، فالفضيحة لاكتها الألسن في المجالس والسهرات والزيارات ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف: ٣٠]، والحكاية تشعّبت وشاعت، وعلمت امرأة العزيز بما يقال عنها في المجالس. ولكن المرأة بدلاً من أن تتوب وتكتم حبها ومشاعرها عمدت إلى التبرير، وهيأت مكيدة حبكتها جيداً، حيث أقامت مأدبة في قصرها جعلت فيها من أصناف الطعام، وأعدّت لهن متكآت ليأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا، على عادة أهل القصور وقتها،

وحاطتهن بهالة من المسرّة والنِعَم، وقدّمت لهن بعد الطعام الفاكهة، وآتت كل واحدة منهن سكيناً حاداً.

إن هذا يدلنا على المستوى الحضاري المادي الذي وصلت إليه مصر في تلك الأيام، قصور عظيمة ذات أبواب كثيرة، وفيها الوسائد والمطارف، والمتكآت والسكاكين للأكل... إنه منتهى الترف الحضاري المادي.

وأثناء انشغالهن بتقطيع وتقشير الفاكهة نادت يوسف وقالت: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

لا بد من طاعة سيدته، فخرج من غرفته محمرّ الوجه من الحياء مما زاده حُسناً ومهابة، ومع وسامته كان وضيء الطلعة، حلو الملامح (أوتي شطر الحُسن) يمشي بقوة وفتوّة شباب، بلا خيلاء وتكبُّر بل بنفس جميلة كريمة، فذهل النساء عما في أيديهن، فقطعت السكاكين الأيدي، وهتفوا قائلين: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

فلما قالت النسوة ذلك أدركت أنها انتصرت لنفسها على نساء طَبَقتِها، وأنهن لقين من حُسن وجمال يوسف من الإعجاب ما لَقِيَتْه. فخرجت عن صمْتها وحيائها ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، وخضتم في حديثي معه فكيف بي وقد شبّ وترعرع في قصري، واستوى على عوده بين سمعي وبصري، وأنا معه في يقظته ومنامه، وطعامه وشرابه، وأخلو به في ليلي ونهاري، ويراني في زينتي، ويرى محاسني فيُعْرض عن كل ذلك، ولا يرفع إليّ طرفاً، ولا يميل بكلمة أو حركة.

وتُصرّح لهنّ أنها راودته عن نفسه، فأبى واستعصم.

فأذللتُ لذلك نفسي وافتضح أمري، ولئن لم يفعلْ لأسجننّه وأذيقه الهوان.. كل ذلك على مسمع من يوسف والنسوة.. إنه الإصرار على المعصية.

وتتبارى النسوة بتقديم النُصح ليوسف أن يرضخ لمطلب سيدته وهنّ مفتونات به، وحبذا لو شاركنها في مبتغاها. قلن ذلك صراحة وبلا خجل.

## ❑ موقف يوسف:

إن الأمر جدّ والمطلب مستحيل، مع فتى تربّى على الإيمان بالله، وسطع نور الهداية في قلبه، فتوجه إلى الله بضراعة يستعيذ به من المعصية والفاحشة. ولقد هدّدته بالسجن إن لم يعصِ الله.. فليكن السجن.. وفي السجن يبتعد عن مسببات الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ فليس بينهن امرأة رشيدة تكبح جماحهن، فهن مشتركات مع سيدة القصر، محاولين استدراجه إلى المعصية.

وأردف قائلاً: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

فإذا لم يعينه الله ويحصن فرجه ربما لحظة ضعف تنتابه يستجب لنداء الغريزة.

واستجاب الله دعاءه... وبدا للعزيز أن يسجن يوسف، فدفع به إلى السجن ليُسكت ألسنة الناس. وهكذا كان السجن للمظلوم رعاية لشعور الظالم.

## ❑ يوسف في السجن:

دخل يوسف السجن مظلوماً. فارتاح ضميره ونجا من الإغراءات والمؤامرات ومما يشاع في القصور، خلف الستائر والأبواب... وماذا في السجن...؟ إنه بين جماعة من اللصوص أو المجرمين أو المتهمين، وقد يكون بينهم جماعة ظلموا واتهموا زوراً وعدواناً. فأخذ يعطف على هذا، ويواسي هذا، وينصح هذا، فأحبه القوم جميعاً، واطمأنوا إليه.

ودخل السجن فتيان من حاشية الملك: ساقيه، ومَن يطبخ له الطعام. وبقيا أياماً في السجن، حيث اتُّهما بمحاولة دسّ السمّ للملك فيموت.

وفي يوم من الأيام أصبحا، وقد رأى كل واحد منهما رؤيا. وكان يوسف قد اشتهر بين المسجونين أنه يؤول الرؤيا وما يراه النائم ويعبّره له.

قال ساقي الملك: لقد رأيتني وكأني في بستان كرم معروش (مسقوف) فيه الخضرة والجمال وبيدي كأس الملك أعصر فيها من العناقيد.

وقال الطاهي: أما أنا فقد رأيت كأني أحمل فوق رأسي سِلالاً فيها أصناف الخبز والطعام، وكأن سرباً من الطير تهوي إلى السلال فتخطف الخبز وتأكل منه.

ويوسف الذي تربّى تربية إيمانية قد آتاه الله قبساً من النبوة فدعاهما إلى التوحيد، ونبذ هذه الأصنام والآلهة التي يتقربون إليها، وأنها لا تضر ولا تنفع.

## ❑ تأويل الرؤيا:

بعد أن نصحهما قال لهما: سأخبركما بتأويل رؤياكما، فإن وقعت كما أقول فذلك برهان صدقي وقولي.

وقال للأول: سيفرج عنك وتخرج من السجن، وتعود إلى سابق عهدك: ساقي الملك، ومقرَّباً إليه، إذ تظهر براءتك.

وقال للآخر: ستثبت التهمة عليك، وستُصلب، وستأكل الطير من رأسك ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

ويوسف يعلم يقيناً صدق تأويله للرؤيا. فقال للساقي الذي قدَّر أن عفو الملك عنه آتٍ لا محالة، قال له: إذا رجعت إلى مقامك في قصر الملك، وأصبحت ساقياً مقرّباً لدى الملك، فاذكر له أن مظوماً متّهماً بذنب لم يرتكبه، موجود في السجن، يعاني من الأغلال في يديه ورجليه ومن وضعه في السجن ظلماً.

وما أوّله وتوقعه حدث. أُفرج عن الساقي، وعاد إلى وظيفته. وثبتت التهمة على الآخر فصُلب.

نسي الساقي أمر السجين يوسف وشأنه، ومرت سنون على ذلك.

## ❑ رؤيا الملك:

وأصبح الملك ذات يوم وقد رأى رؤيا أفزعته، وهبّ من نومه مذعوراً، واستدعى مَن حوله ليسألوا له عن: سبع بقرات سمان رآهن

في منامه يأكلهن سبع عجاف (هزيلات) ورأى سبع سنبلات خضرٍ وأُخر يابسات. فعجز الجميع ومَن عرفوهم عن تعبير رؤيا الملك وتأويلها.

هنا تذكّر ساقي الملك، يوسف الذي أوّل له رؤياه في السجن وصدق تأويله، وأخذ يلوم نفسه كيف نسي يوسف طوال هذه السنين، ولكن لا بأس أيها الملك. إن في السجن فتًى كريماً صائب الفكر ملهَم الرأي يفسر الرؤيا ويؤولها، وهو طيب القلب والمشاعر وصادق فيما يقول، فلو شئت لأذهبن إليه وآتيك بتأويل هذه الرؤيا.

وانطلق ساقي الملك إلى السجن وقابل يوسف، ووجده كما تركه من سنين صابراً محتسباً، مؤمناً بالله قانتاً. وبعد السلام عليه سأل يوسف قائلاً: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: ٤٦].

أيها الصدِّيق: الصادق قولاً وسلوكاً وعملاً، وهذا ما عرفه عنه أثناء السجن ومن تعبيره لرؤياه من قبل.

عرف يوسف تعبير الرؤيا وتأويلها، فأجاب بحكمة بالغة، فيها الداء والدواء، فطلب من الساقي أن يبلغ الملك ما يجب فعله حتى لا تدهمهم الأيام فقال: تستقبلون سبع سنوات خصبة ينبت فيها النبات كأحسن ما يكون، وتكثر فيه الغلاّت وتزكو، فليزرع الزرّاع القمح بجد ودأب وبلا كسل ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

والتخزين له شروط وله مقومات، فالقمح إذا خُزّن في سنابله تكون له حماية ووقاية من السوس.

وأوضح لهم أنه سيأتي عليكم سبع سنوات عجاف، بعدها سوف يجهد بها الناس. فيجد الناس الطعام مخزوناً وموجوداً كما أشرت، وبعد السنوات السبع الشداد، يأتي الخير ويعم الخصب والرخاء ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

## ❑ يوسف في حضرة الملك:

رجع الساقي إلى الملك وقصّ للملك ما قاله يوسف وأن ما أوّله وعبّره واقعاً لا محالة. فازرعوا سبع سنين، وما حصدتم في هذه السنين فاخزنوه في دوركم، مصوناً في سنبله، ليظل سليماً نقياً إلا ما تحتاجونه مما يقيم أودكم، ويحفظ عليكم حياتكم لِتتَّقُوا السَّبْع الشداد، والسنين العجاف.

أعجب الملك بالتعبير للرؤيا، وأدرك أن صاحب التأويل والإرشاد له عقل حصيف، وفكر سديد. فأرسل وراء يوسف ليسمع منه ويستشيره.

حضر رسول الملك إلى السجن ونودي على يوسف وقيل له: إن الملك يدعوك لحضرته ومقابلته، وهو مسرور منك لتعبير الرؤيا ولإرشادك. ولكنه بدلاً من أن يجيب الداعي ويذهب معه لمقابلة الملك، لم يستجب لطلب الملك، ولم يرد أن يخرج من السجن بعفوٍ من الملك فتبقى المنّة في عنقه، ولا يريد أن يتفضّل أحد من البشر عليه إلا من الله العزيز الحكيم.

فقال لرسول الملك: ارجع إلى الملك وسلْه أن يحقق في سبب

سجني ظلماً، وما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن لتظهر براءتي وأني ظُلِمْت. فعندها أغادر هذا السجن بعد إثبات براءتي.

## ❏ خروج يوسف من السجن وإعلان براءته:

ورجع الساقي إلى الملك مباشرة ونقل للملك مقالة يوسف، فاهتم الملك بالأمر، وأمر بإحضار النسوة أمامه وسألهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، والآن يقفن أمام الملك الذي عرف كل شيء.

وكانت امرأة العزيز (زليخا) مع النسوة، ولا يفيد الإنكار في مثل هذه الحالة. فاعترفن بالحقيقة و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، وطفقن يتحدثن عن أمانته وعفّته مُعَرّضين بامرأة العزيز، وهنا ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ ـ زليخا ـ ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ولقد حُبس ظلماً واتُّهم فيما اتُّهم به وهو البريء.

فظهرت براءة يوسف الأمين الذي لم يخن وليّ نعمته، ولم يخن إيمانه الذي تمكن في قلبه، وظهرت براءة امرأة العزيز ـ زليخا ـ أنها لم تخن زوجها بارتكاب الفاحشة، وكل ما في الأمر أنها راودته عن نفسه فاستعصم ولم يستجب لها، فبرأت مما كاد أن يلحق بها لو هو استجاب لها.

## ❏ يوسف عزيز مصر:

لقد أصدر الملك براءة يوسف، وأنه حُبس ظلماً وبهتاناً، وكبر في عينه، وأثار رغبة عند الملك أن يجعله من المقربين.

وهذا جزاء الصابرين المظلومين الذين يكلون أمرهم إلى الله.

يقول ﷺ: «**عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه ـ والله يغفر له ـ حيث أُرسل إليه ليستفتى في الرؤيا، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج. وعجبت من صبره وكرمه ـ والله يغفر له ـ أُتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب، ولكنه أحب أن يكون له العذر**»(١).

وأوضح ﷺ مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة، فقال ﷺ: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم قال: لو لبثتُ في السجن ما لبث ثم جاءني الرسول أجبتُ**» ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾(٢) [يوسف: ٥٠].

فكان يريد إظهار براءته مما نُسِبَ إليه، لأنه واثق من عدالة الملك ومن براءته. وجاءت شهادة زليخا امرأة العزيز بتبرئة يوسف تنزيهاً له مما نُسب إليه، وشهادة ساقي الملك بحُسن سيرة يوسف في السجن وعلمه الغزير وصلاحه، وأخلاقه وسلوكه. كل هذا جعل الملك يرغب بتقريبه وليكون من حاشيته المقربين.. وهكذا كان.

فقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، فصار من أهل ثقة الملك.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم ١١٦٤٠، والسيوطي في تفسيره الدر المنثور ٥٤٨/٤ عن ابن عباس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٣٢/٢ والترمذي في سننه ٣١١٦ والحاكم في المستدرك ٣٤٦/٢ من حديث أبي هريرة. وانظر تفسير الشعراوي (خواطر في سورة يوسف).

وأنت أمين على ذلك.. وهذه فرصة لا تفوّت ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾، فطلب أن يُسند إليه أمر التموين ومخازن الحبوب. قيل: وكان عمره وقتها ثلاثين سنة. فأُعجب الملك بفكرته وسلّطه على أمور الدولة يفعل ما يشاء.

وشاء الله أن يموت عزيز مصر السابق، فيتزوج يوسف زوجته زليخا، فولدت له ولدين (أفرايم ومنشا)[1] قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ و﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

### ❑ إخوة يوسف على بابه:

أصبح يوسف الحاكم المطلق، ووزير الملك المسموع الكلمة، ونافذ السلطة، ارتفع بعناية الله من الجب، إلى غلام رقيق يباع في السوق، إلى سجين، إلى وزير ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

تولى إدارة تموين مصر سبع سنوات، غلّت فيها الأراضي أحسن ما عرف الفلاحون والزرّاع، بنى خلالها ـ يوسف ـ صوامع لتخزين القمح، وملأها بالغلاّت الوافرة، وبكل الخيرات المتوفرة..

وأقبلت بعد هذه السنوات سنوات سبع عجاف، أمحلت الأمطار وقلّ الخير، فلم يتأثر الناس بذلك لأنهم قد أعدُّوا للأمر عدّته حسب الخطة التي رسمها لهم ـ يوسف ـ عليه السلام.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص١٦٦.

وامتد القحط والجدب إلى جوار مصر، ومنها أرض فلسطين، حيث يقيم يعقوب وبنوه. وشاع بين الناس أن بمصر حاكماً ووزيراً للملك ذا نفس كريمة، اختزن الأقوات تحسُّباً لهذا القحط. وعزم يعقوب عليه السلام على أولاده فأرسلهم إلى مصر، ليطلبوا الميرة من قمح وطعام، يجلبونه إلى أهلهم في فلسطين.

ووصلوا مصر ووقفوا على بابه ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾، واستأذنوا عليه، فقال الحاجب ليوسف: إن بالباب عشرة رجال يتشابهون، عليهم أمارات الصلاح، وكأنهم غرباء عن الديار، للهجتهم وحيرتهم. فأذن لهم يوسف عليه السلام ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

ويا هول المفاجأة، إنهم هم لم يتغيروا في معالمهم مع الأيام. إنهم هم الذين تآمروا على قتله، وتظاهروا على إلقائه في الجب، وأذاقوه المذلة والهوان. لقد عرفهم وهم له منكرون، فلم يخطر على بال واحد منهم أنه يوسف الذي ألقوه في الجبّ.

ويوسف أخفى أمره، وحاول أن يصل إلى نفوسهم، ويتعرف على أحوالهم فآواهم، وأكرم وفادتهم، وسألهم عن أحوالهم، فحكوا له حال أبيهم وأحوالهم، وأن لهم أخاً تركوه عند أبيهم ليقوم برعايته. وكان لنا أخ فقدناه صغيراً لا ندري أهو في الأحياء أم الأموات. فطلب منهم تبياناً وشاهداً على صدق قولهم. فقالوا: أيها العزيز إنا في غربة عن بلادنا ولا يعرفنا هنا أحد، فقال: سأجهزكم بجهازكم، وأعطيكم الطعام الذي تطلبون بشرط أن تعودوا بأخيكم هذا الذي تركتموه مع أبيكم ليكون شاهداً عليكم، مصدقاً لأقوالكم، وسأضاعف من إكرامكم، وأزيد حمل بعير في غلّاتكم، فهذا شَرْطي ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾، فلا ميرة لكم عندي ولا كرامة.

قالوا: أيها العزيز، ما نظن أن أبانا يأذن بسفره ويصبر على فراقه و﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾، فنجتهد غاية استطاعتنا في إقناع أبيه، وإنا لقادرون على ذلك.

وأمر غلمانه أن يوفوا لهم الكيل، وأن يدسُّوا لهم في رحالهم وأمتعتهم البضاعة التي حملوها للمقايضة، والفضة التي جاؤوا بها ليبتاعوا حاجياتهم.

ورجعوا إلى بلادهم ويحملون معهم أطيب الذكريات وأحلاها عن رحلتهم الميمونة، وعن شخص العزيز الذي أكرمهم وأكرم وفادتهم.

وأخذوا يصفون لأبيهم اللقاء الميمون مع يوسف ـ وهم لا يعرفونه ـ وكيف أكرم وفادتهم ووفّى لهم الكيل وأنزلهم خير منزل. وكيف استمع لقصتهم، وكيف أخذ عهداً عليهم، بألاّ كيل لهم ولا ميرة حتى يصحبوا معهم أخاهم (بنيامين) ولكن الوالد المفجوع ـ على يوسف ـ هل يسمح ثانية بأن يأخذوا معهم أخا يوسف لأمه فقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فانصرفوا عني ولن أرسله معكم، فالتجربة لا زالت أمامي لا تُنسى. وفتحوا أمتعتهم وتفحّصوا رحالهم، وإذا بضاعتهم قد رُدّت إليهم، والفضة كما هي قد أعيدت. فهرعوا إلى أبيهم يزفّونه البشرى، وتحدّثوا من جديد إلى أبيهم: يا أبانا أرسل أخانا معنا وهذه بضاعتنا ردت إلينا شاهدة على كرم عزيز مصر ومروءته، وسنحفظ أخانا ونفديه بأرواحنا.

أدرك يعقوب عليه السلام أنه لا بد من عودتهم إلى مصر للميرة وجلب الطعام، وأن الشرط لعودتهم إحضار أخيهم، فأخذ عليهم

عهد الله وميثاقه أن يرجعوا به سليماً معافى، إلا أن يحاط بهم قَدَر من الله لا يقدرون دفعه، فعاهدوه ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وانطلقت القافلة إلى مصر واتجهوا إلى قصر يوسف ـ عزيز مصر ـ ودخلوا عليه فأحسن ضيافتهم، وبالغ في إكرامهم، وبشكل لم يلحظه أحد منهم، تفرّد بأخيه بنيامين، وإذا بالأخ بنيامين يبكي قائلاً: لو كان أخي يوسف حياً لكان معي في هذه الساعة، فقال له يوسف: أنا أخوك الذي تنشده، ولكن اكتم ذلك، واجعله سرًا بيني وبينك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وانقضت أيام الضيافة، وحان وقت الرحيل. فأمر يوسف غلمانه بأن يجهزوهم بجهازهم، وأن يدسُّوا الصُّواع ـ وعاء الكيل ـ في رحل أخيه بنيامين، دون علم منهم.

واستعد إخوة يوسف للرحيل، وركبوا جِمالهم متهيئين للانطلاق إذا بصوت ينادي عالياً: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فأنيخوا الجِمال لنرى.

وأقبل إخوة يوسف على المنادي صاحب الصوت ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾، والجند كثيرون أحاطوا بالقافلة، والإخوة يقولون: بماذا تتهموننا؟ ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾.

لقد ضاعت سقاية الملك ـ صواعه ـ يشرب بها ويكيل بها، ولا شك أنها من معدن ثمين كالذهب. ووعد صاحب الشرطة جعالة لمن رده ـ مكافأة له ـ وضمن ذلك رئيسهم لمَن يُخرجه ويُحضره قبل التفتيش.

فبادر إخوة يوسف إلى إنكار السرقة، فلم يأتوا بغرض الإفساد أو السرقة، ولم يسبق لأحدهم أن اتهم بمثل ذلك.

وقال كبير المنادين: ما حكمكم لو وجدنا صواع الملك في رحالكم؟ فأجابوا: إن شرعنا وديننا ينهانا عن السرقة. فمَن وجدتموه في رحله فخذوه أسيراً عندكم، تستعبدونه ويصبح رقيقاً لكم. ونحن على يقين من براءتنا وطهارتنا. ورضي الجميع بذلك وابتدأ البحث والتفتيش ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

لقد حكموا على أنفسهم، ورضي الجميع بذلك بما فيهم يوسف عليه السلام، فبدأ بتفتيش أوعيتهم ورحالهم حتى انتهى إلى أخيه بنيامين. فإذا بالسقاية ـ الصواع ـ في رحله. فاستخرجها أمامهم فذهلوا ودهشوا، وأطرقوا حياءً وخجلاً. وبدلاً من أن يتوسلوا إليه ويسترحموه رجعوا إلى غيّهم وضلالهم ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، يريدون يوسف عليه السلام ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، قال يوسف عليكم بالشرط. والشرط أملك. فانجوا بأنفسكم ودعوا لنا هذا الذي وجدنا متاعنا عنده، فنتحكم فيه ومنه نأخذ الحق.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فقد أحسنت إلينا وأعطيتنا، فلو تكرمت لو أخذت أياً منا مكانه وبدله ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾، فلا يؤخذ أحد بجريرة أحد، وإلا فهو الظلم الأكيد.

ولما قطعوا الأمل ويئسوا من طلب الإفراج عن بنيامين خلصوا

إلى أنفسهم يتشاورون ويتناجون. قال كبيرهم - يهوذا - ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهداً واستحلفكم بالأيمان بأن ترجعوا بأخيكم، وأن تبرُّوا له بأيمانكم فماذا نقول لأبينا؟

إن جرح أبيكم في يوسف لا زال لم يندمل، وإن دموعه تنسكب عبرات عليه في كل مناسبة ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨١، ٨٢].

ووصل الإخوة التسعة إلى أبيهم، وسأل يعقوب عن بنيامين فلم يجده معهم، فقال بصوت حزين أجش: أين أيمانكم؟ ما صنعتم بأخيكم؟ فقصُّوا عليه قصتهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

### ❑ اللقاء:

لقد تتابعت الهموم والأحزان على نبيّ الله يعقوب، فمنذ سنين فُقِد يوسف بدعوى أن الذئب قد أكله. والآن تقولون إن أخاه بنيامين قد سرق ومعاذ الله أن يسرق، وما هي بسجاياه ولا أخلاقه، ولكنها مشيئة الله وهناك أمل مشرق في قلبه يهتف به أن اللقاء مع ولديه آتٍ وقريب، وخاصة تلك الرؤيا التي رآها يوسف، أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين. فأوّلها يعقوب بإخوته الأحد عشر

وأبويه يعقوب وزوجته. ولا بد مَن أن يأتي يوم تتحقق فيه الرؤيا ولكن متى وكيف؟ لذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾، وانزوى عن أولاده وأعرض عنهم، وطاب له الوحدة والخلوة ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، لقد توقدت جمرة فراق يوسف من جديد، وخاصة أن بنيامين يشبهه فكان يجد فيه العزاء عن فراق يوسف، ولكن أن يفتقد الاثنان فهذا خطب عظيم ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، فلقد بكى طويلاً وزاد حنينه وبكاؤه فأشفق الأولاد على أبيهم، فطالبوه بالتحلِّي بالصبر، وأن يرفق بنفسه، فإن بقي على هذه الحال فسيكون من الهالكين ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ - مريضاً - ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾... فتوجه إلى الله بحرقة الأب المفجوع إلى الله الذي لا تنضب خزائن رحمته ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾، وسيجمعني الله بهما واللقاء قريب.

يا أبنائي، اضربوا في الأرض، واسألوا عن يوسف وأخيه، إنهما أحياء وسأراهم مثل ما أراكم الآن ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾، فلا تيأسوا واعتصموا بالله فالفرج آت لا محالة.

فأدرك إخوة يوسف صدق كلام أبيهم، فهم الذين ألقوا يوسف في الجب، وتركوه يصارع الوحشة والموت، فما يمنع خروجه من الجب ونجاته؟ ولكن أين هو: لِمَ لا نرجع إلى عزيز مصر وأخونا قطعاً عنده، فيتوسلون إليه لعله يساعدهم في البحث عن يوسف أو على الأقل يرجعون بأخيهم بنيامين، فتخف اللوعة، ويجد أبوهم بعض العزاء برجوعه.

وسافروا إلى مصر ثانية، وكلهم أمل أن لا يخيّب العزيز رجاءهم، وتحجّجوا بحجة حاجتهم إلى الطعام. وليس معهم إلا بضاعة رديئة ودراهم زائفة لا تروج في السوق. ويمّموا وجهتهم العزيز الذي أنسوا منه في الماضي، الكرم وحسن الخلق والتسامح ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: ٨٨].

وقفوا أمامه بذلّة وانكسار، متضرعين إليه، عسى أن يشفق عليهم وبعدها يطلبون منه إطلاق سراح أخيهم. وتوسّلوا له بكلمات تثير الشفقة ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ فتصدّق علينا، والله يجزيك خير الجزاء.

### ❑ المصارحة واللقاء الأول:

لقد أصاب توجُّع الإخوة شغاف قلب يوسف، وعرف أنه قد آن الأوان ليكشف لهم حقيقته. فنظر إليهم وتبسّم و﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

ونسب فعلتهم الشنعاء إلى الجهالة. فاندفعوا قائلين: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾، فاعترفوا لذنبهم ولمِنّة الله على يوسف وإنه يستحق كل أنواع التكريم ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾، قالوا ذلك وتمنوا لو أن الأرض انشقت وابتلعتهم، أو نزل بهم ما يُصعقهم ويميتهم.. ولقد كان يوسف أكرم نفساً من أن يطيل خوفهم أو أن *يركن ببالهم أنه سيعاقبهم على ما فعلوه.*

قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا بقميصي هذا وضعوه على عينَيْ والدنا حيث ابيضّت عيناه من كثرة بكائه وحزنه على ابنه يوسف. فيذهب ما بهما من بياض ويرتد بصيراً كأحسن ما يكون. ثم ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وشعر نبيّ الله يعقوب بشعور خاص قبل وصول العير والقافلة ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، لقد شعر بارتياح عجيب وانشراح صدر في أعماقه لم يجده من قبل، وما وَهِمَ يعقوب ولا كان مخطئاً فقد وصلت القافلة وجاءته البشرى تحمل قميص يوسف وردّ الله تعالى على يعقوب نعمة البصر والسعادة.

وقصُّوا على أبيهم ما حدث معهم، وطلبوا منه العفو والمسامحة واعترفوا بفداحة عملهم وخطئهم ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾، وقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾؛ لأن طلب المغفرة، لمثل هذه الأعمال، محلها ووقتها السَّحر آخر الليل ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وخاصة ليلة الجمعة كما جاء في الأثر[1] خاصة وأن ما قاموا به من عمل لا يذهب هكذا بكلمة تقال. فلا بد من صفاء القلب أولاً، وإخلاص الدعاء ثانياً، واختيار الوقت المناسب للدعاء ثالثاً... وأفضله عند السحر آخر الليل.

وانطلق الجميع بصحبة الأب يعقوب (إسرائيل) عليه السلام ميمّمين شطر مصر حيث يوسف عليه السلام. ووصلت أنباء المسيرة إلى مسامع يوسف وكان عدد أفرادهم حينما قدموا ثلاثة وستين ما بين رجل وامرأة، وقيل كانوا ثلاثة وثمانين... وقيل غير ذلك.

---

(١) ابن كثير والطبري ٣٦١/١.

وعلى مقربة من مكان إقامة السلطة في أرض جاشر (بلبيس) وصلت الأنباء إلى يوسف... فخرج لتلقي أبيه يعقوب - إسرائيل - عليه السلام، ويقال أن الملك وجنوده خرجوا أيضاً لاستقبال يعقوب إكراماً ليوسف عليهما السلام.

وأمام هذا الحشد الهائل، رفع يوسف أبويه على العرش - والأم والخالة - بمقام واحد لأن أمه قد ماتت ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وبعد ذلك اتجه يوسف إلى الله القدير، الذي تولاه بعنايته وقدرته وحكمه، معترفاً بعظيم فضله وإحسانه وما أولاه وأعطاه، طالباً من المولى عزَّ وجلَّ أن يتوفاه على الإيمان والإسلام وأن يُلحقه بالصالحين فقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

وعاش بنو إسرائيل (يعقوب) بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة حيث أعطاهم الملك أرضاً خصبة ليعمروها، ويستفيدوا من خيراتها ويعقوب يرشدهم ويعلّمهم ويبلغهم رسالة ربه، وبعد السبع عشرة سنة مات يعقوب (إسرائيل) عليه السلام عن عمر يقارب المائة وأربعين سنة، وأوصى أن يُدفن بالمغارة في فلسطين (الخليل) عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم عليهم السلام.

ومن وصيته لبنيه: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ

قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣]، على دين الإسلام والتوحيد لرب العالمين.

ودُفن عليه السلام في (حبرون) كما أوصى، حيث نقل جثمانه ابنه يوسف ودفنه هناك. وعاد يوسف بعدها إلى مصر.. ولما حضرت يوسف الوفاة أوصى بأن يُدفن مع أبيه وجده الأكبر في (حبرون) الخليل. فخرج به موسى عليه السلام بعد أن كان محنّطاً بتابوت وهو ابن مائة سنة وعشر سنين، وقيل عاش بعد لقائه بأبيه ثلاثاً وعشرين سنة.. وقيل مات وهو ابن مائة وعشرين سنة والله أعلم.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

❋ ❋ ❋

## عصمة يوسف وشبهته

### يوسف عليه السلام:

ما يظنه البعض من أن يوسف عليه السلام كاد أن يستجيب لمراودة امرأة العزيز، وهَمَّ بالسوء فسمع صوت أبيه إنما رأى صورته... فهذا منتهى الخطأ والضلال. ففي القصة اعتصامه بالله من أول ما ألقت على مسامعه المراودة حيث قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فيقول: معاذ الله أن أسيء إلى مَن أحسن إليّ، إنه الظلم ولا

يُفلح الظالمون. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، فليس (الهَمّ من يوسف) بالاستجابة لها ومطاوعتها بل همُّه بدفع السوء عن نفسه، مع أن (الهمَّ منه) من طبيعته البشرية الذي تربّى على الأخلاق والفضيلة والهمَّ: حديث النفس فمَن فعله وكان حسناً كتبت له عشراً وإلا فحسنة واحدة عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. ومَن هَمَّ بحسنة فعملها كُتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف. ومَن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب وإن عملها كُتبت**».

ونعود إلى النص القرآني فنجد عزيمة وقصداً من امرأة العزيز بالمعصية، وعزماً وهمّة من يوسف بالامتناع، وواضح هذا من أول العرض للقصة حينما قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فكان جوابه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، فهناك برهان من ربه، وإيمان قوي، وعقيدة راسخة، تمنعه من القيام بالمعصية والفاحشة.

ومن هنا عبّر القرآن بكلمة ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾، فحرف لولا: حرف امتناع لوجود.

فامتنعت المعصية وألهم بالامتناع منها، لوجود العقيدة والإيمان. وعبّر القرآن بكلمة: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾؛ ليوضح لنا أن امتناعه عن المعصية ليس لأنه عنين أو (مخصي) فلا يقدر على مقاربتها، فهو كامل الرجولة وعنده مقومات الهَمِّ بالمرأة. فامتنع للبرهان الإلٰهي الساطع في قلبه وانظر إلى تمام القصة ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، ثم نرى يوسف عليه السلام يلجأ إلى الله خوفاً على نفسه ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾، حتى إنه قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا

يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ﴾، ثم بعدها: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وكان النص القرآني قد أثبت له الرشد والعلم وأنه من المحسنين: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

* * *

## موسى بن عمران عليه السلام (كليم الله)



هو موسى بن عمران بن يصهر، وينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ولد في زمن الطاغية فرعون، واسمه (الوليد بن مصعب). وفرعون لقب لكل من مَلَكَ مصر من الجبابرة، كما أن كسرى لقب، لكل من ملك بلاد الفُرس، وقيصر لكل من ملك بلاد الروم.

عمر فرعون لمدة تزيد عن (٤٠٠) عام في بني إسرائيل يسومهم الذل والهوان والأعمال الشاقة، ورأى مناماً فيه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى وصلت إلى مصر، فأحرقت كل البيوت، إلا بيوت بني إسرائيل، فأولها له المنجمون بأنه سيولد في بني إسرائيل، غلام سيهلك ملك فرعون، ويخرج بني إسرائيل من مصر، فأمر فرعون أن يقتل كل غلام من بني إسرائيل، موجود في وقته، وكل من يولد من بعد، ويترك الإناث ثم خاف أن ينقطع النسل وتصبح الخدمة على قوم آل فرعون فأمر أن يقتل الغلمان سنة ويتركوا سنة.

ولد هارون في السنة التي لا يذبح بها أحد. أما موسى فولد في السنة التي يذبح بها، بعد هارون بثلاث سنين، فأوحى الله لأمه أن تضعه في تابوت وتلقيه في البحر، وأمرت أخته أن تتبعه فالتقطته جواري آسية بنت مزاحم زوجة فرعون، فأحبّته وطلبت من فرعون أن تتخذ موسى ولداً لأنها كانت لا تلد، فوافق فرعون، وعاش موسى في

كنف فرعون عيشة أبناء الملوك. وهنا سنعرض وقفات سريعة من حياة سيدنا موسى عليه السلام:

- رضاعة موسى وعودته إلى أمه سالماً.

- لما شَدَّ موسى - وكان صغيراً - لِحْيَة فرعون وجذبه إلى الأرض ثم قدّموا له الجمر واللبن، ليتبينوا إدراكه، فاختار الجَمْرة ووضعها في فمه، بتعليم من جبريل عليه السلام.

- موسى يرى رجلاً قبطياً وآخر من بني إسرائيل، يقتتلان فوكز القبطي فقضى عليه.

- فرعون يعلم بالأمر وينوي قتل موسى، فيخبره رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه (حزقيل) وينصحه بالهرب.

- موسى يهرب إلى مَدْين، ماشياً على قدميه مسيرة ثمان ليال.

- موسى يبصر الرعاة يسقون أغنامهم من البئر، وفتاتين تنتظران فضلة السقاء، فسقى لهما، ورفع الصخرة التي على فم البئر لوحده وتحتاج إلى عشرة رجال.

- شعيب والد الفتاتين يطلب من موسى أن يزوجه إحدى البنتين مقابل أن يرعى الغنم ٨ أو ١٠ سنين فوافق موسى وعمل ١٠ سنين.

- عاد موسى إلى قومه بعد مضى ١٠ سنوات وفي الطريق وفي ليلةِ مظلمة، يرى نوراً بجانب جبل الطور، وسمع خطاب الله، يأمره بخلع نعليه، ويطلب منه الذهاب إلى فرعون ليدعوه إلى الله، وأيده بآية العصا التي تتحول إلى ثعبان، واليد التي تصبح بيضاء كنور الشمس.

- موسى يطلب من ربه أن يبعث معه أخاه هارون ويجيبه ربه لذلك ويجعله وزيراً له.

- موسى يدخل على الطاغية فرعون، ويدعوه لرب العالمين، وأن

يرسل معه بني إسرائيل، وفرعون يستهزئ به، فيعرض موسى آية العصا واليد، وفرعون وأتباعه يتهموه بالسحر.

ـ فرعون يجمع السحرة لملاقاة موسى، ويعدهم بالمكافأة العظيمة إن هم غلبوا موسى ويجتمع الناس لمتابعة المعركة، وتكون الغلبة الكبرى لموسى فيسجد السحرة لله رب العالمين، فيغضب فرعون ويتهمهم بموالاة موسى لإخراج بني إسرائيل، فيصلبهم وينالوا الشهادة.

ـ فرعون يواصل كفره وعناده، وتنكيله ببني إسرائيل، ويرفض أن يدعهم يخرجوا مع موسى إلى الأرض المقدسة، فجاءهم العذاب من رب العالمين تباعاً، فكانوا كلما نزل بهم آية من آيات الله، ولون من ألوان العذاب جاؤوا إلى موسى وسألوه أن يدعوا ربه ليرفع عنهم العذاب، ويعدوه بأن يطلقوا بني إسرائيل، فلما يكشف الله عنهم العذاب يغدروا ويعاودوا طغيانهم، وهذه الآيات التسع هي:

القحط والجدب، النقص من الثمرات، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، العصا، اليد.

ـ أوحى الله إلى موسى أن يخرج بقومه ليلاً ويقصد الأرض المقدسة، ومعه أكثر من ٦٠٠ ألف مقاتل غير ذراريهم، فلحق بهم فرعون في الصباح، في جيش يزيد قوامه على مليون وستمائة ألف جندي وأدركوهم على خليج السويس في البحر الأحمر، وهناك ألقى موسى العصا فانفلق البحر، ونجا موسى ومَن معه إلى الضفة الأخرى وساروا على اليابسة، بعد أن انفلق البحر عن جبلين من الماء وممر يابس بينهما، وما أن عبر آخر واحد من بني إسرائيل حتى أراد موسى أن يضرب بعصاه ثانية ليرجع البحر كما كان، فأوحى الله إليه أن انتظر قليلاً، فلما وصل فرعون إلى البحر خاف أن يمشي بين جبلَيْ الماء فجاء ملك وأمسك بخطام الفرس ووجّهه اتجاه الممر، فأظهر فرعون الشجاعة، ومضى مع

جنده حيث أغرقهم الله أجمعين، وأبقى على جثة فرعون لتكون آية للعالمين، وهي موجودة الآن في المتحف الوطني في مصر.

- بعد نجاة بني إسرائيل من فرعون، طلبوا من موسى أن يصنع لهم إلٰهاً يعبدوه عندما رأوا قوماً يعبدون شجرة، فانظر إلى نكرانهم لجميل الله، بتخليصه لهم من الذل والهوان، والقتل الذي كان يسومهم فرعون فيه أسوأ العذاب.

- طلب قوم موسى منه أن يشربوا، فضرب الحجر بأمر الله، فانفجر باثني عشر ينبوعاً، بعدد قبائلهم (أسباطهم) فكل قبيلة تشرب من النّبع الخاص بها، ثم أنزل الله لهم المن والسلوى، من أطايب اللحوم فطلبوا من موسى أن يسأل ربه، فينزل لهم البصل والعدس والثوم والبقل التي كانوا يأكلوها على أيام فرعون!!

- موسى يذهب لملاقاة ربه أربعين ليلة، ويطلب رؤية الله فأكد له رب العزة أنه لا يستطيع ذلك في الدنيا، ويتجلى الله للجبل ويخرّ موسى صعقاً، ثم يفيق ويستغفر الله، ويعتذر عن طلبه، ويُنزل الله عليه التوراة وفيها شريعة الله لبني إسرائيل.

- بنو إسرائيل يعبدون العجل في غياب سيدنا موسى عندما زيّن لهم السامري وصنع لهم من الحلي التي سرقوها من قوم فرعون عِجْلاً من ذهب، وألقى في جوفه عشباً من أثر سيدنا جبريل ـ الذي كان يحثهم على الهرب والإسراع في الرحيل ـ فصار عندما يدخل الهواء في جوف العجل يعطي صوتاً، فسجدوا للعجل، ولم يسمعوا لكلام هارون الذي نهاهم.

- عناد بني إسرائيل ورفضهم تحمل الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، فرفع الله الجبل فوق رؤوسهم، فسجدوا لئلا يقع عليهم.

- ثم طلب منهم موسى أن يقاتلوا قوماً من الجبارين (من

الكنعانيين) ويجلوهم عن الأرض المقدسة، فأبوا لجبنهم عن الجهاد وهوانهم فألقاهم الله في التيه، وضيّعهم في الصحراء أربعين سنة ومات في سنوات التيه سيدنا موسى وهارون عليهما السلام واستطاعوا أن يدخلوا الأرض المقدسة، مجاهدين ومقاتلين على يد نبيّ من أنبيائهم يُدْعى يوشع بن نون.

- قصة موسى مع الخضر، وما فيها من تعليم لنا بالتواضع والصبر.

- قصة موسى حيث وقع حادث قتلٍ في عهده، ولم يعرف القاتل، فسأل موسى عليه السلام ربه، فأمره أن يذبح بقرة ليعرف مَن القاتل، وكثرة أسئلة بني إسرائيل، وتشديدهم على أنفسهم.

- قصة موسى مع قارون، وكيف افترى قارون الجبار على موسى بمساعدة إحدى المومسات، فخسف الله به وبداره الأرض.

- قصة أصحاب السبت، يوم أن عصوا وصادوا السمك وخالفوا الأوامر.

- افتراء بنو إسرائيل على موسى بأنه كان مجبوباً وتبرئة الله له بالحجر.

- أمر الله بني إسرائيل أن يدخلوا بيت المقدس من باب يقال له: (باب حِطة)، سجَّداً وذلك شكراً لله على دخولهم الأرض المقدسة ويقولوا: حطة فلم يدخلوا ساجدين، وقالوا حنطة بدل حطة، فانظر إلى كفرهم وعنادهم.

- توفي موسى عن عمر ١٢٠ عاماً وعندما جاءه ملك الموت ليقبض روحه ضربه موسى ففقأ عينه! فلما اشتكى الملك لرب العزة قال: قل له أن يضع يده على جلد ثور، وله بكل شعرة سنة، فقال موسى: ثم ماذا؟ قال: الملك ثم الموت، فقال: إذن الآن.

- نلاحظ أن القرآن الكريم أكثر من ذكر قصص بني إسرائيل

وذلك ليأخذ الإنسان عبرة من حياتهم التي تقابل النعمة بالجحود، فبعد أن نجّاهم الله من فرعون، عبدوا العجل، ورفضوا القتال، وتنكروا لدعوة نبيهم، وقتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، وعاثوا في الأرض فساداً، فغضب الله عليهم ولعنهم إلى يوم الدين.

وسنعرض بعد هذه اللقطات والوقفات قصة نبيّ الله موسى بالتفصيل لأن قصة موسى عليه السلام أخذت حيّزاً كبيراً من قصص القرآن وسوَره وآياته.

## ❑ موسى عليه السلام[1]:

إن قصة موسى عليه السلام أكبر القصص في القرآن الكريم، يذكّرنا القرآن بها دائماً وفي كثير من السور؛ لأن أحداثها تعالج قصة قوم هم أسوأ البشر في التاريخ الإنساني، لذا تكررت بعض أحداث القصة، في أكثر من سورة، ولكن تمّ طرحها بشكل آخر.

فمثلاً في سورة القصص يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

بينما جاء في سورة طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [٣٨، ٣٩].

---

(١) وردت قصة موسى وهارون في عدد من سوَر القرآن الكريم إجمالاً أو تفصيلاً، وذلك في: القصص (٣ ـ ٢٥) وفي سورة طه (٣٧ ـ ٧٦) وفي الشعراء (١٨ ـ ٦٨) وفي الأعراف (١٢٥ ـ ١٦٣) وفي يونس (٨٢ ـ ٨٩) وفي الإسراء وهود وإبراهيم وغيرها.

ففي كل آية معلومة، بحيث لو جمعنا كل الآيات نجد أمامنا قصة كاملة متكاملة.

وقصة موسى عليه السلام أكبر القصص في القرآن الكريم، لأن أحداثها تعالج أحداثاً وأموراً كثيرة كالظلم والطغيان: طغيان المُلك والجاه، طغيان المال والثراء. وتعالج وجوب اتباع أمر الله وشرعه، ففي مخالفة أمر الله ورسله: الذل والغضب والتشريد والحرمان، كما حدث لبني إسرائيل الذين استمرأوا حياة الذل والهوان، وتعشش في قلوبهم الانحراف عن أمر الله، فكفروا بأنعم الله، وعبدوا العجل الذي صنعوه بأيديهم.

لقد وردت قصة موسى عليه السلام في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن الكريم، وفي كل سورة تتناول طرفاً من قصة حياته، بدءاً من سورة القصص التي تحدثت عن الظروف القاسية التي ولد فيها موسى عليه السلام، وتجرُّده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة، وضعف قومه واستذلالهم من قِبَل الطاغية فرعون.

ولكن عناية الله ورعايته أحاطت بالوليد.

## ❑ ولادة موسى:

ولد موسى في ظل ظروف قاسية، والخطر محدق به، فالموت يترقبه بحَزّ عنقه. وموسى من بني إسرائيل الذين وفدوا مصر، وأقاموا فيها في عهد يوسف عليه السلام الذي استقدم أباه يعقوب ـ إسرائيل ـ وذريته وأهله جميعاً، فأسكنهم الملك أرضاً خصبة وأنعم عليهم.. فتكاثروا وزادت ثرواتهم وغلاّتهم، وهم مهَرة في كل شيء: في رعي الماشية وفي الزراعة وفي الصناعة.. مما أثار حفيظة الملك الجديد (فرعون) وحاشيته، وزاد الأمر سوءاً ما قاله الكاهن للملك فرعون:

«يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده» فثارت ثائرته، فأصدر أوامره بأن يذبح كل مولود ذكر في بني إسرائيل، واستبقى البنات، وأخذت القابلات المتخصصات بتوليد النساء يحصين الحوامل، ويراقبن المواليد.

ولد موسى في ظلّ تلك الأوضاع القاسية، وخافت أمّه عليه من أن يصل نبؤه إلى الجلاّدين، وتتناول عنقَه السكين، وهي عاجزة عن حمايته، أو عن إخفائه وحَجْز صوتِهْ الفطري.. وهنا تتدخل القدرة الإلٰهية ويلقي الله في روعها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧].

## ❑ موسى في قصر فرعون:

هيّأت الأم صندوقاً، ووضعت الطفل فيه بعد إرضاعه، ثم ألقت بالصندوق في نهر النيل، ومشت به مياه بحر النيل، تنساب به مع مياهه المتدفقة.

طلبت أم موسى (يوكابد: من ابنتها ـ أخت موسى ـ أن تمشي على ضفاف نهر النيل، مسايرة الصندوق الذي وضع فيه أخوها الرضيع ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ﴾ ـ أي: تتبّعي أثره ـ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

ووصل الصندوق طافياً على سطح الماء، إلى قريب من قصر الملك فرعون، حيث كانت زوجة الملك فرعون مع وصيفاتها يجلسن على شرفة القصر، فأبصرن الصندوق. فأمرت زوجة الملك بإحضاره.

وكم كانت دهشتها، حينما فُتِح الصندوق ورأين الولد (الطفل الذكر).

هنا تتدخل القدرة الإلٰهية.. إن فرعون يتتبع المواليد الذكور من بني إسرائيل، خوفاً على مُلكه وعرشه، ويبث العيون والجواسيس على قوم بني إسرائيل، حتى لا يفلت منهم وليد ذكر.

ها هو الطفل الذي يكون هلاكه على يده يقع في يده بلا بحث أو تعب. والطفل ليس معه حماية أو قوة تدافع عنه، سوى قدرة الله وحده. فتقول امرأة فرعون: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: ٩].

حمته امرأة فرعون بلا سلاح ولا جاه أو مال، حمته بالحب والحنان متحدِّية قسوة فرعون وغلظته.

وبعد التقاطه ومحبته أخذوا يبحثون عن ظئرٍ ترضعه ـ وحرم الله عليه المراضع ـ ورفض كل ثدي مرضع.. وهنا تهتف أخته التي اندست بين النساء: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فاستبشروا بكلماتها، والتقم الطفل ثدي ـ أمه ـ معافى في بدنه، يحميه فرعون وترعاه امرأته.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣].

وشبّ الفتى وكبر وبلغ أشده ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

فنشأ قوي الجسم واكتمل نضوجه العضوي والعقلي، وعرف عن طريق أمه، أهل قومه وديانته، وكيف يعامل فرعون الطاغية قومه المعاملة البشعة والهوان.

## ❑ الخروج من مصر:

وذات يوم صادف في طريقه رجلين يقتتلان: عِبْري (إسرائيلي)

من شيعته، والآخر من حاشية فرعون ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، ندم موسى على قتله وقال: هذا من عمل الشيطان وغوايته، واستغفر الله على ما فعل، فغفر الله له ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٥، ١٦]، وموسى عليه السلام حينما ضرب القبطي بقبضة يده، لم يقصد قتل الرجل.

ومرّ اليوم وهو خائف من انكشاف أمره، وقلقٌ من أن يصل الخبر إلى فرعون، وفي اليوم التالي بينما هو في هذا القلق والخوف ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾، إنه الإسرائيلي الذي طلب منه بالأمس نصرته على القبطي مشتبكاً مع قبطي آخر. فاستصرخ موسى لينصره لعله يقضي على عدوهما المشترك بوكزةٍ أخرى قاضية.

انفعل موسى من الرجل الإسرائيلي، ولا يزال قتيل الأمس في مخيّلته، وقد ندم واستغفر الله على ذلك.

ولكن النفس البشرية عاودت موسى، فاندفع يريد أن يقضي على القبطي.. ولكن الإسرائيلي ظنّ أن موسى يريد قتله هو أيضاً لما رآه من تغيُّظ موسى وانفعاله، فهتف صارخاً: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩].

وما أن سمع القبطي هذا حتى انطلق إلى حاشية فرعون وكانوا في حيرة من أمر قتيل الأمس وهم لا يعرفون قاتله فأخبرهم أن موسى هو القاتل. فتجمهر الناس وتألّبوا على موسى وانطلقوا يبحثون عنه ليقتلوه ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠].

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١].

وهكذا خرج موسى عليه السلام من مصر خائفاً متجهاً شرقاً إلى حيث يشاء الله.

## ❑ موسى في مَدْين:

وسار موسى ثماني ليالٍ وصل بعدها إلى (مدين).

لا شك أنها رحلة شاقة مشى فيها موسى مسافات شاسعة لا زاد معه ولا رفيق. ولكنه مستسلم لمشيئة الله قائلاً: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، ويظن نفسه أنه مطارَد من قوى الأرض، ومن فرعون وجنده، ولكن أليس الله هو الذي رعاه وحماه صغيراً فلمَ الخوف؟

ووصل ماء (مدين) فوجد جماعة من الرعاة قد تزاحموا على (البئر)، ومن دونهم امرأتان تفصلان أغنامهما، وتمنعان الغنم عن ورود الماء، فتقدم نحو المرأتين فسألهما: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، فلا نزاحم الرجال في سقيا الغنم وأبونا كبير في السن، لا يقدر أن يأتي ليسقي غنمه، فننتظر صدور الرعاة وذهابهم. فأخذته الحميَّة لضعفهما، وسقى لهما أغنامهما، ورجع إلى ظل شجرة يستظل تحتها، ودعا الله قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

ولم يطل به المقام بعد المناجاة والاسترحام من رب العالمين، فهو الفقير إلى رحمة الله وكرمه.

أرسل الشيخ والد الفتاتين دعوة لموسى ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

إنها الفتاة النبيلة الطاهرة، العفيفة النظيفة، جاءته غير متبرجة أو مُتَبَذِّلة، وبلا إغواء وتدلُّل، مختصرة الكلام في أقصر لفظ وأخصره وبحياء واستقامة ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

تبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها استجابة لدعوته، فآنس من الشيخ صدراً رحباً وطعاماً وأمناً قائلاً: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وذلك بعد أن حدّثه سيرته، وما كان منه وهربه.

ولما كان رعي الغنم، والمزاحمة على الماء، والاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاول أعمال الرجال، تتأذى المرأة من هذا كله، ومطلب المرأة أن لا تحتك بالرجال في الرعي والسقاء، بل الستر والعفة ونظافة القلب وطهارته، وهذا رجل يقدر على أن يقوم بهذا العمل، عفيف النظر، نظيف الحس، وبلا تكلُّف ولا اصطناع، وهو غريب الديار، عفيف اللسان، وأميناً، وقوياً. فأشارت الفتاة على أبيها باستئجاره، ليكفيها وأختها مؤونة العمل، مع قوة في جسمه، ومؤتمن على المال والعرض، وبكل براءة، وبلا تلعثم، فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

ولعل الأب كان في نفسه ما جاش في صدر ابنته، فقال بهدوء وبلا تردُّد: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾.

وبكل بساطة وصراحة عرض الأب على موسى إحدى ابنتيه

وخاصة تلك التي وقع التجاوب بين قلبها وقلب الفتى موسى. عرضها من غير تحرُّج ولا خجل. يعرض بناء أسرة وإقامة بيت - وليس في هذا ما يُخجل - واعداً موسى ألاّ يشقّ عليه ولا يُتعبه في العمل راجياً من الله أن يكون موسى من الصالحين في معاملته ووفائه.

وقبل موسى العَرْض هذا، ويوضح أنه سواء قضى ثماني سنوات أو أتمها عشراً، وتلك إرادة الأب فلا عدوان عليّ ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ فالزيادة على الثماني سنوات اختيار ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وطاب لموسى المقام في بيت حميه، وقد أمِنَ من فرعون وحاشيته، وهذا قدر الله. وتمّت المدة - السنوات العشر - اشتاق موسى لأهله في مصر، فسار بأهله عائداً من مدين إلى مصر، في نفس الطريق الذي سلكه قبل عشر سنين وحيداً طريداً خائفاً. وبينما هو في طريقه وكان الجو بارداً والظلام الحالك ليلاً على أشدّه، أبصر عن بُعد ناراً تأجج في جانب الطور - جبل الطور - فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ رأى من النور ما لا يراه غيره، فابقوا مكانكم ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

وانطلق نحو النور ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾، ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٢ - ١٤].

فالله هو الرب المعبود القادر على كل شيء، وبرهان ذلك: سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧، ١٨].

كانت هي عصاه التي صحبها معه، وبمشيئة الله ستكون معجزة خارقة للعادة. وجاءه الأمر الإلٰهي، قال: ألقها من يدك ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ١٩، ٢٠]، فهذا برهان على القدرة والمشيئة الإلٰهية.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [القصص: ٣١، ٣٢]، وكان موسى أسمر اللون فإذا بيده أصبحت بيضاء يتلألأ منها النور، فاذهب يا موسى إلى فرعون إنه طغى فقل: هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى. قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٥].

لقد نقلت يد القدرة خطى موسى عليه السلام خطوة خطوة، منذ أن كان رضيعاً في المهد. ألقت به في اليمّ ليلتقطه آل فرعون، وألقت عليه المحبة في قلب امرأته، لينشأ في كنف عدوه، ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً، وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون، ليحذّره وينصحه بالخروج من مصر، وصاحبته في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين، وهو وحيد مطارَد على غير

زاد ولا استعداد، وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر، ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف(١).

لقد تلقى تجارب عدة جاءت بعدها رسالة التكليف ليكون ذا خبرة وتجربة وإدراك ومعرفة للواقع العملي لهذه الرسالة وهذا التكليف.

إنه مرسَل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض في زمانه وأشدهم استعلاءً في الأرض.

إنه رسول من رب العالمين لاستنقاذ قوم شربوا من كؤوس الذل حتى ألفوه، واستمرؤوا مذاقه فمردوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً. والذل يفسد الفِطرة ويذهب بما فيها من الخير والجمال، فاستنقاذ هؤلاء عمل شاق وعسير. أضف إلى ذلك هذا الانحراف في عقيدتهم حتى فسدت صورتها في قلوبهم، فهو مرسَل لإعادة بناء أمة، لها حياتها واستقلالها تحكمها رسالة سماوية(٢).

لقد استجاب الله سبحانه رجاء موسى وشدَّ عضده بأخيه هارون وزاده بشارة ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، فيذهبان إلى فرعون الجبار مزوّدين بسلطان لا يقهره سلطان في الأرض ولا تنالهما قوة طاغية فحولكما حصن وملاذ وسياج من الله ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾.

ذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون، فاستهان بهما واستنكر قولهما فقال موبّخاً ومعاتباً: حتى أنت يا موسى؟ ألم نربِّك فينا وليداً

(١) من تفسير الظلال.
(٢) نفس المصدر (الجزء العشرون).

ولبثت فينا من عمرك سنين؟ فأجابه موسى: أتمنُّ بتربيتي لديك وتحسبها نعمة عليّ؟ أليس السبب ظلمك واستعبادك لبني إسرائيل؟

فأردف فرعون: وكذلك فعَلْتَ فِعْلتك التي فعلت وأنت من الجاحدين بنعمتنا.

فأجابه موسى: بل ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، ولما خفتكم فررت منكم فأصابتني نعمة الله ورحمته، فوهب لي علماً وحكمة وجعلني من المرسلين(١).

## ❑ المواجهة والحوار:

طلب موسى من فرعون أن يؤمن بالله ربّ العالمين ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

هنا تهرّب فرعون من الإجابة، وقد تميّز من الغيظ، فقال لمَن حوله: ألا تسمعون؟ أسأله عن حقيقه ربه فيذكر لي أفعاله. ثم أردف قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وكأنه أشار إلى الأسلوب القهري المتَّبع لكل من يفكر بالخروج على الطاعة. وقال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وهنا لا بد من إظهار المعجزة الخارقة للعادة لتكون برهاناً على صدق الدعوى.

---

(١) قصص القرآن ص١٢٣.

فقال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾، فقال فرعون: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وأدخل يده في صدره (جيبه) ثم نزعها فإذا النور يشع منها. فبُهر فرعون وغشيه هَم واكتئاب فلجأ إلى الخداع والتلاعب والتدليس، فيقول لوزرائه ومَن حوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ﴾ - وزيره - ﴿عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

قالها فرعون بتكبُّر وفجور وسخرية، لأنه علم بالتجربة أن الملأ سيتلقى ذلك بالإقرار والتسليم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعتمد على القهر في الفكر واللسان ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

لقد واجه موسى عليه السلام فرعون ومَن معه بالحقيقة التي ابتعثه الله من أجلها، الربوبية لله رب العالمين، وهذا يعني الثورة على فرعون وكبريائه وجبروته، وعدم الخضوع لفرعون، طالباً منه أن يدع موسى يرحل بقوم بني إسرائيل إلى بلد آخر، يأمنون فيه على كرامتهم المهدورة، وحقناً لدمائهم، وخاصة المواليد الذكور، ونجاة من فساد فرعون وقومه من إذلال لشعب إسرائيل ونسائهم.

## ❏ موقف فرعون وحاشيته:

لم يستسلم فرعون ومَن معه للحوار الذي ابتدأه نبيّ الله موسى عليه السلام المثبت بالبراهين والمعجزات، فقد رأوا بأم أعينهم العصا تنقلب ثعباناً لا شك في ذلك، وهذه اليد السمراء يُخرجها من جيبه

فإذا هي بيضاء من غير سوء، ومن غير مرض. . . إذا أعادها لجيبه عادت سمراء. وما أكثر المنافقين المنتفعين الذين يتجمعون حول الطاغية، فاتهموا موسى بالسحر.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]، فأدرك الجميع وعلى رأسهم فرعون خطورة الموقف وذهاب السلطة وشرعية الحكم. واستقرّ الرأي على استدعاء الكهنة من جميع أرجاء مصر، وكان هؤلاء يزاولون أعمال السحر، كما يزاوله كهنة الديانات، وسدنة الآلهة المزعومة المنصوبة ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١١، ١١٢].

وتوافد السحَرة من كل مكان، وخاصة المحترفون منهم للسحر وأعمال الشعوذة، ظنًا منهم أن الأمر لا يعدو عملاً من أعمال الكهانة والسحر والشعوذة.

ولم يتخلّف ساحر قط فإذا بهم آلاف من السحَرة ومع كل واحد منهم حبل وعصا مقبلين على أمرٍ، ومشمّرين عن سواعدهم، لعل ذلك يُرعب موسى وهارون، والحشد من الجموع.

واجتمع الناس في يوم عيد الزينة ليروا ما سيؤول إليه الأمر.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤].

فلهم أجرهم على حِرفتهم، ووعدهم أن يكونوا من المقربين للسلطة زيادة في الإغراء.

واطمأنّ السحرة على الأجر، والتقرُّب من فرعون، واستعدُّوا بكل ما قدروا على فعله ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١١٥، ١١٦].

قالوا ذلك وكأنهم ضمنوا النتائج، فثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة يبدو واضحاً، ولكن موسى عليه السلام الذي كان واثقاً بالله استهان بالتحدي فقال: ﴿أَلْقُواْ﴾، وأظهر السحرة براعتهم في السحر، بل ذكر القرآن أنهم جاؤوا بما يُرهب ويخيف.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

فأوجس موسى في نفسه خيفة، فثبّته الله وقال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فهذه العصا التي تحملها ستبتلع كل ما صنعوا وضلّلوا وأوهموا ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

فألقى موسى عصاه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩].

إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب. وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثئ كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم. وإذا بالحق راجح الوزن، ثابت القواعد ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

## ❑ إيمان السَّحَرة:

لمس السَّحَرةُ الحقيقةَ الرائعة، وتبيَّنوا الرّشْد من الضلال، والحق من الباطل، فخرُّوا ساجدين لله رب العالمين، توبة عما صنعوا وخشوعاً لهيبة الحق و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنِّهم وسحرهم. وعرفوا أن ما جاء به موسى ليس من صنع البشر، أو السّحر، وأنها من قدرة قادر قاهر هو ما يدعو إليه موسى وهارون عليهما السلام، والعالِمُ الفطِن أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة حين تنكشف له[١]...

## ❑ موقف فرعون:

فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ، وهزّته أصوات الجماهير المؤمنة، وغلت مراجل الحقد والغيظ في صدر فرعون الطاغية، فشعر كأنه عرشه يتهاوى ويقوّض، فقال: أتؤمنون له، وتخضعون لحكمه قبل أن آذن لكم. إنه اتفاق وتدبير مقرّر بينكم وبينه، وإنه لأستاذكم وكبيركم الذي علّمكم السحر، واتفقتم معه للخروج على طاعتي.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤].

فكأنما يجب أن يستأذن المؤمن الملك الطاغية إن بدا له الحق

---

(١) الظلال، الجزء التاسع.

وآمن بالله، ماذا لو أشرقت أرواحهم، وقلوبهم لدعوة الله، أيستأذنوه في ذلك؟

ولكن الحقيقة أن الدعوة كانت لله رب العالمين. . . وبها تتهاوى ربوبية البشر وتتنحّى شرائعهم، وحينما يستعلن الإيمان يستهين الإنسان ببأس الطغاة وتهديدهم.

## ❏ موقف المؤمنين من السحرة:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

وقالوا باستعلاء: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

## ❏ عناد فرعون وتآمره على نبيّ الله موسى:

أصرّ فرعون على عناده، وهاجت الغوغاء والسُّوقة، فظاهر فرعون الملأ من قومه الذين لا يريدون الخضوع لله رب العالمين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧، ١٢٨].

عمد فرعون ومَن معه إلى إنزال صنوف الظلم والأذى بقوم

موسى، وقد عانوا من قبل مثل هذا، فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، فهدأ من روعهم، ومنّاهم بالنجاة قائلاً: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٧].

وتآمر القوم على قتل موسى، بعد أن فقدوا كل حيلة ليتخلصوا منه، فدبّروا ذلك ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

## ❑ موقف رجل مؤمن يكتم إيمانه:

آمن رجل من حاشية فرعون وذو مركز وهيبة ـ ولكنه كتم إيمانه ـ أمام طيش الغوغاء، وجموعهم الهائجة المائجة، فدافع عن موسى دفاعاً مستميتاً، وجادل القوم بشأنه، وضرب لهم الأمثلة الكثيرة، وخوّفهم ببأس الله وبطشه.

وفرعون هذا لم يدّعِ أنه إله ورب، بل أخذ يطبّق شريعة الله ومنهجه ـ كما يحلو له ـ فللقوم آلهة يتعبدونها ويتقربون لها. لكن استخفّ قومه فأطاعوه وشرع لهم تشريعات فطبّقوها وهي مخالفة لشريعة الله إلى جانب الظلم والإفساد.

وقف الرجل المؤمن ليقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ [غافر: ٢٨].

ولا يهمُّنا مَن هو هذا الرجل، ولعله ابن عم فرعون أو قريب له. آمن وكتم إيمانه، وتلطّف بقوله، بأسلوب الترغيب والترهيب، على

وجه الرأي والمشورة، وصدق رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**».

قال فرعون وقد خاف أن ينحاز الملأ إلى الرجل المؤمن، وتفوته فرصة قتل موسى فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

أي رشاد هذا؟ أهو عبادة الأوثان والأصنام، أو إلزام الناس طاعته في كل ما يأمر به وينهى، كأنه رب أو إلٰه. وصدق الله ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾.

ولمّا خاف المؤمن أن ينساق الجميع في صف فرعون، خوّفهم بما عاقب به الله الأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: ٤١، ٤٢]، ثم هدّدهم في آخر الأمر فقال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

وهمّوا بقتله ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: ٤٥].

## ❑ العقوبات الإلٰهية:

عاقبهم الله تعالى في الدنيا، وفي عالم البرزخ[1]، ويوم القيامة لهم عذاب شديد.

ففي عالم البرزخ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

---

(١) عالم البرزخ: هو عالم ما بعد الموت وقبل الحساب.

أما العذاب في الدنيا، أخذهم الله بنقص في الأموال والأنفس والثمرات. فنضب ماء النيل، وغاض ماؤه فنقص الثمر. ثم جاءهم الطوفان، والسيول المدمرة، فأضرّت الزرع والضرع، ثم زحف عليهم الجراد الذي أكل الأخضر واليابس والثمار. ثم تسلّط عليهم القُمَّل فأقضّ مضاجعهم، وابتلوا بالضفادع فنغّصت عيشهم، وكانت بمجموعها في طعامهم وشرابهم وفي ملابسهم. وسلّط عليهم الله الدم يسيل من أنوفهم وهو الرعاف. ومَحقَ الله أموالهم وأهلك مواشيهم.

ذكر الله عقابهم في سورة الأعراف فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٦].

إن هناك علاقة وثيقة بين القِيَم الإيمانية والواقع العملي. أفسدت الوثنية الفطرة فجهلوا العلاقة بين النواميس الكونية والحقيقة الإيمانية، وبين الكفر والبُعد عن الله، والبغي والظلم والفساد، وبين ما يصيب الناس من الجدب ونقص الثمرات والزلازل والكوارث.

فكان كلما وقع أمر من الأمور التي ابتلاهم الله بها يقولون لموسى: ادعُ لنا ربك أن يكشف عنا ما نحن فيه فنؤمن لك ونرسل

معك بني إسرائيل. فيدعو موسى ربه، فيكشف الله عنهم الرجز ولكن لم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

وهكذا عادة المنحرفين والجاحدين، حين يقعون في المصائب أو تجتاحهم جائحة تذكّروا الله. ثم بعد ذلك ينكثون عهد الله وميثاقه ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾.

## ❑ خروج بني إسرائيل وهلاك فرعون ومَن معه:

دعا كليم الله موسى وهارون على فرعون الطاغية ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

لقد تكبّر فرعون عن اتباع الحق، وصدّ عن سبيل الله، وتمرّد على الله وكابر، بعد أن رأى الآيات والبراهين. واغترّ باستدراج الله له فأعطاه من أمور الدنيا وزينتها، من مآكل شهية وقصور منيفة ومراكب حسنة، وتمكين في المُلك وجاه عريض، وزينة في اللباس... وفي نفس الوقت أوحى الله تعالى لموسى وأخيه هارون بأن تكون بيوت بني إسرائيل متميزة عن القبط ومتقابلة وقريبة من بعضها ليكونوا على أُهبة للرحيل، وأكثروا من الصلاة وأظهروا عبادتهم فقد أزف الرحيل.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾ [يونس: ٨٧].

والتمس بنو إسرائيل من موسى أن يدعو ربه ليرحمهم ويخلصهم من هذا العذاب المهين، والتمسوا منه النزوح عن مصر طلباً للسلامة وبُعداً عن القوم الظالمين.

وجاء الإذن بالمسير ليلاً باتجاه الشرق إلى الأرض المقدّسة، وقيل: كان عددهم نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذراري، بعد أن أمضوا في مصر قرابة أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية حينما جاؤوا مع أبيهم يعقوب (إسرائيل).

وجدُّوا في سيرهم حتى بلغوا البحر، فساورهم القلق والجزع والخوف الشديد، وأما فرعون ما إن علم بخروج بني إسرائيل حتى لحق بهم مُتَتَبِّعاً آثارهم وسَيْرهم، في جيش كثيف عرمرم، يزيد عدده على ألف ألف وستمائة كما يقال، والله أعلم.

فأدركهم مع شروق الشمس، وتراءى الجمعان.

وهاج بنو إسرائيل، وتقطعت نفوسهم همًّا وحسرةً، وها هو جيش فرعون يتراءى لهم فقالوا: أين تدبيرك؟ البحر من أمامنا، والعدو وراءنا وفي أثرنا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لا محالة. فاشتدّ عليهم الخوف والذعر فأين يذهبون؟

هنا وباطمئنان قال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وتقدم نحو البحر الذي تتلاطم أمواجه، ويعلو زبد أجاجه، وفي هذه الحالة جاءه الوحي.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾.

فانفلق البحر اثنتي عشرة طريقاً، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل طريق يسيرون فيه، فكان ماء البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدرة العظيمة، وأمر الله ريح الدّبور فلفحت حال البحر، فأذهبته حتى صار يبساً لا يعلق في سنابل الخيول والدواب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٧ - ٧٩].

وانحدر الناس بهذه الطرق مسرعين، مستبشرين فرحين. فلما جاوزوه وخرج آخرهم، استشرف القوم بعيونهم، فأبصروا فرعون وجنوده يتأهبون ليلحقوا بهم، ويسلكوا في البحر مسلكهم التي عبروا بها. فغشيهم من الهَمّ ما غشيهم، وعاد إليهم القلق والخوف من أن يصل إليهم فرعون وجنوده.

أراد موسى أن يضرب البحر ثانية بعصاه فجاءه الوحي ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ - أي على هيئته وحاله - ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

وقف فرعون أمام الطرق اليابسة في البحر، ماذا يفعل؟ هل يقتحمها؟ هاله المنظر، ولكن أظهر لمن حوله وجنده التجلُّد وعدم الخوف، فاقتحم البحر وتبعه جنده، ولما توسطوه جاء الأمر الإلٰهي لموسى أن اضرب بعصاك البحر، فارتطم عليهم البحر فجأة فكانوا مغرقين. وآمن فرعون حين لا ينفع نفس إيمانها، وبنو إسرائيل ينظرون إليه ومَن معه تتقاذفهم الأمواج.

### العودة إلى الوثنية ورواسب الماضي:

لقد عاش بنو إسرائيل طويلاً في العذاب المهين، وعايشوا الإرهاب القمعي الفرعوني، ورأوا كيف كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، وعايشوا الذل والسخرة والقهر. ففسدت نفوسهم، وفسدت طبيعتهم، وانحرفت فطرتهم، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل، وبالحقد والقسوة من جانب آخر.

ونجوا الآن من فرعون وطغيانه، ولكن الرواسب باقية، أفسدت نفوسهم وضمائرهم، فما أن تجاوزوا البحر قاصدين جنوب بلاد الشام مرُّوا على قوم وثنيين يعبدون أصناماً، وإذا ببني إسرائيل الذين مردوا على الذل والمهانة والنفاق والانحراف، يسألون موسى عليه السلام أن يتخذ لهم وثناً كي يعبدونه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وسبحان الله وبحمده... وهكذا قال بعض الطلقاء والأعراب بعد الفتح، ممن لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم. ففي الطريق من مكة إلى وادي حنين، مرّ الجيش المسلم بشجرة من السّدر، يقال لها ذات أنواط، كان الكفار يعكفون حولها، ويعلقون سلاحهم عليها ومتاعهم، فقال هؤلاء النفر: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة. إنكم تركبون سُنن الذين من قبلكم»**.

لقد نسوا تعليم وهداية أكثر من عشرين عاماً جاءهم فيها نبيّ الله موسى عليه السلام في التوحيد الخالص، ولم يمضِ وقت طويل على المعجزة الخارقة نجاتهم من فرعون وغرقه في البحر. فيقول لهم: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

## ☐ الأمر بدخول فلسطين وبيت المقدس وعصيان بني إسرائيل:

كان الكنعانيون وآخرون يسكنون أراضي بيت المقدس، وكانوا جبابرة في أجسامهم وقوّاتهم، فأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل دخول هذه البلاد، فأبوا المضيّ معه، ونكلوا عن الجهاد فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٢١، ٢٢]، ثم أردفوا قائلين بإسفاف ولؤم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: ٢٤، ٢٥].

كان من الأجدر بهم، ونبيُّهم موسى الذي أنقذهم من طغيان فرعون، ورأوا بأم أعينهم كيف جعل الله لهم البحر يبساً، كان الجدير بهم أن ينصاعوا للأمر، ويجاهدوا مَن أُمِرُوا بقتالهم، ولو امتثلوا وتوكلوا على الله، لا شك أن النصر حليفهم. أما هذا النكول والجحود إلى درجة الوقاحة، كان لا بد من العقاب الإلٰهي. وصدر الأمر الإلٰهي

بحرمانهم من الأرض المقدسة ـ أربعين سنة ـ يسيرون إلى غير مقصد، مات معظمهم خلالها، ولم يبقَ منهم إلا ذراريهم، ونفر قليل، منهم يوشع النبيّ عليه السلام.

أين هذا من صحابة الرسول ﷺ يوم بدر قائلين: فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصُبُر في الحرب صُدُق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. هكذا كان صحابة رسول الله ﷺ وأما هؤلاء من بني إسرائيل، نكلوا عن القتال، فعاقبهم الله بالتّيه، في صحراء سيناء أربعين سنة... كلما مشوا في طريق أياماً وليالي، رجعوا إلى النقطة التي ابتدؤوا منها رحلتهم.

## ❑ المواعدة والاستعداد للقاء الله عزَّ وجلَّ(١):

بعد نجاة بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والتعذيب، وإنقاذهم من تلك الديار، إلى الصحراء في طريقهم إلى الديار المقدسة، لم يكونوا على استعداد للمهمة الكبرى، وهي الاستخلاف في الأرض وتمكين الدين لهم، كما ارتضاه الله وتبديلهم الأمن بالخوف ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

(١) الظلال، الجزء التاسع، وقصص القرآن، ص١٤٧.

فاشرأبت نفوسهم إلى الشرك والوثنية، حينما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلت عقيدة التوحيد عندهم. فكان لا بد من رسالة مفصّلة لتربيتهم وتضبطهم وإعدادهم، فكانت مواعدة الله سبحانه لعبده موسى عليه السلام، ليتلقى عن الله عزَّ وجلَّ، وفي نفس الوقت كانت هذه المواعدة إعداداً نفسياً وروحياً لموسى لتهيأته للملاقاة. وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة، أضيفت إليها عشر، فبلغت أربعين ليلة. تروّض فيها موسى على اللقاء الموعود، وينشغل عن شواغل الأرض ويعتكف فيها عن الخلق، فتصفو روحه، وتشف وتتقوى عزيمته.

تطهّر موسى وصام ثلاثين يوماً ـ كما ذكرنا ـ وأتمّها إلى أربعين. ثم انطلق إلى طور سيناء.

واختار موسى من قومه سبعين رجلاً لينطلقوا معه، ولكنه سبقهم إلى جبل الطور، تشوُّقاً لملاقاة ربه. ولما سئل عن تأخرهم أجاب: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

وقبل مغادرته أوْكل أخاه هارون في رئاسة القوم الحيارى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، يوصيه لأنه يعلم ثقل المسؤولية، ويعلم طبيعة بني إسرائيل.

## ❑ الخطاب الإلٰهي:

نزل بنو إسرائيل حول جبل الطور، وصعد موسى الجبل. فكلّمه ربه وأمره أن يذكّر بني إسرائيل ما مَنَّ الله عليهم ونجاتهم من فرعون. وأمره أن يأمر بني إسرائيل بالطهارة والاغتسال، ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث. وفي اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربن أحد منهم إليه، فمَن دنا منه قُتل.

فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا. فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة، وفيها أصوات وبروق، وصوت الصُّور شديد جداً، ففزع بنو إسرائيل فزعاً شديداً، فقاموا في سفح الجبل، وغشي الجبل دخان عظيم، في وسطه عمود نور، وتزلزل الجبل كله زلزلة شديدة، واشتد صوت البوق، وموسى عليه السلام فوق الجبل يكلمه الله ويناجيه.

أمر الرب عزَّ وجلَّ موسى أن ينزل من على الجبل فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله، ويأمر الأحبار - علماءهم - أن يدنوا فيصعدوا الجبل.. وأمره الله بعشر كلمات وهي الوصايا العشر: أمره بعبادة الله وحده، ونهاه أن يحلف بالله كاذباً، وبالمحافظة على السبت - تفريغ يوم للعبادة - وأكرِم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض، الذي يعطيك ربك. لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرق. لا تشهد على صاحبك شهادة زور. لا تمدّ عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشتهِ امرأة صاحبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئاً من الذي لصاحبك، ومعناه النهي عن الحسد.

وجاء مضمون هذه الوصايا في آيتين من سورة الأنعام:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ

ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٤].

أثّر كلام الله في قلب موسى وأجّج الشوق فؤاده، وها هو سعد بالقرب من كلام الله فسأل ربه عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فجاءه الجواب الحاسم: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

طلب رؤية الله في الدنيا، وهذا لا يكون لبشر في الأرض، لأن البشر لا تطيق ذلك بهذا الإمكان.

ولا نخوض كيف كان التجلي كل ما هنالك.. خرّ موسى مغشياً عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأخذ موسى عليه السلام ألواحاً فيها ما يحتاجه بنو إسرائيل موعظة وتفصيلاً لكل شيء وقال له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

### ❑ السامري وعبادة العجل:

أثناء غياب موسى عليه السلام لملاقاة ربه عزَّ وجلَّ، عمد رجل من بني إسرائيل يقال له «السامري» عمد إلى حلي من ذهب، وصاغ منه عجلاً ـ على هيئة العجل ـ وألقى فيه قبضة من التراب، كان قد

أخذها من أثر فرس جبريل، حين رآه ـ يوم أغرق الله فرعون ـ فإذا بهذا التمثال يخور، كما يخور العجل الحقيقي، فأخذ القوم يرقصون حوله فرحين ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾، أي: نسي ربه هنا، وقد ذهب في طلبه.

ورجع موسى عليه السلام ورأى ما يفعلونه، ومعه الألواح ـ التوراة ـ فألقاها. وأخذ يعنّفهم ويوبّخهم، والتفت إلى أخيه هارون عليه السلام قائلاً: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾، فتخبرني بما صنعوا، فقال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

ولما سكت عن موسى الغضب، التفت إلى رأس الكفر والضلالة، وقال: ما خطبك يا سامري؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾، وأقبل على القوم يعنّفهم فقال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾، وندموا واستغفروا الله وتابوا إليه. وأمر موسى بأن يُقَاطع «السامري» فلا يخالطه أحد ولا يقربن منه، وهو ما يسمّى بالمقاطعة، وأحرق عجله وذرّاه.

## ❑ وفاته عليه السلام:

أخرج البخاري في صحيحه قصة وفاة موسى عليه السلام.

عن أبي هريرة قال: أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام،

فلما جاءه صَكَّه، فرجع إلى ربه عزَّ وجلَّ فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت. قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثَوْرٍ، فله بما غطَّت يده بكل شعرة سنة، قال: أي ربّ ثم ماذا؟ قال: ثمّ الموت. قال: فالآن. قال: فسأل الله عزَّ وجلَّ أن يدنيَه من الأرض المقدسة رمية بحجر.

قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «**فلو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**»[1].

وفي رواية الإمام أحمد في مسنده: لما جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال: أجب ربك. فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها. فرجع الملك إلى الله فقال: إنك بعثتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت. قال: وقد فقأ عيني. قال: فردّ الله عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثَوْر، فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة. قال: ثم مَهْ؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن يا رب من قريب[2].

وأوحى الله تعالى إلى موسى: إني متوفٍّ هارون فائتِ به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل وقبض هناك.

ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه، إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظنّ أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبيّ الله. فاستلّ موسى من تحت القميص. وبقي القميص في يدَي يوشع.

(١) البخاري ٣٤٠٧، ومسلم ٢٣٧٢.
(٢) أحمد ٣٥١/٢.

ومات موسى عليه السلام وعمره مائة وعشرون سنة[١].

## قصة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧].

كان رجل من بني إسرائيل كثير المال، وله بنو أخ يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل، وطرحه في مجمع الطريق، أو على باب رجل، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه - القاتل - يصرخ ويتظلّم.. فانطلقوا إلى نبيّ الله موسى، وشكوا إليه قتل الرجل وضياع دمه، فسأل موسى ربه في ذلك فأمره الله بذبح بقرة.. فقالوا: نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول: اذبحوا بقرة؟ فتشددوا في صفتها، ولونها، وسنّها، فشدّد الله عليهم، فلم يجدوها بهذه الصفات إلا عند فتًى كان بارًّا بأبيه وأمه، كان أبوه قد استودع الله هذه البقرة حتى يشب ولده، فطلبوا من الفتى البقرة فأبى عليهم، فأرغبوه في ثمنها حتى بلغ وزنها ذهباً. وأمرهم الله على لسان موسى عليه السلام أن يذبحوها ويضربوا القتيل ببعضها، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى وهو يشخب أوداجه وقال: قتلني ابن أخي، ثم عاد ميتاً كما كان ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢]، والآيات من سورة البقرة: [٦٧ - ٧٣].

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ص٢٨١.

(٢) قصص الأنبياء، لابن كثير ص٢٥٤، وقصص القرآن ص١٥٤.

## ❑ قصة موسى والخضر عليهما السلام:

أورد القرآن الكريم هذه القصة في سورة الكهف. وفيها قصة موسى والرجل الصالح عليهما السلام واسمه الخضر عليه السلام، كما أورد البخاري القصة في صحيحه فقال نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ**» - أي: تجد الرجل -.

فأعدّ موسى للأمر عدّته، واصطحب فتاه وحمّله المكتل وفيه الحوت (سمك) مشوي، وصمّم أن يلقى الرجل مهما بلغ به الأمر. وطال به الزمن، والإشارات تدل على أن مجمع البحرين، هو مجمع خليج العقبة والسويس، في البحر الأحمر، - أي: التقاء البحر المتوسط والبحر الأحمر - فهذه المنطقة هي مسرح الأحداث في تاريخ بني إسرائيل، والسفر للقاء العلماء الصالحين ممتع، تهون في سبيله كل الصعاب، ومشاق السفر، خاصة أن الرجل عنده علم لدنّي - من الله سبحانه - لا من البشر. وغير ما أنزل الله عليه. وبلغ موسى وفتاه مجمع البحرين - المكان الذي أراد الله لهما اللقاء فيه -.

وفي هذه اللحظات أبصر الفتى يوشع الذي كان يحمل المكتل أمراً عجباً أذهله، إذ انطلق السمك المشوي من المِكْتَل، يقفز باتجاه البحر وتعود له الحياة.. ويقال: هطلت الأمطار فأصاب السمك بالمكتل فسرت إليه الحياة، فقفز باتجاه البحر، ونسي الفتى إخبار

موسى عليه السلام بما حدث. وبعد فترة أدركهما العناء والجوع، فقال موسى للفتى: آتنا غداءنا فقد تعبنا. وهنا تذكّر الفتى ما حدث للسمك وقال: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ - للراحة - ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

ونسي موسى تعبه وجوعه ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.

ورجعا إلى المكان الذي فقدا فيه الحوت عند الصخرة على شاطئ البحر ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

والعبودية لله شرف وعز وكرامة، ولغيره ذل ومهانة، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، وأي كرامة أكرم من هاتين الصفتين ﴿**آتيناه** ومن **عندنا**﴾، ثم ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾، فلا واسطة ولا وحي ولا رسول. وهذا ما يسمى بالعلم اللدني.

فهذا العلم والفيوضات من الله مباشرة لمن أراد الله واختاره.

وهذا غير العلم والفيوضات عن طريق الرسول وتوجيهاته. لأن هذه أحكام تتعلق بالتكاليف (افعل - لا تفعل).

فمثلاً في الأحكام التكليفية: إتلاف مال الغير والقتل محرّم ولا يجوز، ولكن الرجل الصالح العالِم اللدني بتقرير القرآن: أتلف السفينة وقتل الغلام مما جعل النبيّ موسى يعترض على ذلك لأن علمه بظاهر ما يعلم، ولا علم له بالعلة الباطنة. ويلاحظ أن الله سبحانه قدّم هنا الرحمة على العلم فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا

عِلْمًا﴾، فما يفعله فهو رحمة حقيقة، والسرّ خفي على البشر، إلاّ من علمه الله ومَن أطلعه على الغيب.

وسلّم موسى على الرجل، وسأل الرجل موسى: مَن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال الرجل: نبيّ بني إسرائيل؟ قال: نعم. ومَن أعلمك؟ قال: الذي بعثك إلي، فعلم موسى أنه الرجل المطلوب، ومبتغاه الذي سافر من أجله، فقال بلطف: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾، وهذا القول غاية أدب المتعلم، والتلميذ مع المربي والمعلم.

فأجابه الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، فرؤيتك للأمور غير ما أرى، حيث سترى تصرفات، لن تصبر عليها حسب علمك، ومذهبك الذي تعتمد فيه على ظواهر الأمور. فقال نبيّ الله الحريص على المعرفة: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، فقد قبل موسى الشروط فسأصبر على أفعالك، ولا أعصيك أمراً فيما تأمرني بفعله.

وزاد الخضر شيئاً آخر توضيحاً ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾، فالصحبة أو بالأحرى إلزام نفسك باتباعي، فلا يكفي معه الصبر والتجلُّد، فلا تسألني أو تعترض على شيء، وهذا أدب المتعلم مع المعلم، والجندي مع القائد، والتابع مع المتبوع، وعدم العجلة في فهم أسرار كل أمر بفعله.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ فسارا على ساحل البحر، فلمحا سفينة ركاب في عرض البحر، فأشارا إلى أصحاب السفينة بأن يحملوهما معهم، فحملوهما معهم.

وعلى حين غفلة من أصحاب السفينة، باشر (الخضر) بخرق السفينة، بنزع لوح من ألواحها، أو إحداث ثقب فيها، وقد وصلا إلى مكان قصدهما وأرادا النزول... فأخذ الماء يتدفق عبر ما أفسده الخضر.

إن طبيعة موسى عليه السلام انفعالية اندفاعية، كما نلمس من تصرفاته مع القبطي الذي وكزه، وإتلاف مال الغير بدون سبب شرعي لا يصح، فضلاً عن تسبب لإغراق السفينة. والقوم أحسنوا إليهما فهل يقابل هذا بالإساءة؟

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ عظيماً لا يحتمل السكوت عليه. فالتفت إليه الخضر قائلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، قد حذرتك أنك لن تصبر على ما ترى من تصرفاتي، وأخذت عليك العهد بذلك. فاعتذر إليه موسى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾، فسامحني ولا تحرمني شرف صحبتك ومرافقتك لقد نسيت.

فتابعا السير على الأقدام، فوجدا غلاماً فتياً يلعب مع أقرانه، من الصبية فقتله الخضر ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾، ماذا فعل الغلام وكيف تقتله؟ ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، فهذا الذي فعلته منكر، لا يصح السكوت عنه... طفل بريء لم يرتكب إثماً أو معصية... إنه رجاء والديه فكيف؟ وهنا يأتي الرد من الخضر عليه السلام قوياً وبلهجة غير المرة السابقة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾، فاستحيا موسى منه و﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾. لقد أثقل على الخضر باعتراضاته وما تشابه عليه، وقد عرف من قبل أنه عبدٌ ربّاني، مأمور وكشف له أنه سيعترض على أفعاله ولا يصبر عليها ولا السكوت عنها.

فقطع موسى على نفسه إكمال الطريق بالفراق، إن هو عاد إلى الاعتراض أو السؤال. في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجّل لرأى العجب، ولكنه أخذته ذمامة من صاحبه**»[1].

وفي مسند أحمد: «**يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما**»[2].

فانطلقا حتى نال منهما التعب والجوع، فصادفا أهل قرية، فسألا الناس الذين صادفوهم الضيافة والطعام، وطلب الطعام - لا يعترض عليه أحد، ومَنْعُه بُخْلٌ ولؤمٌ، يدل على سوء طباع هؤلاء القوم ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

فأبوا حتى أصول الضيافة من إيواء واستقبال، وعرفوهما أنهم غرباء عن المحلة، والتعب قد أجهدهما... ولا شك أنهما استطعما أهل كل بيت من القرية، وطلبوا الطعام من كل بيت دون جدوى ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ كأنهم مجمعون على البخل ولؤم الطباع. وفي نهاية القرية وقبل مغادرتها وجدا جداراً آيلاً للسقوط، فأصلح الخضر من شأنه، ورمَّمه ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، ولم يسكت نبيّ الله موسى على ذلك. طلبا الطعام من القوم فأبوا، فنجازيهم هكذا، وقال متلطفاً: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، فنأخذ من أصحاب الجدار، طعاماً نسدّ بها رمقنا وجوعنا، ونحفظ أنفسنا.

---

(١) مسلم في كتاب الفضائل عن أبي بن كعب رقم ٢٣٨٠.
(٢) أحمد ١٢١/٥.

وهنا كان لا بد من الفراق. فكلٌ في طريق فقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، ثم يتابع الخضر القول: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، حتى لا يبقى في نفسك شيء من التساؤل، ولسوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال، التي اعترضت عليها، لتعلم أن الله سبحانه حقاً لقد أرسلك إلى معلّم علّمه الله ما لم تكن تعلمه.

وأخذ يقص عليه الأفعال التي اعترض عليها، ويوضح له الحقائق التي غابت عنه:

فقال له: أما المسألة الأولى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾، فمجال عملهم البحر، والمسكين مَن يملك شيئاً لا يكاد يكفيه. فهؤلاء مساكين بالكاد يكفيهم ما يدر عليهم هذا العمل على ظهر هذه السفينة.

ويوجد في المنطقة ملك ظالم، يصادر كل سفينة صالحة، غصباً يأخذها بغير حق عنوة وقهراً، وهؤلاء المساكين لا حول لهم ولا طول.

فعمدت إلى خرق السفينة، وفي ظاهر ذلك اعتداء على ملكهم وحقوقهم ـ وهو منهي عنه شرعاً ـ ولكن ذلك الاعتداء سيكون سبباً في نجاة السفينة من الغاصب الظالم. ولو علمت ذلك أنت لساعدتني على ذلك.

ومن الأدب أن الخضر عليه السلام استعمل كلمة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فنسب إرادة العيب للسفينة إلى نفسه، ولم ينسبها إلى الله عزَّ وجلَّ تنزيهاً لله عزَّ وجلَّ عما لا يليق بمقامه، وكم من ضارّة

نافعة. فبعد أن تركنا السفينة، جاءها رجال الملك فرأوا الماء يتدفق داخلها، فتركوها إلى غيرها. وهكذا سلمت لهم السفينة، وسهل عليهم إصلاحها بما يناسبها.

وأما الغلام: وهو الولد الذي لم يبلغ الحلم وسنّ التكليف، فهو في سنّ الطهارة والبراءة، فمظهره لا يدل أنه يستحق القتل، ولكن الغيب كشف للرجل الصالح (الخضر) فإذا بالغلام تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، ومع الأيام سيصير كافراً تحقيقاً. ولو بقي على قيد الحياة وعاش لأرهق والديه ـ المؤمنين ـ بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبّهما له لاتباعه وموافقته. فأخْذُ الله له في هذه السن المبكرة خير له ولوالديه حتى لا يكون فتنة لوالديه، وكم من أب اضطر إلى الحرام من أجل عياله وأولاده. فقضاء الله بموته جاء خيراً له ولهما، وسيعوضهما الله خيراً منه، وهذا من منّة الله على والديه، وإلى ذلك أشار الله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾، فالله هو الخالق والرحمة بإبداله.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ لم يبلغا سنّ الرشد وكان تحت الجدار كنزٌ لهما، ولو انهدم الجدار، فماذا سيفعل هؤلاء اللئام الذين منعونا الطعام والمأوى. فكان لا بد من حفظ هذا المال وهذا وقته لتصدع الجدار، وعلامات انهياره بادية، فأرسلنا الله لترميمه ببناء مؤقت يتناسب مع بلوغ الغلامين سنّ الرشد، والقدرة على حفظ حقوقهما، وكان أبوهما صالحاً فنفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما. فأراد ربك أن يكبرا، ويشتد ساعداهما فيقدران على حمايته والاستفادة من الكنز.

وفي نهاية الأمر، إنها رحمة الله بعباده، وهو أمر الله، فيقول:

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فالغيب لله يطلع عليه من شاء، رحمة منه، وحكمة، فيدبر الله الأمور وفق علمه الشامل، والذي يجهله البشر..



# داود عليه السلام



ينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

جاء في تاريخ الطبري نقلاً عن محمد بن إسحاق - صاحب المغازي - نقلاً عن وهب بن منبّه، وهو من أهل الكتاب، أن داود عليه السلام كان قصيراً أزرق العينين، قليل الشَّعر، طاهر القلب ونقيه[(١)]، وكان داود أصغر أولاد أبيه الثلاثة عشر ذكراً.

وفي ذلك الوقت كانت العمالقة في فلسطين غلبت بني إسرائيل بعد ذهاب ملك بني إسرائيل على يد بختنصر ملك أشور، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا نساءهم وأبناءهم. وأشفق (قورش) ملك فارس على بني إسرائيل المتواجدين في بابل من أرض العراق، وعطف عليهم فأذن لمن أراد أن يرجع إلى بلاد الشام - فلسطين - فليرجع فرجع الكثير منهم. فسأل بنو إسرائيل نبيّ الله في ذلك الوقت أن يدعوَ الله بأن ينصّب عليهم ملكاً يأتمرون بأمره، ويطيعونه ليقاتلوا أعداءهم، ويسترجعوا ما فقدوه. فقال لهم نبيّهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ

(١) تاريخ الطبري ٤٧٦/١ وانظر قصص الأنبياء لابن كثير ص٣١٤. ووردت قصة داود في القرآن في سورة البقرة (٢٥) وفي سورة ص (١٧) وسبأ (١٠) والأنبياء (٨٠).

﴿أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فالآن أنتم في سعة من الأمر، ولكن إذا استجاب الله، وتقرر عليكم القتال والجهاد، فأصبح فريضة من الله مكتوبة عليكم، فلا سبيل حينئذٍ إلى النكول والهروب.

فارتفعت أصوات المتحمسين من الغوغائيين قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فأعداء الله أخرجوهم من ديارهم، وسبوا النساء والذرية. فقتالهم واجب ديني لا محالة، والطريق لاستعادة كرامتهم القتال، ولا مجال للنقاش فيها.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾، فهذه صفاتهم وسماتهم، نقض العهد، والنكث بالوعد، والتفلُّت من الطاعة، والتولِّي عن الحق ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

واستجاب الله دعاء نبيّهم، حيث بعث (طالوت) ملكاً عليهم... فإذا بهم كعادتهم يستنكرونه. فالمَلِك في عُرفهم يجب أن يكون من ذوي المال والثراء، وصفاتٍ حسبوها من الملك ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فقد كانوا يطلبون من الله أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه، وها هم يلوون أعناقهم ويجادلون نبيهم في هذا الملك الذي اختاره الله لهم، وكان يكفي أن يقبلوا حينما قال لهم: إن الله قد بعثه لكم ملكاً فقاتلوا تحت إمرته ولوائه.

فبيّن لهم نبيهم أن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، ولله الأمر يؤتي الملك مَن يشاء، فهو المتصرف في مُلكه ويعلم الخير وكيف يصرّف الأمور.

ثم وضّح لهم برهاناً قاطعاً على أنه الملك الذي اختاره الله عليهم بأن ﴿ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

فالتابوت كانوا يُنصرون على أعدائهم بسببه ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، والله أعلم بها. فهذه علامة من الله. وهكذا يكفي للدلالة على أن طالوت هو الملك. فأيقنوا بذلك ورضخوا للأمر، وجاءت الملائكة تحمل التابوت. واستقرّ في أيديهم.

وصفّ طالوت الجنود، وسار بهم ليعبر نهر الأردن (الشريعة). أراد الله أن يختبرهم فأمر نبيّهم أن يطلب من طالوت أن يُصدر أمره بأن لا يشربوا من ماء النهر إلا مَن اغترف بيده غُرفة ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، إنه مقدِم على معركة فاصلة، وجيشه عرف مرارة الهزيمة والذل، يواجه جيشاً كثيفاً كانت له الغلبة سابقاً، فلا بد من جنود صابرين تنضبط شهواتهم، ويستعلون على الشهوات والأهواء ويصبرون على طاعة الله وعلى الجوع والعطش. ويختبر هؤلاء الجند في انضباطهم لإمرة القائدة الملك، فيعلم الطائعين من العصاة. وتمت التجربة، وإذا بالأكثرية يشربون، وارتووا ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾، وكان يكفيهم أن يغترف أحدهم من النهر غُرفة بيده فيبلّ ظمأه.

وانفصل هؤلاء عن الجيش معترفين بهزيمتهم نفسياً وشعورياً، وبالتالي لا يصلح هؤلاء لمعركة شرسة مصيرية، والنيّة، وقولهم نريد أن

نقاتل، هذا لا يكفي، فلا بد من تجربة عملية، ومن طاعة أوامر القائد... وأن يكون العمل خالصاً لله رب العالمين ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والذين صمدوا وامتثلوا أمر الملك طالوت، كانوا قلة يُعدون بالمئات.

أخرج البخاري عن البراء بن عازب قال: «كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدّة أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن»[١].

لا شك أن الخوف والرهبة، داخلت قلوبهم أول الأمر ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ فالفرق كبير وواضح، ونسوا أن الله غالب على أمره وينصر مَن يشاء. لذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، كما حدث في بدر في معركة الفرقان وغيرها من المعارك فليست القضية كثرة في العدد أو العتاد، ولكن الله ينصر من يشاء ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

واصطفّ العسكران: عسكر الملك الظالم جالوت المتجبّر الطاغي، وعسكر المؤمنين الصادقين ممن أسلموا أمرهم لله رب العالمين، وأطاعوا الله ورسوله فالتهبت حناجرهم بالدعاء إلى الله ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

---

(١) البخاري ٣٩٥٧.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولقد عمل الملك كل ما استطاع لتأجيج جذوة الإيمان في الصدور وأشعل فيها روح الجهاد في سبيل الله، واختبر صبرهم على العطش، وقوة الإرادة، وألحُوا بالدعاء إلى الله، وزيّن كل ذلك بوعد قطعه على نفسه: مَنْ قتل عدو الله جالوت زوَّجْتُه بابنتي، وأشركته في مُلكي.. وتواجه الجيشان.. وفي مقدمة جيش الأعداء يقف جالوت متجبّراً ناسياً قدرة الله عليه، بينما كان الفتى داود صغير السن فقدّر الله أن يجري مصرع جالوت على يد هذا الفتى، فأذلّ بقتله جنده، فانهزم الجيش لا يلوي على شيء، إذ قُتِل (الملك) القائد. فغنم جيش طالوت غنائم كثيرة، وأسروا الكثيرين، وارتفعت كلمة الإيمان على الوثنية.

ووفّى الملك طالوت بوعده وزوّجه ابنته، وأجرى حكمه في مُلكه، وبما أكرم الله داود من علم وحكمة، أصبح محبوباً لدى بني إسرائيل قاطبة ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

ويقال أن طالوت الملك حسد داود على حبّ بني إسرائيل لداود فتسلّط على محبّيه فقتلهم، حتى لم يبقَ منهم إلا القليل، ثم تاب وأناب وانخلع من الملك تاركاً المُلْك لداود عليه السلام، وانطلق مجاهداً في سبيل الله هو وأولاده معه مقاتلين، حتى استشهدوا في سبيل الله.

وزعم أهل الكتاب أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنة[1].

(١) الطبري ٤٧٥/١ وقصص الأنبياء لابن كثير ص٣١٣.

## حضارة داود عليه السلام:

ابتدأ عمله الحضاري من صغره حيث كان في جيش طالوت.. وممن نجح في الاختبار ممن لم يشرب من النهر إلا غرفة من الماء بيده ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إن الذي لا يصبر على شهوات نفسه لا يصبر عند اللقاء وليس جديراً بأن يكون حضارياً، وبهذه الفئة القليلة المؤمنة الصابرة انتصر جيش الإيمان على الباطل ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فعلّمه الله عزَّ وجلَّ صنع الدروع الحديدية، لتقي المقاتلين من أعدائهم، واستطاع بقدرة الله الممنوحة له، أن يفهم لغة الطير وتُردّد الجبال تسبيحه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١] وإلى جانب ما آتاه الله سبحانه كان يأكل من عمل يده كما ورد في الصحيح.

وهناك قصتان حكم بهما داود عليه السلام ففهّم الله ابنه سليمان عليه السلام فكان الحكم أوْلى وأحسن، وكلا القضاءين جائز وحسن وهذا أحسن.

**الأولى**: دخل رجلان على داود في مجلس قضائه، أحدهما صاحب حَرْث (حقل) وفي الحديقة كرم عنب، والآخر صاحب غنم. فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا قد نفشت في حرثي[1]، فلم تبقِ منه شيئاً. فحكم داود لصاحب الكرم أن يأخذ غنمه - غنم الخصم - مقابل عنبه. وكان الثمن متقارباً وقتها. وهذا الحكم اجتهادي. وللمجتهد أجره على كل حال إن أصاب أو أخطأ.

ومرّ صاحب الغنم بسليمان فأخبره بقضاء أبيه داود. فدخل سليمان الابن على أبيه وقال: يا نبيّ الله، إن القضاء غير ما قضيت. فقال: كيف؟ قال: ادفع الغنم لصاحب الحرث لينتفع بها، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده، فيأخذ صاحب الحرث حرثه، ويأخذ صاحب الغنم غنمه. فقال داود عليه السلام: القضاء ما قضيت. فكل منهما حكم باجتهاد منه، فألهم الله سليمان حكماً أحكم وهو الأصوب. فحكم داود هو التعويض لصاحب الحرث وفي ذلك عدالة. وفي حكم سليمان تضمين مع العدل، وهذا هو العدل الإيجابي الحضاري.

**الثانية**: في صحيح مسلم عن أبي هريرة فيما يروي عن داود عليه السلام قال: بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنت. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال: ائتوني

(١) رعته ليلاً.

بالسكين أشقه بينكما. فقالت الصغرى: لا. (يرحمك الله) هو ابنها. فقضى به للصغرى[١]. قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين قط إلا يومئذ. ما كنا نقول إلا المِدْية[٢]. قال النووي رحمه الله: داود عليه السلام قضى به للكبرى لشبَه رآه فيها أو لأنه في يدها. وهذه فتوى من داود لا قضاء.

وهب الله عبده داود هذه المزايا والخصائص، فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاصطفاء. وساس الملك بالحكمة، والحزم، مع صلته بربه بين صيام وقيام. وإنشاد وتسبيح...

ومع كل هذا تعرض للفتنة والابتلاء ليعرف ضعفه وسرعان ما يؤوب إلى الله.

## ❑ فيما كان في خلوته وعبادته وترتيل أناشيده:

وفي هذه الحال لا يأذن لأحد أن يدخل عليه حتى يخرج هو إلى الناس. فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه ويدخلان عليه، ففزع منهما إذ كيف دخلا؟ فطمأناه... ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢]، وجئنا للتقاضي أمامك ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، وبدأ أحدهما فعرض خصومته ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ - أي: اجعلها في مُلكي وكفالتي - ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ - أي: شدّد عليّ في القول وأغلظ -.

فالقضية المعروضة تحمل ظلماً صارخاً لا يحتمل التأويل، ومن

---

(١) مسلم في الأقضية رقم ١٧٢٠.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٦/٢٦٠.

البداهة أن يحكم داود على إثر سماعه لهذه المظلمة، ولم يستفسر من الآخر ولم يطلب منه البيان والحجة، فحكم قائلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾ [ص: ٢٤]، وما إن نطق بحكمه، حتى اختفى الملكان، فعرف أنهما ملكان جاءا لامتحانه، وليتبين الأمر قبل إصدار الحكم ولا يتعجل، ولا يأخذ بقول الواحد، وأن يمنح الآخر فرصته الإدلاء بحجته، حيث قد يغير ذلك الحكم ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ داود كان فتّى صغيراً في جيش طالوت، وجالوت كان ملكاً قوياً وقائداً جباراً. وشاء الله تعالى أن يُريَ القومَ أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها التي يعلمها الله وحده ومقاديرها في يده وحده. والمطلوب منهم أن يقوموا بواجبهم ويفوا بعهد الله... وأراد الله أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليعلم الناس أن الجبابرة والظلمة، الذين يرهبونهم ويخافونهم ضعاف، ضعاف يغلبهم الفتية الصغار، حين يشاء الله.

وتبرز الحكمة الإلٰهية بعد ذلك، حيث تسلّم داود الملك بعد طالوت فكان داود ملكاً نبيّاً. وعلّمه الله صناعة الزَّرد وعدة الحرب، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فصنعة الدروع كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة، فألهمه الله سبحانه أن يصنع الدروع حلقاً متداخلة، والزَّرَدُ

المتداخل، أيسر استعمالاً، وأكثر مرونة، فالمنّة لله وحده الذي علّم داود هذه الصناعة.

وتبلغ الحضارة أوْجها حينما، يسبّح الكون كله، مع تسبيح داود ويفهم منطق ما حوله بإذن الله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، وقال في معرض آخر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، و﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩)﴾ [ص: ١٨، ١٩].

لقد عُرف نبيّ الله داودُ بمزاميره: كانت تسابيحَ يرتّلها بصوته الشجي، الحنونَ، فتتجاوب أصداؤها حوله، وترجّع معه الجبال والطير.

وكان صوته جميلاً جداً يأخذ بالأفئدة والقلوب، ويهز المشاعر ويُضرَب به المثل بحُسن صوته وحسن إنشاده. سمع النبيّ ﷺ أبا موسى الأشعري يقرأ القرآن ـ وكان حسن الصوت ـ فوقف ﷺ يستمع لتلاوته فأعجب بصوته الجميل، وتلاوته الرائعة فقال له: «**لقد أُعطيت مزماراً من مزامير آل داود**»، فقال: يا رسول الله، أكنت تستمع لقراءتي؟ قال: «**نعم**»، قال: لو علمت أنك تستمع، لحبرته لك تحبيراً ـ أي: جمّلته وحسّنته ـ.

فكان إذا قرأ الزبور وأنشد تكفُّ الطيرُ عن الطَّيران، وتقف على الأغصان والأشجار فترجع بترجيعه، وتسبّح بتسبيحه، وكذا الجبال تردّد معه بالعشيّ والإبكار، وذلك بصوت لم تسمع الآذان بمثله، يصدح

بصوته الجميل، مسبّحاً وحامداً، وكان كثير العبادة لله، يصوم النهار ويقوم الليل في مسجده ومصلاّه. جاء في الصحيح: «**أحَب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحَب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً**».

ولقد جمع الله له النبوّة والملك... فكان يعطي كلَّ ذي حق حقه فأعطاه الله الحكمة وفهم القضاء ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

فالحكمة: النبوّة والعلم بأوامر الله سبحانه. وفَصْل الخطاب: الفَصْل في القضاء، فقد يكون الرّجلُ عالِماً بصيراً بالأحكام عارفاً بالحلال والحرام، ولكنه لا يستطيع الفصل في القضاء. جاء في الصحيح: «**أقضاكم عليّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل**»[١].

عن علي رضي الله عنه قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن حفر قوم زبيةً[٢] للأسد، فوقع فيها الأسد، وازدحم الناس على الزبية، فوقع فيها رجل، وتعلّق بآخر، وتعلّق الآخر بآخر حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، وحمل القوم السلاح، وكاد يكون بينهم قتال. قال: فأتيتهم فقلت: أتقتلون مائتَيْ رجل، من أجل أربعة أناس؟ تعالوا أقضي بينكم بقضاء، فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحق بالقضاء. فجعل للأول ربع الدية. وجعل للثاني ثلث الدية، وجعل للثالث نصف الدية، وجعل للرابع الدية. وجعل الديات على مَن حفر الزبية على قبائل الأربعة،

---

(١) البخاري.

(٢) حفرة مغطاة بالقش.

فقدموا على رسول الله ﷺ فقصُّوا عليه القصة فقال: «**القضاء كما قضى عليّ**»[١].

وكما علمنا: إن الحضارة تطبيق نهج الله في الأرض، وإسعاد البشرية، والازدهار في الاقتصاد، والعمران، والتجارة، بتوجيهات عادلة وصحيحة وأخلاق مثالية... حيث الفرد الصالح السعيد، والأسرة السعيدة، والقرية الآمنة السعيدة، تحت غطاء منهج الله وشرعه، يقوم حاكم عادل، بتنفيذه وتطبيقه.



(١) القرطبي في تفسير سورة ص الآية ١٩.

## سليمان عليه السلام



أوصى نبيّ الله داود عليه السلام بالمُلك من بعده لابنه سليمان وكان وقتها فتًى يافعاً دون الخامسة عشر من عمره، ومع ذلك فكان من ذوي الفطنة والذكاء، وحسن التدبير والسياسة، ووهبه الله الحكمة وحسن القضاء، كما مرّ معنا في قصة المرأتين، اللتين تنازعتا في طفل رضيع وحكمه بين الرجلين، في قضية الغنم والزرع الذي أتلفته.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦].

وذكر الله تعالى بعض مِنَنِه عليهما فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

ولا يهمنا موضوع العلم الذي خصّهما الله به، لأنه هبة من الله إلى جانب الرسالة، وكلا الأمرين من عطاء الله ومننه واجتبائه.

إن العلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وهدفه، لا يثمر سعادة للناس، إنما يثمر الشقاء والخوف والدمار، لأنه انحرف عن وجهته وضلّ طريق الله.

ولم يذكر الله نعمة الملك، مع الحديث عن نعمة الله في النبوة والعلم؛ لأن الملك أصغر شأناً أمام النبوة، وأمام العلم الإلٰهي.

وورث سليمان من أبيه إذن: نِعْمة الملك، ونعمة العلم، ومنه

علم منطق الطير ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾.

وللطيور والحيوان والحشرات وسائر المخلوقات، وسائل للتفاهم هي لغاتها ومنطقها ـ فيما بينها ـ والله تعالى أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَـٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾، ولا تكون أمم، حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها ـ كما يلحظ اليوم علماء الأحياء والحيوان، ويكتشفون بعض هذه الوسائل ـ ويجتهدون في إدراك شيء من لغاتها، ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس، والظن، لا عن طريق الجزم واليقين.

فأما سليمان عليه السلام: فما وهبه الله كان شيئاً خارقاً للعادة لا عن طريق المحاولة والحدس والظن والاجتهاد.

ومما مكّن الله فيه لسليمان عليه السلام، أن سخّر له طائفة من الجن والطير، لتكون تحت إمرته، وطوع أمره، كجنوده من الإنس سواء بسواء.

وهذه الطائفة التي سخّرها الله لسليمان، وهبها إدراكاً خاصاً أعلى من إدراك نظائرها، كما في قصة (الهدهد) الذي أدرك من أحوال ملكة (سبأ) وقومها، ما يدركه أعقل الناس وأتقاهم وأذكاهم، فليس كل الطيور والهدهد على هذا الإدراك والذكاء.

يا له من موكب أخّاذ يليق بالملك النبيّ سليمان، هذا الموكب اجتمع فيه الجن والإنس والطير ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [النمل: ١٧].

وليس كل الجن كان مسخَّراً لسليمان.. لأن مُلك سليمان لم يتجاوز بلاد الشام والعراق، فليس كل الإنسان جنوداً لسليمان، وليس

كل جن الأرض، ولا طيور الأرض يخضعون لسليمان، بل طائفة من كل جنس. فلو أن كل الهدهد ـ من الطير ـ كانت مسخَّرة له، ومحشورة في موكبه، لما استطاع أن يتبين غيبة الهدهد وهو واحد من بين آلاف الهداهد فيقول: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾، فهو إذن هدهد خاص، بشخصه وذاته هو الذي سخّره الله لسليمان من أمة الهداهد. وهو ذو مواهب خاصة من العقل والتقى، وكذلك نقول في الجن الذين منهم طائفة الأبالسة الذين يوسوسون في صدور الناس، وهؤلاء كانوا لا يزاولون الإغواء والشر والفساد في عهد سليمان عليه السلام.

وسار الموكب بانتظام ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، فلا يتفرقوا، وتشيع فيهم الفوضى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

والنَّمل أمة من الأمم المخلوقة، كأمة النحل وسواها.. تتنوع فيها الوظائف، ويؤدي الجميع عملاً بنظام عجيب، يعجز البشر عن اتباع مثله على ما أوتي البشر من عقل وإدراك. قالت هذه النملة بوسيلة التخاطب والتفاهم مع النمل وبلغتهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

كيف أدركت أن هذا الجيش.. هو جيش ملك عظيم اسمه (سليمان)؟ نقف عاجزين عن فهم ما فهمته هذه النملة، وكيف توصلت

إلى معرفة هذا الخطر؟ ولا شك أن صوتها كان عالياً، ومنذراً بالخطر حتى إن سليمان عليه السلام سمعه، وفهم مقالتها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

لقد هشَّ وتبسَّم، وانشرح صدره بما قالت، لأنها خافت من الأذى وهو لا يضمر أذى للنّمل، وسُرَّ لإدراكه مقالتها، فهي من نِعَم الله تعالى، التي تصله بهذه العوالم المعزولة عن الناس.

هزّته المشاعر والمشاهد فاتجه إلى الله شاكراً له، على هذه النعمة فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [النمل: ١٩].

وأمام استعراض عسكري تفقّد جنوده ورعيته فإذا به يفتقد طائر الهدهد، وإن دلّ على شيء، فيدل على سمة اليقظة والحزم، عند الملك، فلم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشد الضخم، ويدل من جهة أخرى أن هدهداً واحداً هو الذي كان من أمة الطير، له سمات خاصة، وموهبة خاصة، فقال الملك: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، ويتضح غياب الهدهد، وبلا إذن من الملك، وحتى لا تكون فوضى، لا بد من الحزم فيصدر الأمر ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾.

ومن حكمة النبيّ سليمان أن لا يتسرع في الحكم، حتى يسمع حجة الطائر الهدهد الغائب فيقول: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة قوية توضح عذره...

ويحضر الهدهد ومعه العذر الواضح، وكان من حسن تصرفه، أن

يلقي على مسامع الملك المفاجأة، وبشكل يضمن إصغاء الملك له ويصرفه عن المؤاخذة، وسؤاله عن غيبته، بدون إذن مسبق. فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤].

إنه هدهد عجيب، صاحب إيمان وذكاء وإدراك، وبراعة في عرض النبأ، ويقظةٍ وفهم لكل شيء، يدرك أن هذه ملكة وأن من حولها رعية. وأدرك أنهم منحرفون، يسجدون للشمس من دون الله رب العرش العظيم.

وأثناء عرضه يلمّح إلى عظمة ملكها وثرائها وجمال الملكة وتوفر أسباب الحضارة والقوة، ومتاع الدنيا إلى جانب أُبهة وعظمة، وسرير المُلْك الفخم الضخم، الذي تجلس عليه مما يدل على دقة الصنع والغنى والترف فيقول كل هذا بجملة موجزة: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، وفي مقدمة خطابه أشار إلى دقة وعظيم العمل الذي قام به ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

ومملكة سبأ تقع في جنوب الجزيرة العربية باليمن، وكانت تملكهم امرأة ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

وهنا تبدو حكمة نبيّ الله سليمان الذي هزّته هذه الأخبار وأخذت بقلبه فلم يستخف بالخبر، وفي نفس الوقت لم يتسرّع في التصديق أو التكذيب، فلا بد من التأكد من صحة الخبر فيقول: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ

كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، فيكتب كتاباً ولم يعلم ما في الكتاب. وغلّف الكتاب فلا يُفتح إلا من قِبَلها، فقال للهدهد: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، إنها مهمة صعبة ففيها المخاطرة على حياته، ولئن نجا من القوم هل سينجو من جوارح الطير من النسور والصقور؟ وكيف سيتنصّت عليهم ويستمع إليهم؟

وينطلق الهدهد حاملاً الكتاب، ويتلمس كوّة يدخل منها، وفي لحظة مناسبة ألقى بالكتاب على سريرها.. ولما تشاهده، تجْمَعُ القوم وتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٩ - ٣١]... لا شك أنها سمعت عن نبيّ الله سليمان، ومن قبل سمعت عن أبيه داود فحكمت بأنه كتاب كريم، وقرأت عليهم فحوى الكتاب وطلبت مشورتهم ورأيهم، وظهرت عليها ملامح المرأة الملكة، التي تكره العنف والحرب، على عكس الرجل القوي، الذي لا يرضخ بسهولة، لذا كان جوابهم: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٣].

نحن نفهم لغة الحرب، ولغة القوة والسلاح، ومع ذلك فالأمر راجع إليك، فقالت: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٤، ٣٥]، إن ملوك الأرض على الأغلب إذا احتلُوا بلداً ودخلوه، أشاعوا فيه الفساد، وانتهكوا الحرمات، وقتلوا المدافعين والمقاومين، وجعلوا الناس أذلّة خانعين، والهدية تليّن القلوب وتُفلح في دفع القتال، وتُعلن الوُدّ والتعاطف، فإن قبل سليمان الهدية فهو من أهل الدنيا وهذه وسيلتها، وإن لم يقبلها فهو إذن يقاتل

من أجل العقيدة، فلا يصرفه عنها مال ولا جاه.

ونقل الهدهد الأمر، وما كان بأمانة وإخلاص... ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت رسل الملكة والهدايا أمام سليمان... فسخر منهم ومن المال الذي يحملونه، والهدية كانت سبائك ذهبية ومجوهرات ولآلئ، فقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، وذلك بالعلم والنبوة، وتسخير الجن والطير ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

وقال لرئيس الوفد: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وأدرك سليمان أن هذا الرد القاسي، سيُنهي الأمر مع الملكة التي لا تحب الحرب ولا تريد العداء، وأنها ستجيب دعوته. وعرف أنها قادمة، فأحبّ أن يُظهر لها بعض ما أكرمه الله به، وما وصل إليه سلطانه وحضارته: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾، إنه يريد أن يستعرض أمامها مظهراً من مظاهر القوة الخارقة، التي تؤيده ليؤثر ذلك في قلب الملكة، فتُسرع بالاستجابة للإسلام والإيمان بدعوته وعقيدته.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾، فهذا الجنّي العملاق، عرض على سليمان، أن يأتيه بعرشها، قبل انقضاء جلسته هذه التي تمتد عادة من الصبح إلى الظهر يجلس فيها للقضاء...

وهنا أبدى أحد الجلساء ومن المقرّبين رأيه ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ

﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، في غمضة عين ـ إنه من عبيد الله المقربين ـ ونفسه مهيأة بما عنده من العلم، أن تتصل بالأسرار والقوى الكونية، وقد وهبه الله سراً يستمد به من القوة التي لا تقف لها الحواجز، وكم في الكون من أسرار لا نعلمها، وكم فيه من قوى لا نستخدمها، وكم في النفس البشرية من أسرار وقوى لا نهتدي إليها. فتأتي الخارقة للمألوف، وتكون بإذن الله وتدبيره وتسخيره.

وأغمض سليمان عينيه ثم فتحهما ليرى العرش ـ عرش الملكة ـ أمامه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

وأمر سليمان بأن يُبنى للملكة القادمة قصر عظيم، وجعل الدخول إليه عبر ممرٍّ من زجاج ـ ولم يكن الزجاج معروفاً ـ وجعل تحت الممر الزجاجي ماءً ووضع في الماء السمك، وأنواعاً أخرى مما يعيش في البحر. ووضع عرش الملكة في صدر المجلس وطلب إليها أن تدخل القصر (الصرح). فلما أرادت الدخول، ظنّت أن الذي ستمر فيه ماء فكشفت عن ساقيها للخوض في الماء ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾.

ولفت انتباهها عرشُها فقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ إنه بعينه، ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟

فكانت الإجابة بغاية الذوق والأدب: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ [النمل: ٤٢].

وهنا نطقت بالحكمة: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فاعترفت لله رب العالمين أنها ظلمت نفسها فيما سلف، وأعلنت إسلامها لا لسليمان ولكن مع سليمان لله رب العالمين.

ونختم **حضارة سليمان عليه السلام:**

١ ـ بأن الله تعالى سخّر له الريح تجري بأمره ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، وفي سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، ولا ندري هل كان ذلك على بساط الريح حيث كان يجلس عليه وحاشيته، فيطير بهم مسافة شهر تقطع على الجمال، بزمن يسير، أم بالسفن عبر البحار؟ المهم أن القدرة الإلٰهية هي التي منحته ذلك فلا تسأل عن كيف؟ ولا لمَ؟

٢ ـ سخّر الله له الجن ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾، وقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

جاء في الصحيح أن النبيّ ﷺ قال: «**إن عفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ **فرددته خاسئاً**» [البخاري ومسلم].

❋ ❋ ❋

## يونس عليه السلام(١)



قال أهل التفسير أن يونس عليه السلام أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى في الموصل من أرض العراق، جاء في فضله في السيرة حينما ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف داعياً أهلها إلى الإسلام فأبوا وأمروا سفهاءهم وغلمانهم، أن يرموه بالحجارة، وأن يخرج عنهم، فألجأه هؤلاء إلى حائطٍ، خارج الطائف، لعتبة وشيبة ابْنَي ربيعة.. وهما يريانه، والتجأ داعياً الله سبحانه: «**اللّهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ويا رب المستضعفين...**» الحديث.

أرسل عتبة إلى رسول الله ﷺ قطفاً من العنب، مع خادم لهما اسمه عدَّاس. ولما أخذ القِطْف قال: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم**»، دُهِش عدّاس وقال: هذه الكلمة لا يقولها أبناء هذه البلاد ـ أي: مشركو العرب ـ فقال له رسول الله ﷺ: «**مَن أنت؟**»، فقال: أنا عداس. قال: «**من أي البلاد أنت؟**»، قال: من نينوى. فقال ﷺ: «**من بلد الأخ الصالح يونس بن متى؟**»، قال: نعم، قال: «**وأنا رسول الله إلى الناس**»، فقال عداس: أشهد أنك رسول الله، ولا يعلم هذا إلا

(١) وردت قصته في سورة يونس والأنبياء والصافات وسورة (ن) القلم، وفي سورة النساء والأنعام.

نبيّ. وأكبّ على النبيّ ﷺ يقبّله.

وأخرج مسلم في صحيحه عن النبيّ ﷺ قال: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[1]، وفي البخاري: «**لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى**»[2].

## ❑ دعوته قومه وخروجه من ديارهم:

أرسل الله يونس بن متى إلى قومه في نينوى، ودعاهم إلى التوحيد وترك ما هم فيه، وكان عددهم حوالي المائة وعشرين ألفاً تقريباً. قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾، فاختلف المفسرون في مقدار الزيادة على المائة ألف.

فلما كفروا وأصرُّوا على عنادهم، حذّرهم عقاب الله وعذابه، ثم أوعدهم أن العذاب آتيهم بعد ثلاث، وأنه غاضب منهم.. ورأوا بوادر العذاب فتحققوا نزول العذاب بهم، فتابوا وأنابوا إلى الله وندموا على إغضابهم لنبيهم يونس الذي تركهم ومضى. فجأروا بالدعوة إلى الله يطلبون منه الرحمة، وتضرّعوا إليه. وخرج الرجال والنساء والأطفال والذراري، وأخرجوا الدواب والأنعام والمواشي، وفرقوا بين البهائم وأولادهم.

وبكى الرجال والنساء والأطفال، ورغت الإبل، وخارت البقر، وثغت الغنم، فرغت مع الإبل فصلانها، ومع البقر عجولها، ومع الغنم حملانها...

وكانت ساعة إجابة، كشف الله بحوله وقوته ورحمته، عنهم العذاب المحيق بهم، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ﴿فَلَوْلَا

---

(١) أخرجه البخاري ٣٤١٦ ومسلم ٢٣٧٦.

(٢) البخاري ٤٦٣٨ ومسلم ٢٣٧٤.

كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

فرفع عنهم العذاب في الحياة الدنيا، والله أعلم هل سينفعهم هذا الإيمان في اليوم الآخر فينقذهم من العذاب؟

## ❑ يونس في عرض البحر:

لما ذهب يونس مغاضباً قومه، وتركهم ليلاقوا مصيرهم المحتوم - كما توقع ولم يعلم بإيمانهم - ركب سفينة في البحر، وإذا بالسفينة تضطرب في البحر، وتهب عليهم عواصف هوجاء، كادت تغرقهم، وكانوا يعتقدون أن هذا يحدث إن كان هناك في السفينة عبد آبق من سيده. فسألوا هل على ظهر السفينة من عبدٍ آبقٍ من سيده؟ فلم يجب أحد. فتشاوروا فيما بينهم فقالوا: نقترع فمَن وقعت عليه القرعة ألقيناه من السفينة. ووقعت القرعة على نبيّ الله يونس، فعطفوا عليه وأعادوا القرعة ثلاث مرات وفي كل مرة تخرج القرعة عليه.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٢].

وتبع السفينة حوت عظيم... فما إن ألقوا بيونس حتى التقمه الحوت.

وهنا أدرك يونس عليه السلام أنه ما كان عليه ليذر قومه، فضيّق الله عليه، فألهمه الله أن يدعو بهذا الدعاء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ - نضيّق عليه - ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

إنها ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت.

فأوحى الله إلى الحوت، أن خُذْ ولا تَخْدِش لحماً، ولا تكسر عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًّا فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل ـ كما قال الله ـ وهو سقيم[(١)].

فطرح بالعراء وأنبت الله عليه (اليقطينة) وهي شجرة الدّباء فغطت بدنه المهترئ، وحَمَتْه من لهيب الشمس، وأرسل الله إليه أروية ـ أنثى الوعل ـ تتفشخ عليه، فترويه من لبنها كل عشية وبكرة، حتى عاد إلى ما كان عليه وشفي ونما الجلد وحسن حاله.

وصدق الله: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

ثم قال عنه: ﴿فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٥٠].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري وابن كثير في التفسير، والبزار ٢٢٥٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩٨/٧ وصححه.

ثم رجع إلى قومه ففرحوا به وأعلنوا إيمانهم.

## ❑ فضل الدعاء:

قال ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت:** ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **فإنه لم يدعُ بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له**»[١].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، دعوة يونس بن متى**».

قال سعد: فقلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «**هي ليونس خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى:** ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ **فهو شرط من الله لمَن دعاه به**»[٢].

## ❑ شبهة يونس عليه السلام:

قال تعالى عنه في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فليس المعنى أنه عمل عملاً أغضب فيه الله تعالى أو أنه عصى

---

(١) أخرجه الترمذي ٣٥٠٥ والنسائي ١٠٤٩ وأحمد ١٧٠/١ والحاكم ٥٠٥/١ وصححه.

(٢) أخرجه الحاكم ٥٠٥/١ والطبري وابن كثير في تفسير سورة الأنبياء. وانظر قصص الأنبياء لابن كثير.

ربه وخالفه، بل إنه ذهب مغاضباً لقومه، وفارقهم لخوفه من نزول العذاب عليهم بغتة وقد توعدهم بذلك.

وعاتبه الله لعدم صبره عليهم، وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ من التضييق والتشديد لا من القدرة. قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾، فخروجه إذاً هو غضبه من قومه، وضاق بهم صبراً. وأنعم الله عليه من قبل ومن بعد. قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾، وهذا النداء كان في بطن الحوت وهو: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، قال رجل من المسلمين: يا رسول الله، أهي ليونس خاصة أم لسائر المسلمين؟ قال: «**ألا تقرأ ما بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي لسائر المسلمين**».

* * *

## زكريا عليه السلام وابنه يحيى عليه السلام[1]



زكريا ينتهي نسبه إلى جده البعيد رحبعام بن سليمان بن داود عليهم الصلاة والسلام، فهو من أنبياء بني إسرائيل.

تزوج زكريا (أليصَابت)، وعمران أبو مريم عليها السلام أختها (حنَّة) فيكون زكريا عليه السلام زوج خالة مريم عليهم جميعاً السلام.

وكانت (حنَّة) أم مريم من أعبد الناس، كما كان عمران زوجها وأبو مريم من أعبد زمانه، وينتهي نسبه أيضاً إلى رحبعام بن سليمان عليهم السلام.

وكانت الأختان عاقرتين لا تَلِدْن. فرأت أم مريم ذات يوم طائراً يزق (يطعم) فراخه في عشٍّ قريب على شجرة، فتحركت عواطفها واشتهت الولد، فجأرت إلى الله تعالى بالدعاء، وأردفت نذراً لله تعالى إن هي حملت وأنجبت ولداً لتجعلن ولدها خادماً يخدم في (الهيكل) ببيت المقدس. ويحدث ما اشتهت وتمنت، فحملت، ولما وضعت إذا المولود أنثى ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

(١) وردت قصة زكريا ويحيى عليهما السلام في سورة مريم (١ ـ ١٥) وفي آل عمران (٣٧) وفي سورة الأنبياء (٩٠).

وعلمت الخالة ـ أخت (حنَّة) بتفاصيل القصة ـ فألحّت على زوجها زكريا، والله يجيب الدعاء، وأنت من أنبياء الله الصالحين.. فقام من الليل وجأر بالدعاء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾، لقد كبرت وليس لي قدرة على تحمُّل أعباء المشاق وأنت يا الله تعطي وتهب من تشاء ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾، وهم ليسوا بأولاده فلا يؤتمنون على ذريته ودعوته ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾، وحدّد بدعائه إنه يريد ولداً ذكراً، ويرث النبوة كجده الأكبر يعقوب عليه السلام.

وألحّ بالدعاء سراً وعلانية ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٢، ٣].

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩].

ثم أكّد عليه الهاتف قائلاً: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: ٧]، وكانت زوجته عاقراً لا يمكن حسب عُرف الناس أن تحمل، ولكن قدرة الله لا حدود لها ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، فكانت لا تحيض كالنساء، فحاضت. وحملت...

فرح زكريا بالمبشرات ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أعرف بها أن امرأتي ستحمل وتلد يحيى الذي لا سميَّ له ولم يُسَمَّ أحد من قبل بهذا الاسم ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، فلا

تستطيع النطق ثلاثة أيام إلا رمزاً وبالإشارة، وأكثِرْ من الذّكر أنت وأهلك ومحبُوك ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

وكان عمل زكريا عليه السلام النجارة، فقد ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**كان زكريا نجاراً**»[١].

ووهبه الله تعالى (يحيى) الذي كان برًا بوالديه رقيق الطباع ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٤، ١٥]، يقال: إنه جاء دمشق وكان بها حين قتل ابنه يحيى عليهما السلام[٢].

واختلفت الروايات في زكريا عليه السلام. هل مات موتاً أو قُتل قتلاً[٣]؟ على روايتين.

والمرجع (وهب بن منبّه) ففي رواية عنه: أنه هرب من قومه فدخل شجرة فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها. فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ، فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبنّ الأرض ومَن عليها، فسكن أنينه حتى قطع باثنتين[٤].

وقيل: بل مات موتاً طبيعياً، وذلك بعد مقتل ابنه يحيى عليهما السلام[٥].

---

(١) مسلم ٢٣٧٩، وأحمد ٢/٢٩٦، والحاكم ٢/٥٩٠ وغيرهم.
(٢) انظر قصص القرآن لابن كثير ص٣٥٥.
(٣) قيل: قتله الملك هيرودوس لأنه اعترض على مقتل ابنه يحيى وزواج الملك من ابنة أخيه (هيروديا).
(٤) قصص القرآن لابن كثير ص٣٥٩.
(٥) مسند أحمد ١/٢٥٤ ـ ٢٩٢ وذكره الهيثمي في الزوائد ٨/٢٠٩ وقال رجال أحمد رجال الصحيح.

والذي عليه جمهور المفسرين الرواية الأولى، ذلك بأن الملك هيرودوس المعيّن من قبل الرومان هو الذي أمر بقتله، بعد أن عارض الملك هيرودوس، وغضب منه بسبب قتل ابنه يحيى، لأنه لم يوافق على زواج الملك من ابنة أخيه (هيروديا)؛ لأن يحيى عليه السلام كان هو الذي يُجري العقد ويباركه ويعمّد الأطفال المولودين، فلما طلبه جند الملك هرب منهم فنادته شجرة وانفتحت له فعلق طرف ثوبه فعرفوه بذلك فنشروا الشجرة فكان ما كان.

وأما **يحيى عليه السلام**:

فقد علّمه الله تعالى الكتاب والحكمة، منذ نعومة أظفاره وأيام شبابه، وكان طاهر الخلق عفيف النفس، لا يلهو كغيره من الفتيان، تقياً مطيعاً لله تعالى، لم يرتكب إثماً، يحب مرضاة الله ورضا والديه ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾، قال مرة عيسى ليحيى عليه السلام وهما أولاد خالة: يا يحيى، استغفر لي، أنت خير مني فقد سلّم الله عليك.

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أحد من وُلْد آدم إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى**»[1].

قال ﷺ: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطئ، فقال له**

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٨٦٣، أحمد ١٣٠/٤، ابن حبان ٦٢٣٣، الحاكم ١١٧/١.

عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن بلغهن، فقال: يا أخي، أخشى إن سبقتني أن أُعذَّب أو يُخسف بي، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشُّرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عزَّ وجلَّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن. وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مَثَل ذلك مثَلُ من اشترى عبداً من خالص ماله بورِق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده، فأيُّكم يسرُّه أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وآمركم بالصلاة فإن الله ينصِبُ وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام، فإن مَثَل ذلك كمثَل رجل معه صُرَّة من مسكٍ في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مَثَل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدُّوا يده إلى عنقه وقدَّموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه. وآمركم بذكر الله عزَّ وجلَّ كثيراً فإن مثلَ ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصّن فيه، وإن العبد أحصنَ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزَّ وجلَّ»، قال الحارث الأشعري راوي الحديث: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: بالجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإن مَن خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومَن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جِثي جهنم»، قال: يا رسول الله، وإن صام وصلّى؟ قال: «وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم. ادعوا المسلمين بأسمائهم بما

**سمّاهم الله عزَّ وجلَّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزَّ وجلَّ»**[١].

كان يحيى عليه السلام كثير البكاء خوفاً من الله لا يأنس إلى الناس، يحب العزلة عنهم والانفراد، وكان يأنس إلى البراري ويأكل من أوراق الشجر ويشرب من ماء الأنهار.

## ❑ مقتل يحيى عليه السلام:

هناك عدة روايات عن سبب مقتله وهي مع اختلافها تحمل طابعاً واحداً هو أنه لم يرضَ أن يوافق على زواج الملك من ابنة أخيه[٢]... وكانت أمها ترغب بهذا الزواج، ويحيى عليه السلام يأبى ـ وتلك هي شريعة الله ـ فرقصت أمامه بأبهى زينتها، وأَشْرَبَتْه الخمر حتى سكر، فقال لها الملك: تمنّي عليّ، فقالت: رأس يحيى بن زكريا ـ كما علّمتها أمها ـ فقتله الملك، وقيل: إن زوجة الملك عشقت يحيى، فاستعصم ورفض... فطلبت من زوجها الملك أن يقتله فقتله.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/١٣٠)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والحاكم (١/١١٧).

(٢) واسم الملك (هيرودوس) واسم الفتاة (هيروديا).



## مريم عليها السلام أم عيسى عليه السلام

لقد نذرت أمّها نذراً لله تعالى، إن رزقها بولد لتجعلنه خادماً في بيت المقدس.

وأبوها عمران ـ والد مريم ـ ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام.

وكانت أمها (حنَّة) من العابدات الصالحات في بني إسرائيل.

ولما ولدت مريم دعت أمها الله سبحانه بأن يصرف عنها الشيطان فقالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ﴾ [آل عمران: ٣٦، ٣٧].

وخرجت بها أمها إلى المسجد، وسلّمتها إلى العُبَّاد المقيمين فيه فتنازعوا فيما بينهم في أيّهم يكفلها. وكان زكريا هو النبيّ وقتها، فأشار عليهم بالقُرعة، فخرجت من نصيب «زكريا» زوج خالتها.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

واتخذ زكريا لمريم مكاناً خاصاً بها في غرفات المسجد لا يدخل عليها أحد غيره، ولاحظ نبيّ الله زكريا كلما دخل عليها في غرفتها، يجد عندها رزقاً غريباً، وفي غير أوانه ـ فاكهة الصيف في الشتاء،

وفاكهة الشتاء في الصيف ـ فيسألها: يا مريم، ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ فتجيب: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فحرّكت في قلبه شيئين: حب الولد، والضراعة إلى الله ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

وأخذت المبشرات تتوارد على (مريم) ومنها الملائكة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾، اصطفاك من نساء العالمين، وجعلك طاهرة عفيفة والجميع يشهد بذلك، واصطفاك للمعجزة الخارقة، بأن تلدي ولداً، ليس له أب. ونصحوها ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وبينما مريم مستغرقة في الذكر، متفكرة في ملكوت السماوات والأرض، تسبّح الله العزيز القهّار، إذ وقف أمامها جبريل عليه السلام في ثلّة من الملائكة وبشّروها، حتى لا تخاف ولا تخشى ما يحدث ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

لقد أدركت عظم المسؤولية التي تناط بها، وطالما هذه مشيئة الله أن تجري المعجزة الخارقة على يدها ـ طفل بلا أب ـ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧].

استكانت لمشيئة الله وأمره، وسلّمت أمرها لله رب العالمين، ولكن كيف سيحدث هذا؟ وماذا تقول للناس، وهل يصدقونها؟ فكانت تخرج من المسجد تطلب العزلة والبعد عن الناس. وبينما هي قد انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى، إذا بالروح الأمين (جبريل) يظهر لها ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ - جبريل - ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾، فطمأنها المَلَك أن الله بعثه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ زاكياً طاهراً كما قيل لك سابقاً من الملائكة ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٩ - ٢١].

إنها المشيئة الإلٰهية فلا راد لقضائه.

فنفخ جبريل في جيبها، فنزلت النفخة إلى فرجها ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، فالنفخ كان في صدرها (الجيب) ولقد ورد في القرآن كلمة (روحنا) في سورة مريم وفي سورة التحريم.

فالأولى بلفظ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ هنا قطعاً هو جبريل عليه السلام، واللفظ الآخر في سورة التحريم ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي: الروح الذي نفخ الله منه في آدم عليه السلام أول الخَلْق فأصبح إنساناً بعد أن كان مثالاً. وأحدثت النفخة أثرها - السبب والنتيجة - كانت البويضة الحيّة مستعدة للنمو، فمنحتها النفخة الإلٰهية (الحياة وخصائص نمو الجنين) وهذا الذي كان. وجبريل ليس هو الذي ينفخ في الجنين المتطوّر - الروح - بعد الأربعة أشهر من تكوينه، إنما يرسل إليه مَلَكاً بأمره.

أما جبريل فيملك قوة (الحياة) بمشيئة الله. وهذا ما فهمه (السامريّ) اليهودي الذي فهم هذا فقال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأنه لاحظ أن الحياة تدب في كل شيء يلمسه ويحيا

ويخضر وينمو - بلمس جبريل للجماد فيخضر وتدب فيه الحياة - وجبريل هذه المرة نزل بأمر الله بنفسه، فأخذ عيسى من بُعد منه هذه الخاصية: فكان يبرئ الأكمه بلمسه، ويخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله. وهذا ما يقال له: (عالم الغيب) هو عالم الجبروت وموكل به جبريل الروح الأمين عليه السلام.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ حملت به مريم، وشعرت بالحمل فضاقت ذرعاً... فهذه بشائر الحمل وأماراته، فماذا سيقول الناس وهم يقبلون منها ما وعدها الله به. ويقال أن قريباً لها وهو من عباد بني إسرائيل يقال له: يوسف النجار، تنبّه وأدرك أن مريم حامل فعجب من ذلك أشدّ العجب، لما يعلم من تديُّنها وعفّتها، فقال لها معرِّضاً: يا مريم، هل يكون زرع من غير بذر؟ فعرفت مقصده فقالت: نعم. فمَن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم. فمَن خلق الشجر الأول؟ فقال لها: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. قال لها: أخبريني خبرك، فقالت: إن الله بشّرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦]، وعلى الأغلب أنها حملت به كعادة النساء وقيل غير ذلك... ولما شعرت بقرب الوضع ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ إنه الطَّلق وآلامه... استندت إلى جذع نخلة فتذكرت ألسنة الناس ما سيُشاع عنها.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ وهل يشفع لها ما عرفوه عنها من عبادة وعفة وبُعد عن لهو الفتيات والفتيان.

وإذا بصوت يناديها بخفض صوت ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ ولعله صوت جبريل، وهي لا ترى مصدر الصوت أو هو الجنين عيسى.

لا تحزني ولا تتألمي فهذا جدول صغير (سَري) يجري فيه ماء عذب فاشربي منه ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾، وكانت النخلة لا ثمر فيها، فبمجرد لمسك لجذع النخلة سيتساقط الرطب قريباً منك ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾، ثم أخبرها ماذا تصنع بعد ولادة الطفل ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فاصمتي ولا تكلمي أحداً.

ولما طال غياب مريم عن مكان إقامتها، ذهب البعض في طلبها يبحثون عنها، ويا للدهشة فهذه مريم تحمل طفلاً وليداً بين ذراعيها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ لم يتمالك القوم من توجيه اللوم والتهمة لمريم الطاهرة النقية ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أمراً عظيماً ومنكراً، ثم قالوا مذكرين إياها أنها من سلالة الأنبياء والمرسلين خاصة هارون الذي اشتهر بعبادته وطهارته ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾. ولقد تعلمت وعرفت الجواب من قبل ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ فخذوا منه الجواب الشافي، ولكن كيف يجيبنا هذا الطفل الوليد الذي لا يعقل، وما زال رضيعاً، فلِمَ تحيليننا عليه وإذا بالطفل الرضيع يتكلم بفصاحة يجلو التساؤل ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

لقد هتف أمامهم بالعبودية لله ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، والله هو الذي

يهَب النبوة ويُنزل الكتاب على مَن أحب، وأن الله أوصاه بما أمر به المرسلين وعباده الصالحين، وبرًّا بوالدته ولم يقل بوالديّ، تأكيداً أنه ابن مريم عليهما السلام.

وكانت الولادة ببيت لحم قرب بيت المقدس.

❊ ❊ ❊



# عيسى ابن مريم عليه السلام[(١)]

هو السيد المسيح عيسى ابن مريم بنت عمران ويتصل نسب عمران بداود، فعيسى من سبط يهوذا.

أمه مريم بنت عمران الصدِّيقة البتول العذراء الطاهرة، عاشت عيشة الطهر والنزاهة، وكان عمران والدها من علماء بني إسرائيل. ولما بلغت مبلغ النساء جاءها الملك جبريل عليه السلام، وتمثّل لها في صورة إنسان، ففزعت منه[(٢)] وخافت فأخبرها أن الله أرسله إليها ليهب لها غلاماً زكياً فاطمأنت نفسها، وأخبرها أن الله إذا أراد أمراً لا يُعجزه شيء وإنما يقول له كن فيكون، ثم نفخ في جيب قميصها نفخة، فحملت بعيسى[(٣)] ولما قرب موعد الولادة اشتد كربها، وتمنت الموت فأنزل الله سكينته عليها وأمرها أن تهز بإشارة من يدها النخلة، لتأخذ بالأسباب فينزل عليها الرّطب الطيّب والمفيد، وأمرها أن لا تكلم الناس بعد الولادة حتى يظهر الحق.

(١) وردت قصة عيسى عليه السلام في سورة مريم وفي سورة آل عمران (٣٣ ـ ٣٧).

(٢) ارجع إلى الآيات ١٦ ـ ٣٥ من سورة مريم ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ. . . ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

(٣) لا يهمنا معرفة مدّة الحمل أهي سويعات أم أيام أم شهور. . . ولعله أيام.

وكان ميلاد عيسى عليه السلام قبل مولد الرسول الأعظم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بحوالي ٥٧٠ عام في قرية تسمى بيت لحم.

وكان هناك في الزمن الذي ولد فيه المسيح حاكم ظالم يسمى هيرودوس، وقد علم هذا الحاكم بولادة مولود سيكون له سلطان على جميع اليهود فأمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم، وكان هناك رجل صالح من بني إسرائيل هو يوسف النجار وهو من أقرباء مريم قد أمره الله في منامه، أن يذهب بالطفل عيسى وأمه إلى مصر، خشية على عيسى من بطش هيرودوس، فأقاموا بمصر إلى أن هلك هيردوس ثم عادوا إلى بيت لحم.

ولما بلغ عيسى من العمر ثلاثين عاماً أوحى الله إليه بالرسالة ونزل روح القدس جبريل عليه السلام بكتاب الله المقدّس المسمى (الإنجيل) الذي حرّفه النصارى بعد ذلك وبدّلوا ما فيه من الحقائق بأن عيسى نبيّ من أنبياء الله، والبشارة بقدوم النبيّ محمد ﷺ وغيرها من الأمور التي أنكروها وحرّفوها. وقام المسيح يدعو الناس إلى دين الحق في مجتمع يهودي دخلت فيه انحرافات كثيرة، وخرافات وأباطيل، بسبب طغيانهم وكفرهم، وتمردهم على الشريعة الربانية، المنزَلة على موسى عليه السلام، فبعث الله لهم عيسى عليه السلام ليردهم إلى الطريق الصحيح ويعلمهم ما أنزل إليهم من أحكام تشريعية جديدة. وتتضمن دعوة عيسى عليه السلام:

- توحيد الله تعالى.

- إثبات البعث واليوم الآخر.

- الدعوة إلى الأخلاق.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

وقد أجرى الله على يد عيسى عليه السلام المعجزات الباهرة تصديقاً لنبوته وتأييداً لرسالته فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وينبئ القوم بما معهم وما في بيوتهم وذلك كله من علم الله. وصدَّق المسيحَ طائفةٌ قليلة فقط من اليهود تعنتاً واستكباراً ولاقى أثناء دعوته التي استمرت ثلاث سنوات أهوالاً وشدائد وقرّر اليهود التخلص من المسيح لما رأوا في هذا الدين الجديد من تقليص لنفوذهم وعودة إلى الفضائل والأخلاق التي لا يريدون التحلي بها لانحراف فطرتهم، واستفحال شرهم، فسعوا به إلى الحاكم الروماني بيلاطس البزنطي، الذي كان حاكماً على اليهود باسم الملك قيصر، وزيّنوا له وأوغروا صدره، حتى قرر أن يتخلص من عيسى عليه السلام بالقتل والصلب.

وأفتى لهم رئيس كهنة (اليهود) بجواز قتله واسمه (قيافا) قائلاً: لأن يموت رجل واحد، خير من أن يموت الشعب بأسره.

وعلم عيسى بمكر القوم، فاختفى عن أعين الرقباء، وكان من ضمن تلاميذه (الحواريين) رجل خائن اسمه يهوذا الإسخريوطي الذي

دلّ الشرط على مكان عيسى مقابل دريهمات معدودة، وقال لهم: انتظروا حتى أدخل إليه، ثم تهجموا عليه.

فرفع الله تعالى المسيح إليه وألقى شبه المسيح على هذا الخائن، فأخذوه بدل المسيح وصلبوه ظناً منهم أنه المسيح ﴿وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وكان عمر عيسى عليه السلام حين رفعه إليه **٣٣** سنة فتكون مدة دعوته ثلاث سنوات، لأن بعثته في الثلاثين من عمره ولم تنتهِ مهمة المسيح بعد، وسينزل إلى الأرض ليتم رسالته وسيحكم بشريعة القرآن، فلا يقبل من أحد إلا الإسلام، وقد جاء في الحديث الشريف للصادق المصدوق محمد، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكماً مقسطاً وإماماً عادلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**».

**❑ الذين تكلموا في المهد ثلاثة:**

جاء في الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج، كان يصلي إذ جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللَّهمَّ لا تُمِتْه حتى تريَه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعة، فعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقيل لها ممن؟ قالت: من جريج. فأتوه وكسروا صَوْمعته فأنزلوه، وسبُّوه، فتوضأ وصلّى، ثم أتى الغلام فقال: مَن أبوك يا غلام؟ قال: فلان الراعي، قالوا: أنبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين. وكانت امرأة تُرضع ابناً لها في بني إسرائيل، فمرّ بها رجل**

راكب ذو شارة، فقالت: اللَّهمَّ اجعل ابني مثله. فترك ثديها، وأقبل على الراكب، فقال: اللَّهمَّ لا تجعلني مثلَه. ثم أقبل على ثديها يمصه».

قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبيّ ﷺ يمصّ أصبعه (ثم مرّ بأمةٍ فقالت: اللَّهمَّ لا تجعل ابني مثل هذه. فترك ثديها. فقال: اللَّهمَّ اجعلني مثلها. فقالت: لمَ ذلك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت وزنيت ولم تفعل)[1].



(١) البخاري ٣٤٣٦، ومسلم ٢٥٥٠، وأحمد ٤٣٣/٢.

## رسالة الإسلام

## وتعريف بالرسول محمد ﷺ



رأينا أن ننقل هنا في هذا الكتاب بعضاً مما أوردناه في كتابنا (مقارنة الأديان) لعموم الفائدة.

فنتكلم عن الرسالة أنها خاتمة الشرائع، أكمل الله بها الدين بمفهومه العام.

ثم نتكلم عن تعريف الإسلام.

ثم عن نبيّ الإسلام محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام.

ثم لمحة عن حياته وأسلوبه بالدعوة وقتاله المشركين.

ثم بعض معجزاته وشيء من كلامه البليغ.

ثم من شمائله وأخلاقه ﷺ وحياته المعيشية.

وأخيراً عن عصمته ﷺ.



## رسالة الإسلام خاتمة الشرائع

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: **«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنة، فأنا اللبِنَة وأنا خاتم النبيين»**(١).

ورسالة الإسلام ناسخة لما قبلها من الديانات، فمَن وصلته رسالة الإسلام فعليه الإيمان به، والتصديق به، لأنه شامل لكل ما في الديانات من عقائد ثابتة أنزلها الله تعالى وشرائع أساسية ومكارم الأخلاق.

وصرّح القرآن الكريم أن الله تعالى أخذ العهد على الرسل السابقين، ليبلغوا أقوامهم بأن يؤمنوا بالرسول النبيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

ويوم الحج الأكبر، وفي عرفات، يوم الجمعة، نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ﴾ [المائدة: ٣].

والإسلام: هو الاستسلام والخضوع والإخلاص لله رب العالمين.

---

(١) البخاري ٣٥٣٤، ومسلم ٢٢٨٦.

والسلام: اسم من أسماء الله تعالى، والجنة: هي دار السلام.

فالله سبحانه حينما خلق الخلق، وأراد لهم حياة طيبة دائمة، ومنهجاً سعيداً، جعل لهم أنبياء ورسلاً على مدى السنين والأعوام، حتى ينضج الفكر البشري، وتكون مستعدة لاستقبال دين يجمع كل ما جاءت به الأنبياء والرسل، من الأصول في العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريعات والقوانين، بشكل يصلح لكل زمان ومكان، ولكل الشعوب، بينما كانت تلك الدعوات مخصوصة بأقوام معينين، وفي أزمنة خاصة، وساعة إرسال كلّ نبيّ ورسول آتاه الله الكتاب والحكمة، أخذ الله العهد عليه بأن يكون هو ومَن معه من المؤمنين به في نصرة الرسول الجديد، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

فالأنبياء يشهد بعضهم على بعض وعلى أممهم، والله يشهد على الجميع، ولو عمل أتباع كل نبيّ بهذا العهد والميثاق، لما كان هناك خلاف وتعصُّب ديني بين أصحاب الديانات والشعوب المتّبعة للرسل.

وإذا وجدنا جماعة يتعصبون لدين من الأديان، فلنعلم أنهم خانوا العهد، إذ لا يصح أن يتعصب رسول لنفسه، ولا لقوميته ولا لبيئته، ولا يتعصب جماعة وأقوام رسول لملتهم أو نحلتهم، لأن الجميع مبلغون عن إله واحد، والمنهج واحد، وموكب الرسالات موكباً متلاحماً متعاضداً، فلا تناحر ولا تصادم.

فالأديان كلها جاءت بقضايا متفق عليها ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا

وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وإقامة الدين: هو شرع الوقت في كل زمان ومِلَّة، فنجتمع عليه ولا نتفرق، فإن يد الله على الجماعة، ومع الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ومع كثرة صفات الله وأسمائه فالذات واحدة، والقائمون على الدين إذا اجتمعوا عليه ولم يتفرقوا لا يقهرهم عدو أبداً، وكذا الإنسان إذا اجتمع في نفسه على إقامة دين الله لم يغلبه شيطان الإنس والجن.

فالعقائد واحدة: الإيمان بالله وحده، وبملائكته، ورسله، والبعث يوم القيامة والجنة والنار، بعد الحساب العادل.

والأخبار واحدة، والقصص لا تتغير، فلا تعرض في كتاب غير عرضها في كتاب منزل آخر، إلا بالأسلوب للبيان والتفصيل.

والأخلاق تبقى واحدة في كل الديانات: فالصدق والكذب لا يتغير مفهومهما، والأمر بهما من دين إلى دين، والخيانة والغلول والرشوة هي نفسها في كل الشرائع، والقتل والزنى وأكل أموال الناس بالباطل، والربا والفواحش. . .

إلى غير ذلك تبقى كلها في مفهوم واحد في الحِل والتحريم.

وأما الحكم التشريعي، فهذا الذي قد يتغير زمناً ومكاناً، لأن التشريعات شرعها الله لصالح العباد ورحمة بهم، والأصل في ذلك الرحمة بالناس، وحب الخير للجميع.

وقد نرى اختلافاً بين الأديان، واختلافاً بين أصحاب الديانات، والسبب في ذلك يرجع إلى التحريف، والتبديل في التشريع والنصوص، كما رأينا من قبل، قام بذلك المستفيدون أو المغرضون من الناقمين والمتعصبين. فأصحاب السلطة الزمنية والكهنوتية خافوا على مراكزهم التي كانوا من خلالها يستبيحون لأنفسهم ما حرّم الله، وأكل أموال الناس بالباطل، فحاربوا الرسالات، مع علمهم أنها يقيناً من الله، وأن الدعاة إليها هم رسل الله كما حدث مع عيسى ومحمد عليهما السلام.

فالله دعوته واحدة ورأفته بالعباد شاملة، جاء في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى:

**«يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا.**

**يا عبادي، كلكم ضالٌ إلا مَن هديته، فاستهدوني أهدكم.**

**يا عبادي، كلكم جائعٌ إلا مَن أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.**

**يا عبادي، كلكم عار إلا مَن كسوته، فاستكسوني أكسكم.**

**يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.**

**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.**

**يا عبادي، لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.**

**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.**

**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدْخِل البحر.**

**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمَن وجد خيراً فليحمد الله، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».**

## ❑ تعريف الإسلام:

الإسلام دين ختم الله به الشرائع والرسالات، أنزله الله تعالى على الرسول محمد ﷺ المعروف في قومه بعلو نسبه، وشرفه وصدقه وأمانته.

والإسلام يعني الامتثال والانقياد لله رب العالمين ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

فالإيمان غير الإسلام.

فالإيمان: هو اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

فعلى المسلم التصديق جازماً بكل ما جاء به رسول الله ﷺ مما

علم من الدين بالضرورة، ومنه التصديق بعالم الغيب والشهادة ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والاستسلام الكامل والانقياد التام والطاعة المطلقة والاستجابة لكل ما نزل من القرآن أو جاء به الرسول ﷺ، يلخص ذلك الحديث الذي أورده أصحاب الصحاح عن عمر رضي الله عنه حيث قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبيّ ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ قال: **«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»**، قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**.

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: **«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»**.

قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: **«أن تلد الأمة ربَّتها وأن ترى الحفاة العراة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان»**.

قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال: **«يا عمر أتدري مَن السائل؟»**، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه جبريل أتاكم**

يعلّمكم دينكم»[١].

حيث جاء الوحي جبريل بصفة رجل أعرابي لم يعرفه أحد من الصحابة، وجلس بأدب المتعلّم المستمع لأستاذه يسأل عن الإيمان والإسلام وعن مرتبة تزكية النفس وتطهير القلب من الأدران، وتلك مرتبة الإحسان.

### ❑ وهذه الرسالة:

هي خلاصة فحوى الرسالات المنزلة، ومكملة لما جاء به الرسل، بشكل كامل وشامل وسليم، على مراحل تدريجية في التشريعات، كتحريم الخمر والواجبات والمحرمات، وفيها عدم تكليف ما لا يطاق، وعدم الحرج والتيسير، بشكل إذا ضاق الأمر اتّسع، ففي التشريع تبيان لكل شيء، ما من مسألة من المسائل أو مشكلة من المشاكل إلا ولله حكم ظاهر وواضح، أو هناك ما يشبهه، فيقاس عليه أو يرجع إلى أصل من الأصول الكلية فيفرع عليها. قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وقال: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

والمسلمون جميعاً متفقون على هذا الفهم لا التباس في ذلك.

وكل المسلمين لا يرضون إلا بشرع الله وحكمه، وإن كانت الحقوق المدنية تبيح لهم ما حرّم الله، فالمسلم الحق هو الذي يطيع أمر الله.

---

(١) مسلم وأصحاب السنن.

فإذا أشكل على المسلم أمرٌ سرعان ما يهرع إلى مَن يسأله من أهل العلم والتقوى، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وهم المجتهدون والفقهاء من السادة العلماء.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، لذا نقول بتجرد ونزاهة: ما من قضية إلا ولله فيها حكم، وهذا الحكم شامل وسليم فلا نجد حاجة أن نفتش لها عن حكم في غير شرع الله، ففي الشرع حكم صريح أو يحتاج إلى استنباط ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

والمسلمون يتفاعلون مع أحكام الله كلياً، يتفق عملهم وسلوكهم مع إسلامهم وأوامره، فالذي يخشع في صلاته يحسن التعامل والسلوك مع الآخرين ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وكان خلقه ﷺ القرآن.

وقال محذّراً الذين لا تتوافق ظواهر أعمالهم مع ما يأمرهم به إيمانهم وإسلامهم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥].

والمسلم يعتقد اعتقاداً جازماً في أي أمر، أن حكم الله هو العدالة والأحسن ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:

١٣٨]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

والمسلمون مُحَصَّنون في عقيدتهم، وعندهم مناعة لا يستكينون ولا يحزنون على شيء، مستسلمون لقضاء الله وأمره، لا يرتابون ولا يتشككون في نصرٍ أو هزيمة، في مغنم أو مصيبة.

ويشكل المجتمع الإسلامي أمةً واحدةً، عقيدةً واحدة، وتاريخاً واحداً، وكتاباً واحداً، وسلوكاً واحداً، وأخلاقاً موحَّدة، المسلم أينما وُجد يُحَيّي بتحية الإسلام، ويشعر بالمودة والإخاء، والمحبة تجاه الآخرين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وبالتالي يشكل صخرة عاتية تجاه المؤامرات، والشعارات الزائفة، يملك من حب التضحية ما لا تملكه أمة أخرى، لأنه سبيل الله ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وحينما كانوا على هذه الشاكلة، وتآمر العالم ضدَّهم، من فرس ورومان ومشركين ويهود، تحطمت قواهم على صخرة الإسلام العاتية.

### ❑ نبيّ الإسلام ورسوله:

هو محمد بن عبد المطلب بن هاشم، سيد قبيلة قريش، وينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليهم أفضل الصلاة والتسليم، ولد بمكة (٥٣ق.هـ = ٥٧١ ـ ٦٣٣م) نشأ يتيماً، إذ توفي أبوه وأمه به حامل، ربّته أمه (آمنة بنت وهب) وماتت وعمره وقتئذ ست سنين،

فكفله جده (عبد المطلب) سيد قريش، ولكن ما لبث أن مات جده بعد سنتين، فكفله عمّه أبو طالب.

نشأ شجاعاً، عالي الهمة، صادقاً، فاضل الأخلاق، لقبه قومه بالأمين، ولما بلغ الخامسة والعشرين، زوّجه عمه بخديجة بنت خويلد الأسدية القريشية، ولما بلغ الأربعين من عمره بُدئ بالرؤيا الصادقة، وحبّب إليه الخلوة في غار حراء قرب مكة، يتفكر في الملك والملكوت، وهذا الكون، فكان يقضي الليالي ذوات العَدَد، يُحمل إليه الطعام والشراب، حتى إذا كان يومٌ من أيام رمضان، جاءه الوحي على هيأته، رأسه في السماء وقدماه في الأرض، وأجنحته تملأ الآفاق، فذعر وارتعدت فرائصه، فهتف به الملَك، إقرأ! فأجاب: «**لست بقارئ**»، وبعد أن ضمَّه إلى صدره أطلقه وقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، فأجاب: «**لست بقارئ**»، وبعد أن ضمَّه إلى صدره وأطلقه قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١ - ٣].

يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، ثم بلّغه أنه رسول ربّ العالمين، فشرع يدعو من حوله سرًا إلى شرع الله، وأنه رسول الله، فآمنت به زوجته خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، وصديقه أبو بكر، ثم جماعة من قومه، ثم صدع بأمر ربه فجهر بالدعوة وكانت سراً.

فأعلن وجوب الإيمان بالله وحده، ونبذ عبادة الأوثان والأصنام، هزأت به وبدعوته قريش، وآذوه وسخروا بدعوته، فصبر فأعلن عمه أبو طالب حمايته.

وانتشر الإسلام ببطء شديد، تحت ضغط قريش، وإيذائهم لمن يسلم، فعذبوا ياسرَ وزوجتَه حتى الموت، وآذوا عماراً ابنهما، وعذبوا بلالاً وابنَ مسعود وخبَّاب بن الأرتّ وكثيرين، ومع ذلك أسلم عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب، وعثمان بن عفان، وعبدالرحمٰن بن عوف، وهذان من الأثرياء، فقويت الدعوة بهؤلاء، وفي المقابل اشتد أذى قريش لمن ليس له عشيرة تحميه، فهاجر المسلمون المستضعفون إلى الحبشة، ومن بعد ذلك أسلم بمكة ستة من الأوس والخزرج، من أهل المدينة، وفي السنة المقبلة جاءه منها اثنا عشر رجلاً فآمنوا بالرسالة، فبعث معهم (مصعب بن عمير) ليعلّمهم شريعة الإسلام، ويُقرئهم القرآن، فانتشر الإسلام في المدينة، وفي موسم الحج، وكان العرب قبل الإسلام يحجُون إلى مكة، فدعوا رسول الله ﷺ إلى الهجرة إليهم، وبايعوه عند العقبة ـ قرب رمي الجمار ـ وعاهدوه على الدفاع عنه، وعمّن يهاجر إليهم، فأمر الصحابة بالهجرة إلى المدينة، لتأسيس دولة الإسلام هناك، ودخل المدينة مهاجراً.

وأول عمل قام به: آخى بين المسلمين، وخاصة المهاجرين والأنصار، تطبيقاً للمبدأ (إنما المسلمون إخوة) وطلب من اليهود المقيمين حول المدينة توقيع معاهدة سلام وميثاق يتعاهد الجميع، المسلمون وغيرهم، أن يكونوا يداً واحداً على مَن سواهم، ولا غدر ولا خيانة، وعلى أن يعيش الجميع بسلام آمنين، وبنى المسجد النبوي ليكون مقراً للتجمُّع والقيادة والتعليم.

كان ذلك عام **٦٢٢م** وسميت تلك السنة بأول سنة في التاريخ الهجري.

## الإذن بالقتال:

لم يترك المشركون ـ وهذا اللقب يطلق على غير المسلمين اليهود والنصارى ـ لم يَدَعُوا المسلمين وشأنهم، فأذن الله للمسلمين بالقتال، فنزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

فكانت السرايا والغزوات والمعارك، واتفق المؤرخون المسلمون على تسمية السّرية: الفرقة التي يرسلها النبيّ بالقيام بمهمة في جهة ما، والغزوة: بالحرب أو الحملة العسكرية التي يشترك فيها شخصياً رسول الله.

وسبقت الغزوات والمعارك سرايا كثيرة ليس الآن مجال ذكرها.

## الغزوات والمعارك:

١ ـ غزوة بدر على بُعد ١٦٠ كم من المدينة عند ماء بدر، وكانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة.

٢ ـ وتلتها غزوة بني قينقاع، وهم من اليهود، نقضوا العهد، وحاولوا الغدر برسول الله ﷺ فأخرجهم من ديارهم.

٣ ـ غزوة أُحد وكانت في السنة الثالثة وهي قرب جبل أُحد، شمالي المدينة.

٤ ـ غزوة بدر الثانية وتسمى (ذات الرقاع) ولم يكن فيها حرب.

٥ ـ غزوة الخندق في السنة الخامسة إذ جاء المشركون بتحريض

اليهود والمشركين والمنافقين، فحفر المسلمون الخندق في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وكان الطريق الذي يسلكه الجيش إلى المدينة.

٦ ـ وفي نفس السنة بعد رحيل المشركين، حاصر المسلمون (بني قريظة) وهم من اليهود لنقضهم العهد، وإعلانهم الحرب على المسلمين أثناء حصار الخندق.

٧ ـ وفي السنة السادسة غزا قبيلة غطفان وتدعى (غزوة ذي قَرَدْ) وفي هذه السنة أرسل النبيّ ﷺ برسائل إلى كسرى ملك الفرس، وقيصر الروم، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، والحارث الغساني بالشام، يدعو برسائله هؤلاء الملوك إلى الإسلام.

٨ ـ وفي السنة السابعة كانت غزوة خيبر وبعد حصارها تمّ فتحها.

٩ ـ وفي السنة الثامنة (غزوة مؤتة) في تخوم بلاد الشام، وفيها تمّ فتح مكة (عاصمة المشركين)، ثم غزوة (حنين) وفتح الطائف.

١٠ ـ وفي السنة التاسعة كانت غزوة تبوك.

١١ ـ وفي السنة العاشرة، أقبلت وفود العرب قاطبة على المدينة معلنة إسلام قبائلها.

فبعث ﷺ علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل إلى اليمن لتعليمهم الإسلام، وتبليغهم الرسالة، وتحفيظهم القرآن الكريم، فأسلم ملك حمير، وملك اليمن، وأسلمت همدان أكبر القبائل.

وفي هذه السنة حجّ ﷺ وتسمّى حجة الوداع، والحج الأكبر، وخطب في عرفات يوم عرفة الخطبة المشهورة وهو على ناقته ﷺ مبيّناً للناس أمور دينهم وموصياً بالنساء خيراً.

وبعد رجوعه ﷺ إلى المدينة بأشهر في أواخر صفر، وعك ﷺ وأصابته حمّى شديدة امتدت إلى الثاني عشر من شهر ربيع الأول حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى، ودفن في غرفة عائشة رضي الله عنها، وكان قد نزل عليه في عرفة قوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وذلك في يوم الجمعة.

## ❑ معجزاته:

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة يجريها الله سبحانه على مدّعي النبوة والرسالة تصديقاً لرسالته.

والمعجزات كثيرة جمعت في كتب ومؤلفات وأعظمها:

المعجزة الخالدة ـ القرآن الكريم ـ الذي لا يزال إلى اليوم معجزاً في آياته المحكمة، وكلماته المفصلة، وبلاغته التي تبهر العقول، وفصاحته التي أدهشت فصحاء العرب، والشعراء، وفحول الخطباء، وقصص الغابرين من الأمم والأقوام والرسل، والحوادث، وتحدّى الفصحاء العرب أن يأتوا بمثله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

بل تحدّاهم أن يأتوا بعشر سُوَرٍ فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، ولا يزال التحدي قائماً إلى أبد الدهر، وتحدّى أهل الكتاب فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

أما باقي المعجزات فنُجمل بعضها:

انشقاق القمر. ونبع الماء من بين أصابعه أكثر من مرة، فشرب القوم وملؤوا آنيتهم وأوعيتهم. وتفجير الماء في البُرَك والينابيع بمسّه ودعوته أو بمجّة في الماء. وتكثير الطعام يوم الخندق كما في الصحاح من حديث جابر بن عبدالله. وحنين الجذع الذي يخطب عليه يوم الجمعة. وكذا إبراء المرضى، وردُّ عين قتادة بن النعمان بن أن قلعت يوم أُحد، فكانت أحسن عينيه. وشفاء علي بن أبي طالب من الرَّمَد الشديد يوم خيبر، وأعطاه الراية وبشّره بفتح حصن خيبر. ومَن أراد الاستزادة فليراجع كتب السيرة، معجزات الرسول ﷺ، ويكفي هذه الآية التي أسلم بعض المستشرقين والأمريكيين حين سمعوا بها وهي ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فقال لحرّاسه: «**انصرفوا فقد عصمني الله**»، فقالوا: لو كان كاذباً على أحد لما كذب على نفسه.

### ❑ من كلامه البليغ الفصيح:

- **المستشار مؤتَمَن.**

- **رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم.**

- **أسْلِمْ تسلَم.**

**ـ إنّ أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون.**

**ـ اتقِ الله حيثما كنت.**

**ـ أحبّ الجهاد إلى الله كلمة حق عند سلطان جائر.**

**ـ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.**

**ـ الجنة تحت أقدام الأمهات.**

**ـ طلب العلم فريضة على كل مسلم.**

**ـ أحبِب حبيبك هوْناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.**

### ❑ أسرته:

تزوج بخديجة رضي الله عنها، ولم يتزوج عليها إلى يوم أن توفيت سنة **٣**ق.هـ، توفي كل أولاده منها في حياته ﷺ، سوى فاطمة رضي الله عنها التي تزوجها علي بن أبي طالب فأنجبت له: الحسن والحسين.

وكان عدد صحابته يوم توفي ﷺ **(١٢٤٠٠٠)** صحابياً رضي الله عنهم.

### ❑ انتشار الإسلام والدعوة إليه:

لم يمضِ قرن من الزمن حتى انتشر الإسلام في آسيا وإفريقيا

وأوروبا حتى كاد أن يصل إلى قلب فرنسا، وكما قيل: لولا تخاذل المسلمين وانقسامهم ورجوعهم إلى العصبيات، وتجمع أوروبا تحت إمرة البابا، لأصبحت أوروبا مسلمة[1]، والسبب بسيط جداً: الدعوة هي دعوة إبراهيم والأنبياء من قبل في رونقها وجوهرها دونما حاجة إلى وساطة كهّان، وطبقة رجال دين، وصكوك غفران. وتدعو الدعوة إلى الأخلاق السامية، وكظم الغيظ، والمحبة، والصفح الجميل، ومعاملة الناس جميعاً بشعار: كلكم لآدم، والناس إخوة فيما بينهم، ولا يمنعن إنسان آخر حقّه وحريته لاختلاف في العقيدة أو الرأي «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، «الإنسان أخ الإنسان».

والنبيّ ﷺ كان جادًا في دعوته، لم يرد الملك والجاه، وقد عرضوا عليه ذلك. ولا المال، وقد عرضوا عليه أن يكون أغنى رجل في العالم مقابل السكوت عن هذه الدعوة فقال: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه**».

وكان ﷺ متواضعاً يقول: «**لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم لملوكهم فلست بملك وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة**»، ويتلو عليهم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

## أركان الإسلام:

أركان الإسلام خمسة «**بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم**

(١) الموسوعة السياسية ١٤/٦ بتصرف.

**رمضان، وحج البيت مَن استطاع إليه سبيلاً».**

وأما أركان الإيمان فهي: الإيمان بالله وبالرسل جميعاً، وبالكتب المنزَلة من الله عزَّ وجلَّ، وبالملائكة وهي من عالم الغيب، والإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء والحساب، وبالقدر خيره وشره.

ومَن أراد الزيادة في الفهم والمعرفة فليرجع إلى شروح الإسلام ومقاصده، والتفاسير، والأحاديث النبوية، فيجد دين الإسلام هو دين الفطرة.

**❑ أخلاقه:**

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

حيث أقسم الله تعالى بحياته ﷺ.

وروى الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه قوله: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً» وقال ﷺ: **«إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**.

وجمع الله له جميع المحاسن والفضائل الظاهرة والباطنة، في خلقه وأخلاقه، ورجاحة عقله، وفصاحة كلامه، وحسن عشرته وسياسته، وكما قالت عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن أخلاقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن». وقال ابن عباس رضي الله عنه: «كان ﷺ أفلج الثنيتين إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه، وكان أفصح

الناس كلاماً مع سلامة طبع، وصحة معان، وقلة تكلُّف، يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم».

قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان ﷺ ليسرد سردكم هذا، كان يحدّث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه، وكان يعيد الكلمة لتُفهم عنه.

واجتمع له ﷺ فصاحة البادية وقوة نطقها إلى بلاغة الحاضرة إلى التأييد الإلٰهي بالوحي. قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك. قال: **«أدّبني ربي، ونشأت في بني سعد بن بكر وهم قوم حليمة أهل بادية»**. وأعطي ﷺ ما لم يُعطَ نبيّ غيره. ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما قالا أن رسول الله ﷺ قال: **«أُعطيت خمساً** ـ وفي بعضها ـ **ستًا لم يُعطَهن نبيّ قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل أدركته الصلاة فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لنبيّ قبلي، وبُعثت إلى الناس كافة، وأُعطيت الشفاعة** ـ وفي رواية ـ **وأُعطيت جوامع الكلم، وختم بي النبيون»**.

وكان ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه، ويقول: **«السلام عليكم»**، مرتين أو ثلاثاً، وذلك لئلا ينظر ما في داخل البيت، وكان إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول: **«باسمك اللَّهمَّ، اللَّهمَّ أسلمت نفسي إليك وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبك إليك، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت»**، رواه البخاري.

وكان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفَّيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. (رواه البخاري ومسلم عن عائشة).

وقال لعلي وفاطمة رضي الله عنهما: «**إذا أويتما إلى فراشكما** ـ أو ـ **إذا أخذتما مضجعكما فكبِّرا ثلاثاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين**»، رواه البخاري ومسلم.

وكان إذا استيقظ يقول: «**اللّهمَّ بك أصبحنا، وبك أمسينا وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور**».

ويكثر من سيد الاستغفار: «**اللّهمَّ أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أعوذ بك من شر ما صنعت**».

ويقول صباح مساء: «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**» ثلاث مرات.

«**رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً**» رواه الترمذي.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «لم يكن النبيّ ﷺ فاحشاً ولا متفحّشاً، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، وما لعن مسلماً بذكر اسمه، وما انتقم لنفسه من شيء إلا أن تُنتهك حرمات الله فينتقم لله».

وقد خيَّره ربه سبحانه وتعالى بين أن يكون نبيّاً ملكاً أو نبيّاً عبداً، فاختار أن يكون نبيّاً عبداً، فأعطاه الله بتواضعه أن جعله أول مَن تنشق عنه الأرض وأول شافع ومشفّع.

وقال أنس رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لِمَ تركته.

وقال رضي الله عنه: كنت أمشي مع النبيّ ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتقه، وقد أثرت فيه حاشية البرد، من شدة جبذته ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي أعطاك. فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.

وروى الحاكم والبيهقي عن علي رضي الله عنه أن يهودياً كان له على رسول الله ﷺ دنانير، فجاءه يتقاضاه، فقال له: «**ما عندي ما أعطيك**»، قال اليهودي: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني. فجلس معه فصلّى النبيّ ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء والغداة، وكان أصحابه ﷺ يتهددون اليهودي ويتوعدونه ويقولون: يا رسول الله، يهودي يحبسك؟ قال: «**منعني ربي أن أظلم معاهداً**»، فلما ترحّل النهار أسلم اليهودي وقال: شطر مالي في سبيل الله. أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة: محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، ومُلكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا متزيّن بالفحشاء ولا قوّال للخنا[1].

---

(١) طريقة المتقين.

وكان ﷺ حسن العشرة، دائم البشر، أوسع الناس صدراً، وأحسنهم ملتقى، يعطي كل جلسائه بنصيبه من الأنس، يحسب جليسه أنه أودّ الناس وأكرمهم عنده.

كان في البادية رجل يسمى زهيراً يهادي النبيّ ﷺ بموجود البادية وبما يستطرف منها، فيكافئه بموجود الحاضرة، ووجد رسول الله ﷺ يوماً زهيراً قائماً في السوق فجاءه من خلفه، وضمّ بيديه على عينَيْ زهير فعرفه زهير، فجعل يمسح ظهره في صدر رسول الله ﷺ رجاء بركته، فقال: «**مَن يشتري العبد؟**»، فقال: إذن تجدني كاسداً يا رسول الله. فقال: «**أنت عند الله لست بكاسد**».

ومع لطفه ﷺ ومؤانسته، ألقيت عليه المهابة والجلال، يهابه مَن يراه، بديهة، لا ترتفع في مجلسه الأصوات، بل كان أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير.

ومع حُسن معاشرته، لين الجانب، يطعم الطعام، ويفشي السلام ويعود المرضى.

من أقواله ﷺ: «**اصنع المعروف إلى مَن هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله**».

وسئل أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام وتقرأ السلام على مَن عرفت ومَن لم تعرف**».

وكان يأمر بحُسن الجوار مسلماً كان أو غير ذلك.

قال ﷺ: «**الجيران ثلاثة: فجار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فأما الذي له حق واحد: فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار. وأما الذي له حقان: فجار مسلم له حق الجوار، وحق الإسلام. وأما الذي له ثلاثة حقوق: فجار مسلم وذو رحم، له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم**»، وهو القائل: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جاره**».

وعن عائشة وابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**».

وعن معاوية بن حَيْدَة قلت: يا رسول الله ما حق الجار على جاره؟ قال: «**إن مرض عدته، وإن مات شيعته، وإن استقرضك أقرضته، وإن أعوز سترته**». وفي رواية: «**وإن استعانك أعنته، وإن احتاج أعطيته، هل تفقهون ما أقول لكم؟ لن يؤدي حق الجار إلا قليل ممن رحم ربي**». وفي رواية: «**وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزّيته، وإن مات اتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بفائح قدرك إلا أن تفرغ له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهدِ له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سرًا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده**».

قال عقبة بن الحارث: صلّى بنا رسول الله ﷺ العصر فأسرع وأقبل يشق الناس من سرعته، ودخل إلى بيته، ثم لم يكن بأوشك من أن خرج، فقال: «**ذكرت شيئاً من تبرٍ كان عندي، فخشيت أن يحبسني فقسمته**»، فهل ترك لنفسه وأهله منه شيئاً لنفقته ونفقة عياله؟

تقول عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثاً

حتى قضى سبيله، وما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا إحداهما تمر. أليس هو القائل: «**مَن أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**».

وسأل رجل عبدالله بن عمرو بن العاص فقال له: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبدالله: ألك زوجة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال الرجل: فإن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك.

وكان ﷺ يريد من أصحابه إلى جانب زهدهم بالدنيا قناعتهم بما قسم الله لهم بعد تعاطيهم الأسباب. ويحثُّهم على العمل والكسب الحلال ويقول لهم: «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده**»، وجاءه رجل من الأنصار يسأله مالاً، فقال له: «**أما في بيتك شيء؟**»، قال: بلى حِلْس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء. فقال له: «**آتني بهما**»، فأخذهما ﷺ بيده وقال: «**مَن يشتري هذين؟**»، قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال رسول الله ﷺ: «**مَن يزيد على درهم؟**»، مرتين أو ثلاثاً. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الرجل وقال: «**اشترِ بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشترِ بالآخر قدُوماً فائتني به**»، فأتاه به فشدّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده ثم قال: «**اذهب فاحتطب وبع فلا أرينك خمسة عشر يوماً**» ففعل. ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة**».

وحين نتكلم عن زهد رسول الله ﷺ ليس معنى ذلك تحريم ما

أحلّ الله لعباده من متاع الحياة الدنيا وزينتها، ولكن بإضاعة المال في غير طريقه، وإلى جانب هذه الزهادة في الملبس والمطعم والفراش والسكن كان ﷺ نظيفاً يحب النظافة والهيئة الحسنة.

قال ﷺ: «**إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكريم، جواد يحب الجواد، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبّهوا باليهود**».

ذكر ﷺ ـ وهو في مرض موته ـ أن في بيته سبعة دنانير، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها، فنسوا لاشتغالهم بمرضه، وأفاق قبيل موته من غشيته، فسأل عائشة رضي الله عنها: «**ما فعلت بالسبعة دنانير؟**»، فأجابت أنها لا تزال عندها. فطلبها ووضعها في كفّه ثم قال: «**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه؟**»، ثم تصدّق بها على الفقراء. وقد لقي الله في كساء ملبّد، وإزار غليظ، وهو لباسه الذي قضى فيه. وحينما حجّ، حجّ في قطيفة لا تساوي درهمين وقال: «**اللّهمّ حجة لا رياء فيها ولا سمعة**». مع هذه الزهادة ترك لنا نوراً يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم صراط الله المستقيم، ذلك لمن أراد الله والدار الآخرة، والعاقبة للمتقين.

### ❑ تواضعه:

وأما عن تواضعه ﷺ فكانت طبيعة فيه وجبلة، ليس فيها تصنُّع أو مظاهر خادعة أو تكلُّف كما نرى في بعض العلماء والدعاة ممن يتكلفون التواضع ويتظاهرون به، فيكون مظهرهم ممجوجاً مرفوضاً. فأعماله وسلوكه تصدر عنه طبيعية، تدل على سعة خلقه، وعمق سريرته الصافية.

بعد أن فتحت بلاد الشام فرَّ عديُّ بن حاتم الطائي من بلاد الشام إلى بلاد الروم على أثر هزيمة قبيلة طيئ أمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فهدم صنمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسَبْيَهم. وكان في السَّبْي: بنت حاتم الطائي شقيقة عدي (سفَّانَة). ولما استعرض رسول الله ﷺ السّبي: وقفت (سفانة) وعَرَّفت بنفسها وطلبت من رسول الله ﷺ أن يمنّ عليها ويطلق سراحها. فأجابها، فدعت له قائلة: شَكَرتك يدٌ افتقرت بعد غنى، ولا مَلَكَتك يدٌ استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيمٍ حاجة، ولا سُلِبَ نعمة كريمٌ إلا وجعلك سبباً لردها عليه.

ولما وصلت إلى أخيها قصّت عليه من حسن معاملتها، وأخلاق المسلمين، وصفات رسول الله ﷺ، وأخبرته بحُسن ما عوملت به من الكرم، فقال لها أخوها عدي ـ سيد قومه ـ: ما ترين من أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبيّاً فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فأنت أنت. قال: والله هذا هو الرأي.

فخرج عدي حتى جاء المدينة، ولقي رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: **«مَن الرجل؟»**، فقال: عدي بن حاتم. فقام رسول الله ﷺ فانطلق به إلى بيته. قال عدي: فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك. ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل في بيته، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إليّ، فقال: **«اجلس على هذه»**، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: **«بل أنت»**، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ على الأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال: «**إيه يا عدي بن حاتم هل تعلم من إلٰه سوى الله؟**»، قلت: لا. ثم قال: «**هل تعلم شيئاً أكبر من الله؟**»، قلت: لا، قال: «**ألم تكِ ركوسياً؟**» - دين بين النصارى والصابئة - قلت: بلى، قال: «**أوَ لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟**»، قال: قلت: بلى، قال: «**فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك**»، قال: قلت: أجل والله. وقال: وعرفت أنه نبيّ مرسل، يعلم ما يجهل.

ثم قال: «**لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجة أهله. تقول: إنما اتبعه ضعَفَة الناس، ومَن لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد مَن يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم. أتعرف الحيرة؟**»، قال: لم أرها وقد سمعت بها. قال: «**فوالله ليتمَّنَّ هذا الأمر، حتى أن تخرج المرأة من الحيرة على بعيرها حتى تطوف بالبيت، من غير جوار أحد. ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم. وايم الله، ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض، من أرض بابل قد فتحت عليهم**»، قال: فأسلمت.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قاله النبيّ أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه (أي يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة لا يجد أحداً يقبله)[1].

---

(١) البخاري **٣٥٩٥** وانظر نور اليقين ص٢٦٣.

ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى القادسية والحيرة والقصور البابلية البيضاء قد فتحت. ولقد أدرك عدي أن محمداً ﷺ ليس بملك أو أميراً لقوم أو من يطلب ذلك. وإن أخلاقه فوق ذلك، إنها أخلاق الأنبياء والمرسلين.

ومن هذه الأخلاق أنه مات ابنه (إبراهيم) وكان الأمل معقوداً عليه أن يعيش من الذكور... إذ توفي الذكور كلهم... فلما امتدت الحياة بإبراهيم... وزاد التعلق به، إذا به فجأة تخمد أنفاسه وهو صغير. وحدث أن انكسفت الشمس يومها... وهي فرصة لمن يحب الشهرة والعظمة والظهور، والاعتقاد بكرامته عند الله ومعجزاته، فإذا بالحبيب المصطفى ﷺ يجمع الناس ويخطبهم قائلاً: «**أيها الناس، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وصلُّوا وتصدّقوا**»، وصلّى بهم صلاة الكسوف.

هذا تواضع من يتعشق الحق فيتبعه، ولا يستغل الصدف ليتعالى، ويأبى السكوت على ما ظن به الناس، وتوهموه بقولهم إن الشمس انكسفت لموت إبراهيم.

قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً. فقال ﷺ: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال. الكبر بَطَرُ الحق وغمص الناس**».

وهو القائل: «**إن من أحبّكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله، وما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**».

وقال: «**مَن تعلّم صرف الكلام ليستبيَ به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**»، وقال: «**هلك المتنطعون**. . .»، لأنهم بعيدون عن البساطة والتواضع.

وهو ﷺ قدوة في ملبسه ومطعمه ومسكنه، مَن رآه بداهة هابه، ومَن عاشره أحبّه، يجيب دعوة الحرّ والعبد، والأمة والمسكين، يَرْقَع ثوبه ويخصف نعله، ويخدم نفسه، يأكل مع الخادم، يبدأ الناس بالسلام، وآخر مَن يسحب يده إذا صافح، ويصغي إلى محدثه. وإذا أقبل جلس حيث ينتهي به المجلس بين الناس. يحمل بضاعته وحاجته من السوق ويقول: «**صاحب الحاجة أوْلى بحملها**». يشارك الناس فيما يطلبه منهم، ففي غزوة الخندق فرض على كل عشيرة مسافة، ليحفروا فيها الخندق. وأخذ المعول وأخذ يحفر في حصّته من الخندق، وربما ساعد الآخرين فيما يعترضهم من كتل صخرية. . . ويعصب بطنه بحجر من شدة الجوع وألمه.

دعاه جابر بن عبدالله إلى طعام أثناء حفر الخندق وقال: يا رسول الله، صنعت زوجة جابر طعاماً يكفي اثنين أو ثلاثة فأقدِم ومَن شئت من أصحابك. فإذا به يقول لجميع أفراد المسلمين: «**إن جابراً صنع طعاماً فحيّ، هلا بكم**. . .»، وإليك القصة كما أوردها البخاري.

عن جابر رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدْية شديدة، فجاؤوا النبيّ ﷺ فقالوا: هذه كُدْية عرضت في الخندق. فقال: «**أنا نازل**» ثم قام وبطنه معصوب بحجر. ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً. فأخذ النبيّ ﷺ المعول فضرب. . فعاد كثيباً أهْيَل.

فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبيّ ﷺ شيئاً ما كان لي في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق[١]. فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة[٢]، ثم جئت بالنبيّ ﷺ والعجين قد انكسر، والبُرْمَة بين الأثافي[٣]، قد كادت أن تنضج فقلت: طُعَيّمٌ لي. فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: «**كم هو؟**»، فذكرت له. قال: «**كثيرٌ طيب، فقل لها: لا تنزع البُرْمة ولا الخبز من التنّور حتى آتي**»، ثم نادى المهاجرين والأنصار فقال لهم: «**قوموا**»، وفي رواية: فصاح النبيّ ﷺ: «**يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سُوراً[٤] فحيّ هلا بكم**»، فلما دخل جابر على امرأته قال: ويحك جاء النبيّ ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومَن معهم. قالت: هل سألك كم طعامك؟ قال: نعم. فقالت: الله ورسوله أعلم.

ثم جاء النبيّ ﷺ فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**»، فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البُرمة إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية. قال: «**كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**».

قال جابر: فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا، وإن برمتنا لتغطّ كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو[٥].

---

(١) سخلة: أنثى المعز الصغيرة.

(٢) البرمة: القدر.

(٣) الأثافي: الحجارة التي تنصب القدر عليها.

(٤) السُور - بضم السين -: الطعام الكثير.

(٥) البخاري: الفتح ٧/٢٧٩.

فرسول الله ﷺ لم يشر إلى نصيب كل جماعة من حفر الخندق، وضَرَبَ ضَرَبات افتتح بها المشروع، بل عمل حفّاراً وناقلاً للتراب.

ذكر البخاري[1] عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر.

وأما عن حلمه وكظم غيظه، وعفوه وصفحه، فيكفينا قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

فكان ﷺ دائم البِشر، سهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخّابٍ ولا فحّاشٍ، ولا عيّاب ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه، وكان يؤلّفهم ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كل قوم ويولّيه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي على أحد منهم بِشْرَه ولا خُلُقَه، ويتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه. لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. ومَن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس بَسْطُه وخُلُقُه، فصار لهم أباً وعنده في الحق سواء.

جاءه أعرابي يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال: «**أأحسنت إليك؟**»، قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم أن كُفُّوا. ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه، وزاده شيئاً ثم قال: «**أأحسنت إليك؟**»، فقال: نعم. فجزاك الله من أهلٍ

---

(١) فتح الباري، ومسلم.

وعشيرةٍ خيراً. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديَّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك**»، قال: نعم. فلما كان الغد، أو العشي، جاء فقال ﷺ: «**إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟**»، قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

### ❑ الزهد:

لقد اصطفاه الله من البشر جميعاً ليكون قدوة وإماماً لكل مَن أراد مرضاة الله وواسع جنته، وابتعثه في وقت كان الناس لا يقيمون وزناً إلا لمن يملك المال، أو لذي حسب أو نسب.

فضرب المثل من نفسه في القناعة والزهد، واقتفى الأصحاب خطاه، وأصبحت الدنيا بما فيها طريقاً للآخرة.

وفهموا حقيقة الزهد في الدنيا، ومعنى الرحمة، وبحثوا عن الحق وثبتوا عليه.

فالزهد في الدنيا ليس بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزّهادة أن تكون بما في يد الله تعالى، أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة، إذا أُصبت بها أرغب منك فيها، لو أنها بقيت لك، لأن الله تعالى يقول: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

وحقيقة الزهد: أن يرغب المرء عن شيء، ويعدل عنه إلى غيره كالذي يرغب عن الدنيا ويرغب في الآخرة، ولا يكون هذا الزهد

حقيقة إلا إن صدر عن حال ورغبة في الآخرة، ويحفظ المرء قلبه وجوارحه عما يناقض ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

ومن حديث سهل بن سعد مرفوعاً: «**إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا يحبك الله**».

قال حارثة لرسول الله ﷺ حينما سأله: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**»، فقال: أنا مؤمن حقاً يا رسول الله. فقال: «**إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**»، فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً. فقال ﷺ: «**عرفتَ فالزم، عبدٌ نوَّر الله قلبه بالإيمان**».

وسئل رسول الله ﷺ عن معنى (الشرح) في الآيتين الكريمتين ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، وفي قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قال ﷺ: «**إن النور إذا دخل القلب، انشرح له الصدر فانفتح**»، قيل: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: «**نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله**».

لقد ضرب رسول الله ﷺ أروع المثل في الزهد والقناعة بأنه لم يتغير حاله في فقره وغناه، وضعفه وقوته، حاله حينما حوصر في الشّعب، وبعد أن ملك الأموال والثروات... ومع ذلك فهو يهب

هبات الملوك، ويعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر.

في غزوة حنين وبعد رجوعه ﷺ من الطائف عسكر في ـ الجِعرَّانة[١] ـ حيث كان السّبي والأموال، فأحصى المال وخمّسه، ومن الخُمس أعطى أناساً ضعف إسلامهم يتألف قلوبهم، ويحبّب إليهم الإسلام، فأعطى أبا سفيان أوقية من الذهب، ومائة من الإبل[٢]. وكذلك لابنيه معاوية ويزيد، فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت كريم في السّلم والحرب. وأعطى حكيم بن حزام فاستزاده فزاده وأعطاه، ثم استزاده فأعطاه، وقال له: «**يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمَن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفسٍ، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»، فأثرت هذه الكلمات في نفس حكيم. فأخذ حكيم المائة الأولى، وترك ما عداها وقال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً، حتى أفارق الدنيا. فكان الخلفاء بعد رسول الله ﷺ يعرضون عليه عطاءه من بيت المال فلا يأخذه.

ولمح ﷺ صفوانَ بنَ أمية يرمقُ شِعْباً مملوءاً نَعَماً وشاءً فقال له: «**هل يعجبك هذا؟**»، قال: نعم. قال ﷺ: «**هو لك**»، فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفس أحدٍ. وأعلن إسلامه، وكان صفوان قبلها مشركاً خرج مع رسول الله ﷺ.

وبعد أن فرغ من العطاء قال: «**فوالله! إن كان لي شجر تهامة نِعَماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً**»، ثم

---

(١) الجعرانة: بلدة تبعد عن مكة ٣٥كم إلى الشمال الشرقي.

(٢) نور اليقين ٢٥٣.

قام إلى بعيره، وأخذ وبرةً من سنامه وقال: «**أيها الناس، والله ما لي من غنيمتكم ولا هذه الوَبَرة إلا الخُمُس، والخُمُس مردود عليكم**».

فأعطى الناس ولم يعطِ من هذه العطايا ـ الأنصار ـ حتى قال بعضهم: إن هذا لهو العجب، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فبلغه ذلك. فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قال لهم: «**يا معشر الأنصار! ما مقالةٌ بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم بي؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألّفهم. أغضبتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليل من الدنيا ألفت به قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يزلزل؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمدٍ بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللَّهمَّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار**».

فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

ومع كل هذا العطاء كيف حاله في بيته وأسرته؟

يقول ابن مسعود: دخلت على رسول الله وقد قام على حصير، وقد أثّر في جنبه، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه؟ فقال: «**ما لي وللدنيا! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**».

لقد كان في أسرته مثالاً للزهد الحقيقي مع أنه لم يطلب من عامة الناس ذلك، ولكنه أراد أن يعلّمهم كيف هي حال الأمير والقائد والإمام.

دخل على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفي يدها عقد من ذهب، وهي تقول لامرأة عندها: هذا العقد أهدانيه أبو الحسن رضي الله عنه، فقال ﷺ: «**يا فاطمة، أيسرُّك أن يقول الناس: ابنة رسول الله ﷺ في يدها سلسلة من نار؟**»، ثم خرج ولم يقعد. فأرسلت فاطمة بالعقد فباعته واشترت بثمنه عبداً فأعتقته، فحُدّث رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**الحمد لله الذي نجّى فاطمة من النار**»، لا شك أن فاطمة رضي الله عنها وجدت لذّة وجدانية، وإشراقاً روحياً، وطمأنينة نفسية، أكثر من تلك القلادة الذهبية في عنقها، والتي تتفاخر الأنثى بها أمام أترابها.

لم يحرّم ذلك رسول الله على عامة النساء من المسلمين بل أراد من أهل بيته أن يكونوا مثلاً أعلى للبُعد عن الكماليات والتحسينيات وسفاسف الأمور، وهناك في الأمة مَن لا يجد رغيف خبز ولا لقمة عيش يأكلها أو كساء يلبسه.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير ـ وأمه أسماء ـ: يا ابن أختي: إن كنا لننظر الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. فقال: يا خالة، ما كان عيشكم؟ قالت: الأسودان ـ التمر والماء ـ إلا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار كانت لهم منائح[1] وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا.

(١) جمع منيحة، وهي الشاة يعيرها صاحبها للمعار لينتفع بلبنها.

ولما وضع الإسلام أجرانه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً وزكاة الأموال والهدايا تصل إلى رسول الله ﷺ فيقسمها بين الناس، ولا يُبقي لنفسه شيئاً، وكذا لا يخص أهله وعائلته بشيء أبداً.

جاءه رقيق من البحرين، فأخذ يوزعه على الناس.. فذهب علي رضي الله عنه وتعرّض لرسول الله ليريه مكانه، فلم يَدْعُه رسولُ الله ولم يعطه شيئاً. فانطلق إلى فاطمة زوجته وطلب منها أن تذهب إلى أبيها فعساه يعطيها خادم، يساعدها في نقل الماء، أو طحن الشعير والذرة. فذهبت رضي الله عنها وأرت نفسها لرسول الله ﷺ فلم يكلمها، وشُغِل عنها، فعادت صفر اليدين ـ وهي المدلّلة عند أبيها إذا رآها قادمة عليه قام إليها وقبّلها، وهي تفعل مثل ذلك ـ.

لما فرغ رسول الله من التوزيع مرَّ ببيت فاطمة وقال لهما: «**أتطلبان شيئاً؟**»، فقالت فاطمة ـ وأرته يديها ـ: انظر يا أبي إلى آثار آلام الرحى، وإلى كتفي، من حَمْل الماء، فلو أعطيتنا خادماً كما تعطي الآخرين. فإذا به يقول: «**ألا أعطيكما خيراً من ذلك: إذا آويتما إلى فراشكما، فسبِّحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمداه كذلك.. وكبِّراه مثل ذلك، فذلك خير لكم من خادم**».

لقد أراد ﷺ لهما ما أراد لنفسه.

## ❑ من خصائصه ﷺ:

أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وركب البراق، فأراه الله سبحانه من آياته الكبرى ما رأى، وما زاغ البصر وما طغى، وصلّى بالأنبياء والرسل إماماً، وأطلعه الله على الجنة والنار

بكيفية الله أعلم بها، وكلّمه الله تعالى وهو في الملأ الأعلى، وفرض عليه الصلاة وقتها لأهميتها.

وكان الرسل يُبعثون إلى أقوامهم خاصّة فبُعث إلى الناس كافة، ونُصر بالرعب مسيرة شهر، وأُحِلّت له الغنائم ولم تُحَل لأحد قبله، وجُعلت الأرض له، وللأمة المسلمة مسجداً وطهوراً.

وأقسم الله بحياته - والقسَم يكون بمعظَّم - عن ابن عباس قال: ما خلق الله وما ذرأ نفساً هي أكرم من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢] ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ.

وهو أول مَن تنشق الأرض عنه، وأول شافع وأول مَن يؤذن له بالسجود، وأول مَن ينظر إلى رب العالمين، والخلق محجوبون عن رؤيته وقتها. وأول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط وأول داخل إلى الجنة، وأمته أول الأمم دخولاً إليها.

واختص بالمقام المحمود، ولواء الحمد، تحته آدم فمَن دونه من الأنبياء.

واختصّ بالسجود لله تعالى أمام العرش، وما يفتحه الله عليه في سجوده من التحميد والثناء على الله. فيقال له: ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تُعطَ واشفع تشفَّع.

روى مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيّ يومئذٍ آدم فمَن سواه إلا تحت لوائي،**

**وأول مَن تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأول شافع وأول مشفع»**، والزيادة من الترمذي.

## ❑ عصمة الرسول ﷺ:

ورسولنا كغيره من الرسل معصوم من الذنوب والآثام، محفوظ بالعناية الإلٰهية، فلا يرتكب معصية، ولا يخالف أمراً من أوامر الله، ولا يرتكب ذنباً يُحاسَب عليه.

ولكن في بعض الأمور التي لا وحي فيها، قد يجتهد أمراً ويكون ذلك خلاف الأولى، لا على أنه ذنب أو معصية، وهو القائل: «**مَن اجتهد فأخطأ فله أجر**»، ثم ينزل الوحي مبيّناً أن ما فعله واجتهده ﷺ صحيح، ولكن الأفضل منه ما يوضحه الوحي وبيَّنه على قاعدة «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**».

وذلك كمسألة قبول الفداء في أسرى بدر، فقد استشار النبيّ ﷺ الصحابة في أسرى بدر ولم يكن في ذلك نص، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، قومك وأهلك استبقيهم، لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك، وقاتلوك، قدّمهم فاضرب أعناقهم. فقال ﷺ لأبي بكر: «**مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ قال:** ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، **ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام إذ قال:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، **ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال:** ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:

٢٦]، **ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال**: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾» [يونس: ٨٨]، ثم قال عليه السلام: «**أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضربة عنق**».

فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]، ثم جاء بيان أن ما فعله الرسول ﷺ صحيح لا غبش فيه ولا سوء فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

وكذلك ظاهر هذا النص ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس: ١ ـ ٣] الآيات.

فالرسول لم يرتكب معصية وكل ما في الأمر «خلاف الأفضل والأولى».

وانشراح الصدر والسرور البادي على الوجه، والمقابل لذلك من الانقباض، وأن يعبس ويقطب جبينه أمرٌ عادي لا شعوري.. والقصة معروفة.

وكذلك قول الله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، فليس للنبيّ ﷺ ذنوب أو ما يتوهمه مَن لا معرفة له بالسيرة، وكل ما في الأمر أن الله تعالى غفر له ما فعله ﷺ من خلاف الأولى (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

ومع ذلك: كان يقول ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»، لمَن عاتبه بكثرة عبادته، وقيامه من الليل، وصومه من الأيام.

وأما ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب]، فقد خاض بعض المفسرين وأصحاب السِيَر في روايات ضعيفة أو موضوعة لا أصل لها. فزعموا أن رسول الله ﷺ انطلق يزور متبنّاه قبل الإسلام زيد بن حارثة فرأى زوجته زينب فوقعت في قلبه فصادفه زيد وهو يقول: «**سبحان مصرِّف القلوب**»، فعمد زيد إلى زوجته فطلّقها حتى إذا انقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ.

ولكن مَن هي زينب هذه رضي الله عنها؟

إنها بنت عمة رسول الله ﷺ (أميمة بنت عبد المطلب) ولما أراد أن يزوج رسول الله ﷺ زينب لزيد كرهت ذلك زينب وأمها حتى قالت لرسول الله ﷺ: أأؤمر في نفسي! لست عنه راضية ولست بناكحته. فقال ﷺ: «**بلى يا زينب**»، وتلى عليها قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والأمر ليس كما يبدو لأول مرة. هناك حكم تحريم النبيّ، وقد كان زيد متبنَّى رسول الله ﷺ وإن من أخس الأمور عند العرب أن يتزوج الرجل زوجة ابنه.. والابن من التبني كالابن.

فجاءت هذه الحادثة لبيان تحريم التبني من جهة، وأنه لو كان هذا التبني صحيحاً لما تزوج رسول الله مطلقة زيد. وهذا ما أوضحته الآية الكريمة ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟

مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، فهذا الزواج من الأصل لم يقم على الكفاءة في النسب لاستحالة ديمومة الزواج، ولكن إذا كانت هذه إرادة الله، ولحكمة أرادها كان ذلك، فلما اشتكى زيد إلى رسول الله زوجته وأراد أن يطلقها قال له الرسول ﷺ: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**» والله عزَّ وجلَّ أعلم نبيه أنها ستكون من بعده زوجة له... أمر إلهي. ولو لم تكن تلك الحكمة لتزوجها ابتداء وهي بنت عمته.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقراءة هذه الآيات لدليل ساطع على رسالة محمد ﷺ وأنه لم يكتم شيئاً من التنزيل...

ومن هذا نتبين عصمة الأنبياء عامة وعصمة نبينا ﷺ من الناس فلا يقتلونه، ولا يصلون إليه، وهذا خاص به ﷺ ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

* * *

## فائدة

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾، فالكتاب هو القرآن الكريم. والنور هو محمد ﷺ. والروح هي نور من أمر الله وبها ننعم في هذه الحياة. والجسد قفص لا قيمة له بلا روح.

وعندما شاء الله أن يعرج بالمصطفى ﷺ ألحق جسدُه - ﷺ - بروحه، فصار كل ذلك نوراً، وبقوة هذا النور اخترق أقطار السماوات والأرض في دقائق معدودة، ولا يصح اختراق ذلك إلا بسلطان.. فهذا هو السلطان (النور) ومن المعروف أن سرعة النور **٣٦٠** ألف ميل في الثانية، فيكون الاختراق بالقوة النورانية الربانية.

ومن هنا نفهم قول الصحابة أنه ﷺ (لا ظلّ له) لأنه نور تغلبت روحانيته على جسديّته ﷺ.

والله أعلم.





## خاتمة

ـ يرى ابن خلدون الحضارة على أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة الذي يقتضي فنوناً من العيش والعلم والصناعة، وإدارة شؤون الحياة، وتوطيد حياة الدَّعة وأسباب الرفاهية. وبهذا يكون أهل البادية والبعيدين عن المدن أبعد الناس عن الحضارة.

ـ ويرى آخرون أن الحضارة نظام اجتماعي يتألف من عناصر أربعة: الاقتصاد، والسياسة، والأخلاق، والعلوم والفنون والمعارف والفلسفات. وتطَّرِد الحضارة وتتقدَّم بعوامل دينية وجغرافية. وبالمقابل تنهار الحضارة بعوامل: الفساد والانحلال الخلقي والترف وفقدان المصلحين والمفكرين.

ـ والحضارة فى المفهوم الإسلامي: هي رسالة الله تعالى وشرائعه، فمنذ دخل الناس في الإسلام تفجرت ينابيع الحكمة وظهرت المواهب المبدعة في جميع الاتجاهات وفي سائر الأمور... لأنها نابعة من منهج الله تعالى.

ـ ومنهج الله سبحانه للخلق واحد في مضمونه وإن تعددت الشرائع فالغاية هي: عبادة الله وحده وإفراده بالألوهية والتوجه إليه

بالعبودية في سائر الطاعات والأعمال، والإيمان بالملائكة وعالم الغيب الذي أخبر عنه من بعث وحساب وجنات وعذاب جهنم للعصاة والكفرة... وفي كل ذلك التخلُّق بالأخلاق الفاضلة... وما من رسول أرسله الله إلا أوحى إليه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وإن ظهر اختلاف مع الزمن بهذا المضمون فهو من انحراف البشر أنفسهم والافتراء والكذب على الله سبحانه.

فحضارة الأنبياء بشرياً سارت في طريقها خطوة خطوة حسب التوجيهات الإلٰهية. وحضارة البشر سارت خطوة خطوة وراء الكشوف، لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان ولمداركه التي زوّده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة، ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة. وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية، فهي تهز أعماقها وتغيّر عاداتها ومألوفها، وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج. ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر، بعد كل تنسيق جديد. والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه سرعة توالي الهزّات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار، ولا تدع للنفس فرصة التكيُّف والتذوُّق للوضع الجديد.

إن التقدم العلمي الذي ينبع بعيداً عن العقيدة وعن منهج الله زائغ فاسد كشجرة خبيثة لا تُثمر إلا خبثاً وشقاءً وهلاكاً.

لقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة من مراحل العلم مذهلة، فبعد تحطم الذرة واستخدامها صنعت قنابل تفوق القنبلة الذرية بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار، ومليون طن في قوة الدمار والإهلاك. . . قادرة على قتل الملايين من البشر وإحداث الخراب والدمار الشامل يفوق الذي صنعته وخلفته قنبلتا (هيروشيما، وناجازاكي) بآلاف المرات فضلاً عن المشوّهين.

فماذا جنت البشرية من هذا العلم الذي لا يعرف أصحابه (الله) ولا يذكرونه، ولا يخشونه، ولا يحمدونه، ولا يتوجه إليه بعلمهم؟ ماذا جنت البشرية غير الضحايا الوحشية في كل بقعة من العالم، وغير الخوف والقلق والفقر والبؤس والشقاء والجوع والتشرُّد؟

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



## المراجع



١ - القرآن الكريم.
٢ - تفسير ابن كثير.
٣ - تفسير الظلال.
٤ - تفسير القرطبي.
٥ - خواطر قرآنية، للشعراوي.
٦ - الدر المنثور، للسيوطي.
٧ - الصحاح والسنن في الحديث ومجمع الزوائد، للهيثمي.
٨ - سيرة ابن هشام.
٩ - قصص الأنبياء، لابن كثير.
١٠ - البداية والنهاية، لابن كثير.
١١ - حياة وأخلاق الأنبياء.
١٢ - النبوة والأنبياء، د. محمد علي الصابوني.
١٣ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي.
١٤ - الملل والنحل، للشهرستاني.
١٥ - الموسوعة السياسية.

١٦ ـ **قصة مريم**، للنجار.

١٧ ـ **قصص الأنبياء**، أحمد جاد المولى.

١٨ ـ **الإنسان والأديان**، محمد كمال جعفر.

١٩ ـ **قصص الأنبياء**، عبدالوهاب النجار.





# فهرس المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |


